

الدكتور محمد ابن شريفة

# البسـطـي

آخر شـعـراءـ الأـنـدـلـسـ



MUHAMMED BEN CHRIFA

# AL - BASTI

EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



البُسْطَيِّ  
آخر شعراء الأندلس



الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

# البسُّ طي آخر شُعراً الأندلس

تأليف

الدكتور محمد ابن شريفة



**جَمِيعِ الْحَقُوقِ مَخْفُوظَةٌ  
الطبعة الأولى  
1985**

**دار الفَتْرَبِ الْإِسْلَامِي**

صَ ١١٣ / ٥٧٨٧ :  
**بَيْرُوْت - لَبَنَان**

## تقديم

هذه قراءة عامة في ديوان مخطوط لشاعر أندلسي مغمور، لا ذكر له ولا لشعره في المصادر المعروفة، ولو لا ظهور نسخة وحيدة من ديوانه في السينين الأخيرة ما وقف له على عين ولا أثر. إنه البسطي آخر شعراء الأندلس.

ويمكن أن نجمل قيمة ديوان البسطي فيما يلي:

أولاً: أنه مصدر وحيد في التعريف بصاحب الذي نسيته كتب الترجم وأغفل ذكره أصحاب المعاجم، ومن حسن الحظ أن شعر البسطي شديد الارتباط بشخصيته، قوي الاتصال بحياته.

ثانياً: أنه وثيقة تاريخية فريدة تكشف عن جوانب مجهولة من أواخر أيام المسلمين في الأندلس.

ثالثاً: أنه وثيقة أدبية تامة ونادرة تصور مستوى بلاغة أهل الأندلس قبيل ضياع الفردوس المفقود.

وقد قمنا في قراءتنا للديوان بتصنيف مضامينه وتنسيق محتوياته وتوثيق معلوماته ثم وظفنا ذلك كله في صياغة الفصول الآتية، وحرصنا على سرد الشواهد الكافية من شعر الشاعر لأنه مخطوط وغير معروف، وتعتمدنا الاختصار في الشرح والتعليق والاقتصار على ما لا بد منه في

العرض والتحليل لأن هذا العمل إنما هو مقدمة بين يدي الديوان  
المحقق الذي سيظهر قريباً بإذن الله.

وقد أحلنا في كل شاهد من شعر الشاعر على صفحات ديوانه  
المخطوط وجعلنا أرقام الصفحات بين ( ) أما الحواشى والتعليقات  
فتوجد في آخر كل فصل، واجتهدنا في تصحيح أخطاء نسخة الديوان  
المخطوطة وتمكيل ما يوجد بها من نقص.

ولا بدّ لنا في هذا التقديم من التنويه بعون صديقنا العزيز  
الأستاذ الدكتور إحسان عباس، فإن فضله في ظهور هذا الكتاب  
عظيم، كما نسجل هنا أن الفضل في اكتشاف ديوان البسطي يرجع إلى  
الأستاذ الجليل محمد إبراهيم الكتاني، ونشكر كذلك صديقنا الكبير  
الأستاذ عبد الرحمن الفاسي على مساعدته لنا في الحصول على صورة  
لخطوط الديوان، والشكر في الأخير لدار الغرب الإسلامي والجمعية  
المغربية للتأليف والترجمة والنشر على قيامها بطبع هذا الكتاب ونشره،  
والله سبحانه ولي التوفيق.

د. محمد ابن شريفة

## الفصل الأول

# مَنْ هُوَ الْبَسْطِي

يعتبر القرن التاسع الهجري في الأندلس قرناً غامضاً ومظلماً، فال المصادر التاريخية العربية فيه قليلة، والروایات الإسلامية الموجودة حوله شحيحة، ولعل من أسباب هذا انشغال أهل التدوين والتقييد بالفتن، وارتكابهم في تلك السنين الصعبة، ثم ضياع الوثائق والمدونات في غمرة سقوط غرناطة وسوها.

ومن هنا ظلت الروایات المسيحية مرجع الدارسين لحقبة مملكة غرناطة الأخيرة، ولا سيما الثلاثين الأولين من القرن التاسع الهجري أما السنوات الأخيرة من هذا القرن فنجد بعض أخبارها في الكتاب الذي نشر عدّة مرات من قبل مولر وشكيب أرسلان ثم البستانى وكذلك في أزهار الرياض ونفح الطيب.

وربما يتبدد بعض هذا الظلام ويكتشف شيء من ذلك الغموض حين تدرس النصوص القليلة التي انتهت إلينا لحسن الحظ من هذا العصر. وهي نصوص مختلفة في طبيعتها، متفاوتة في قيمتها، ولكن فائدتها غير خافية في

الكشف عن الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية لهذا القرن.

وقد نشر بعض هذه النصوص في السينين الأخيرة مثل: ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، ورحلة القلصادي، وبرنامجه المُجاري، ووثائق عربية غرناطية، وثبت الوادي آشي وما نُشر من رحلة عبد الباسط المصري والوثائق والرسائل التي نشرت من قبل أستاذنا الأهوازي والدكتور أحمد دراج والفقيد سيكو دي لوثينا وغيرهم.

وقد يُنشر قريباً «جنة الرضى»، في التسليم لما قدر الله وقضى» لأبي يحيى ابن عاصم، و«مظهر النور الباصر»، في مدح الملك الناصر» لابن فركون وديوان القيسي البسطي، وهو الذي نقدم قراءة مستوعبة له في الفصول التالية.

لقد وُجد هذا الديوان ضمن مجموعة في خزانة تامكروت ونقل مع ما نقل منها إلى الخزانة العامة في الرباط حيث سجل تحت رقم 198ق ويبعد أن ناسخه هو ناسخ الإكليل للنبيهي الذي يشتمل عليه هذا المجموع باسم هذا الناسخ محمد بن أحمد بن منصور، وتاريخ النسخ المثبت في آخر الإكليل هو الثامن والعشرون من ذي القعدة عام اثنين وألف.

وتتجدر الإشارة أولاً إلى أنه لا ذكر لهذا الديوان ولا ترجمة لصاحبها في المظان التي رجعنا إليها؛ كما أذكر من جهة ثانية أن الزميل الصديق الدكتور محمود مكي نشر منذ سنوات بمجلة العربي الكويتية (عدد 107) مقالة عنوانها: «عبد الكريم بن محمد القيسي الغرناطي» فله فضل الريادة في التعريف بهذا الشاعر، وإن كنت أستغرب نسبته إياه إلى غرناطة، إذ ليس في ديوانه كله ما يشير إلى أنه أقام بغرناطة.

يبدأ الديوان بعد البسمة والتصلية هكذا: «يقول عبيد الله سبحانه، المرتجي عفوه وإحسانه وغفرانه، [ ] عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي أفالص الله عليه إنعامه وإحسانه».

وفي هذه المخطوطة الفريدة من هذا الديوان بياضات متعددة، وأولها  
هذا البياض الذي نجده قبل ذكر اسم الشاعر، وهو يجعلنا نتساءل عن معناه،  
ونتشكّل في اسم الشاعر، ونضع في الحسبان احتمال ضياع جزء منه أو تعرّض  
قراءاته في النسخة التي نقل منها هذا الناسخ.

وقد يكون هذا التشكيك في اسم الشاعر معنى إذا نظرنا إلى ما يلي:

1- وجدنا القلصادي في رحلته يتحدث عن أودائه وأصحابه في مدينة بسطة فيذكر منهم الفقيه النبي الخطيب أبا عبدالله محمد بن عبد الكريم<sup>(2)</sup> ونستفيد من الديوان أن الشاعر كان فقيهاً خطيباً في بسطة.

2- وقفنا في آخر الجزء التاسع من مخطوطة كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الجد المحفوظة في القرويين على ما يلى:

انتهى الجزء التاسع من جامع كتاب البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليق، وبانتهائه كمل جميع كتاب البيان المذكور وحصل لدى مقيد هذا بخط يده الفانية محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي كان الله له، وأصلح قوله وعمله، وذلك في غرة رجب الفرد المبارك عام تسعة وخمسين وثمانمائة بمدينة بسطة كلاها الله تعالى<sup>(3)</sup>.

ونحن نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر كان له حانوتٌ في بسطة يشتغل فيه بالنسخ والتقييد والفتوى والتوثيق والإقراء والتعليم، قال من قصيدة طويلة عند إحراق حانوته ظلماً وعدواناً (146) :

فإِحْرَاقُ حانوْتِي - لِتَنْحَطَّ رُتبَتِي -  
يَعُودُ عَلَيْهِم بِانْعَكَاسِ الْمُؤْمَلِ  
فَقَدْ كَانَ لِلْأَحْكَامِ مَجْلِسَهَا الَّذِي  
تُصَانُ بِهِ مِنْ مُفْسَدٍ أَوْ مُبْدَلٍ

وكان لقييد العلوم وضيّطها  
وعقد شروط القوم أقناً منزل  
وشتى فنون العلم - مذكأن - لم تزل  
مُرَدِّدةً منه بأشرفِ محفل

كما نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر البسطي كان صديقاً للقلاصادي المشهور المذكور آنفاً فقد كتب الأول إلى الثاني بهذين البيتين (82):  
قلبي إليك لفقد أنساك سيدني

بالبعد عنك ذو غليلٍ صاد  
وعليك إطفاء الغليل وبرحه  
بالكتب إثر الكتب بالقلاصادي

وكتب إليه مرة ثانية يشكره على إعارةه كتاب بهرام في الفقه قال (82):

جزاكم الله خيراً عن أخي ثقة  
جُدْتُم عليه وانعمتم بيهرام<sup>(3)</sup>  
وكان إكرامه في ذاك متضحاً  
لا زلتُ الدهر في بري وإكرام

وكتب إليه مرة ثالثة - فيما يبدو - مهنياً بالورود من الحج (105):  
رَعَيْتُ لِخَلِّ حلَّ بالقلب ثاوياً  
على البعد - وَدَمْحَضَه لَمْ أَزْلَ أَرْعَى

رأى الحجَّ مَسْعِيًّا للثواب فآمه  
وعاد لنا من حججه يحمل المسعي  
ودان بجمع العلم حلاً ورحلاً  
ويا سعد من للعلم يوماً رأى جمعاً

هنيئاً له الفعل الصحيح الذي اقتضى  
بلامانع - جَزْمًا لِهِ النَّصْبُ وَالرُّفْعَا  
وَبِالْحَلٌّ فِي أَسْنَى الْمَوَاطِنِ آيَا  
هَنَائِي مَدَى الْأَيَّامِ أَشْفَعْهُ شَفْعَا<sup>(4)</sup>

وشكره على «هدية السرور» من الحج ف قال (121):  
وَصَلَ «الْجَاوِي» الَّذِي وَجَهْتُمْ  
صُحبَةَ الْكُحْلِ الشَّرِيفِ وَالْإِبْرِ  
فَلِسَانِي قَاصِرٌ عَنْ شُكْرِكُمْ  
سَيِّدِي يَا مُتَّهِي الْفِعْلِ الْأَبْرِ

نَخْلُصُ مِنْ هَذَا إِلَى أَنَّ الْفَقِيهَ النَّبِيَّ الْخَطِيبَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ  
الْكَرِيمِ الَّذِي لَقِيَهُ الْقَلْصَادِيُّ بَعْدَ رَجُوعِهِ مِنَ الْحَجَّ فِي بَسْطَةِ سَنَةِ 855هـ.  
هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقَيْسِيِّ الْبَسْطَيِّ نَاسِخُ  
الْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ سَنَةِ 859هـ. وَلَهُذَا الاسمُ - كَمَا هُوَ وَاضِعٌ - صَلَةٌ وَثِيقَةٌ  
بِاسْمِ شَاعِرِنَا الَّذِي وَرَدَ أَوْلَى مَقْدِمَةِ الْدِيْوَانِ بَعْدَ بِيَاضِ هَكُذا: «[ ]  
عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقَيْسِيِّ». وَكَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ فِي  
الْتَّارِيَخِينَ الْمَذْكُورِينَ .

إِنَّمَا كَانَ ثَمَةَ سَقْطٍ فِي الْاسْمِ حَسْبَ الْبَيَاضِ الَّذِي أَشْرَنَا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ  
يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ الْمَذْكُورُ فِي رَحْلَةِ الْقَلْصَادِيِّ وَفِي آخرِ مَخْطُوطِ الْبَيَانِ  
وَالتَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنْ سَقْطٌ فِي الْاسْمِ فَإِنَّ الشَّاعِرَ قَدْ يَكُونُ ولَدَ الْفَقِيهِ  
الْنَّاسِخِ الْمَذْكُورِ .

وَنَحْنُ نَجِدُ هَذَا الشَّاعِرَ الْبَسْطَيِّ يَخَاطِبُ وَالَّدَهُ بِقَصْدِيَتَيْنِ وَجْهَهُ  
إِحْدَاهُمَا لَهُ مِنْ مَدِينَةِ بَرْجَةِ الَّتِي بَدَأَ عَمَلَهُ فِيهَا إِمَاماً بِمَسْجِدِهِ لِقاءً أَجْرِ  
مَعْلُومٍ، وَالثَّانِيَةُ بَعْثَ بِهَا إِلَيْهِ حِينَما كَانَ أَسِيرًا فِي أَبْنَدَةِ، وَفِي كُلَّ تَابَقٍ  
الْقَصْدِيَتَيْنِ لَا يَسْمِيهِ وَلَا يَحْلِيهِ، وَلَا يَشِيرُ بِشَيْءٍ يَدْلِلُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَخَاطِبُهُ

بكل إعزاز وإجلال، مع حب وشوق شديدين، فقد افتح القصيدة الأولى  
قوله (45 - 46):

لِيُعْدِكَ يَا مَوْلَايَ طَارَ مِنَامِي  
وَصَارَ فِؤَادِي ذَا هَوَىٰ وَهُيَامِ  
وَجَاهَ بِقَلْبِي مِنْ جَوَى الْوَجْدِ جَاهِلُ  
أَطَالَ قُعُودِي تَارَةً وَقِيَامِي

ويختتمها بما قد يدل على أنه كان من أهل الأدب والعلم فيقول:

وَدُونَكَ يَا مَوْلَايَ مِنِي قَصِيدَةً  
بَهَرْتُ بِهَا فِي النَّظَمِ كُلَّ هُمَامِ  
أَتَيْتَكَ فِيهَا مِنْ شَوْوُنِي بَنْسَدَةً  
وَأَرْسَلْتُهَا مُخْتُومَةً بِسَلَامٍ

وأما القصيدة الثانية فهي طافحة بالشوق والحنين وقد وطا لها بقوله:  
«وَقَلْتُ مُخَاطِبًا وَالَّذِي أَمْتَعَ اللَّهَ بِبَقَائِهِ» (39):

يَا نَاظِرَ الطَّرْفِ بَلْ يَا قِطْعَةَ الْكَبِيدِ  
وَمَوْضِعَ الْحَبَّ فِي قُرْبِي وَفِي بُعْدِي  
وَمَنْ هُوَأَلَدَى الْقَلْبِ الْمَشْوَقِ غَدًا

فِي كُلِّ آوَنَةٍ كَالرَّوْحِ مِنْ جَسَدِي  
لَوْلَا اشْتِيَاقِي إِلَى أَنوارِ غُرَّتِكُمْ  
مَا كُنْتُ أَشْكُو عَنَّا أَسْرِي إِلَى أَحَدٍ

إلى أن يقول:

وَأَنْتَ يَا وَالِدِي إِنْ غَبَتْ عَنْ بَصَرِي  
فَلَمْ تَغْبِ لَحْظَةً وَاللَّهُ عَنْ خَلْدِي

إِنِي لَأَذْكُرْكُمْ حَتَّى لَأَذْكُرْ مَا  
 نَادَيْتُمُونِي بِهِ مِنْ لَفْظٍ: يَا وَلَدِي  
 فَأَنْطُوِي مِنْ حَنِيفٍ عِنْدَ ذِكْرِكُمْ  
 وَفَرِطٌ شَوْقِي إِلَى لُقْيَاكَ فَوْقَ يَدِي  
 كَمَا ذُكْرَهُ فِي أُولَى قَصْبِدَةِ فِي الْدِيْوَانِ نَظَمَهَا فِي مَدْحِ الرَّسُولِ وَهُوَ فِي  
 الْأَسْرِ مُتَوَسِّلًا إِلَى اللَّهِ بِجَاهِهِ كَيْ يَمْحُوا أَوْزَارَهُ:  
 وَيُجْمَعُ الشَّمْلُ الشَّتَّى بِوَالِدٍ  
 أَضْحَى صُلُوعِي مِنْ نَوَاهِ حِرَارَا

وسيبقى اسم هذا الشاعر واسم والده محل نظر إلى أن نظرر بما يحسم الأمر فيه كالعثور على نسخة أخرى من هذا الديوان أو الوقوف على ترجمة صاحبه أو أي إشارة إليه، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأريض لأبي يحيى ابن عاصم لعرفنا شيئاً عن هذا القيسي البسطي، وتأكدنا من اسمه لأن الكتاب المذكور يتضمن مختارات من شعره كما سنشير إلى ذلك فيما بعد. وليس أمامنا الآن إلا أن نقبل مبدئياً اسمه كما ورد في فاتحة الديوان، وهو عبد الكرييم بن محمد بن عبد الكرييم القيسي وسنفترض أنه ولد الفقيه محمد بن عبد الكرييم بن محمد بن عبد الكرييم القيسي - مع ملاحظة التقليد الأندلسي المغربي القديم في تسمية الحفيد باسم الجد في الغالب كما نجد في سلسلة ابن رشد وابن زهر على سبيل المثال - .

وعلى هذا فإن الشاعر من أسرة قيسية بسطية، كان والده - حسب افتراضنا - من أهل العلم وذوي المكانة في مدينة بسطة إذ كان فقيهاً نبيهاً وخطيباً دينياً جليلاً وقد يدلُّ انتسابه كتاب البيان والتحصيل لنفسه - وهو من مطولات الفقه المالكي بالأندلس - على مدى ثقافته الفقهية؛ ويبدو أن أفراد الأسرة القيسية في بسطة كانوا على العموم من المشغلين بالفقه والتوثيق والعدالة .

ومن نعرف منهم في هذه الحقبة أبو عبدالله محمد بن أحد القيسي البسطي<sup>(4)</sup>، وأبو عبدالله محمد بن علي القيسي البسطي<sup>(5)</sup>، وكانا من عدول مدينة بسطة، فقد وقفتا في وثائق عربية غرناطية - التي عني بجمعها وتحقيقها فقيد البحث لويس سيكودي لوثينا - على وثيقة شهد فيها الأول بتاريخ (842 هـ - 1439 م) وأخرى فيها شهادة الثاني بتاريخ (835 هـ - 1432 م) كما تحدى الإشارة إلى أشهر أسرتين قيسين في هذا العصر الغرناطي، وهما أسرة ابن عاصم القيسي في غرناطة، وأسرة ابن منظور الأشبيلية التي جالت إلى مالقة، واستمر أعلامها يتلون القضاء في مالقة وغيرها حتى نهاية مملكة غرناطة.

ومن القيسين المشهورين في هذا العصر أيضاً أبو عبدالله محمد بن عبد الملك القيسي المتنوري صاحب البرنامج المشهور، وثمة قيسين آخرون كانوا في المرية، وقد ترجمت عدد منهم ابن خاتمة في مذكرة المرية<sup>(6)</sup>.

لا نعرف طبعاً متى ولد شاعرنا البسطي ولكننا نفهم من ديوانه أيضاً أنه كان من رفقاء الدراسة لبعض الأعلام مثل القلصادي وأبي عبد الله محمد بن مالك الأليري وأبي عبد الله بن الأزرق الوادي آشي، واشترك مع أبي يحيى ابن عاصم في الأخذ عن الشيخ أبي عبد الله البياني، ومن أقرانه أيضاً فيما يبدو أبو عمرو ابن منظور، وبعض هؤلاء الأعلام عاشوا حتى العقد الأخير من القرن التاسع الهجري.

ومن معاصريه الذين خاطبهم بشعره أبو الحسن علي ابن داود البليوي الواد آشي المتوفى سنة 898 هـ وأبو حامد ابن الحسن النباهي وولده أبو جعفر أحمد والوزير أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد البر وأبو جعفر أحمد ابن القصار الذي كان حياً سنة 855 هـ وأبو الحسن علي بن عتيق ابن العز، - وهو من شيوخ صديقه القاضي أبي عمرو ابن منظور -، والقاضي الجعده الله وغيرهم من سفضل الكلام عليهم فيما بعد.

كما نعرف من ديوان الشاعر أنه كان يقول الشعر في سنة 836 هـ.

ونستطيع أن نقدر ولادته بناء على ما سبق في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، والظاهر أن ولادته كانت بمدينة بسطة، وفيها أيضاً نشأته ودراسته، وفيها قضى معظم حياته؛ وسنرى كيف أن شعره يردد أصوات الحياة اليومية في هذه المدينة، بالإضافة إلى أن هذا الشعر في جملته يعتبر مرآة لعدد من جوانب الحياة الأندلسية في عصره.

ومدينة بسطة التي ولد فيها - على ما يظهر - شاعرنا اشتهرت منذ القديم بطبعتها الجميلة، وفلاحتها الغنية وصناعتها التقليدية الرفيعة، وأسواقها التجارية؛ وقد أصبحت في عهد الموحدين مقرَّ العُمال على أعمالها. وفي المعجب تسمية لبعضهم<sup>(7)</sup>، وذكر ابن سعيد منهم شعبان الغزي الذي يقول فيها:

سَقَى اللَّهُ صَوْبَ الْغَيْثِ أَكْنَافَ بَسْطَةِ  
فِيهَا انبساطُ النَّفْسِ وَالْعَيْنِ وَالْقَلْبِ<sup>(8)</sup>

ونبغ فيها أعلام في العلم والأدب منذ القرن الخامس الهجري نجدتهم في كتب التراجم<sup>(9)</sup>.

وكانت طبيعتها الجميلة تغري بقول الشعر، قال ابن شفيع أحد شعرائها: «لو طبعت على الزهد لحملني حسن بلدي على المجنون والعشق والراحات»<sup>(10)</sup>.

وقد ذكرها البكري وبعده الأدريسي والحميري ومما قاله هذا الأخير: «وهي متوسطة المقدار حسنة الوضع عامرة آهلة ذات أسوار، وبها تجارات وفعلة بضرور الصناعات... وشجر التوت فيها كثير، وعلى قدر ذلك غلة الحرير، والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة وأرضها عذاء كثيرة الريع وبها كانت طُرُز الوطاء البسطي من الدبياج الذي لا يُعلم له نظير».

ولقد كبرت مدينة بسطة في العصر النصري وكثُر عدد سكانها،

وقدت من المدن المهمة في مملكة غرناطة. ونرى ابن الخطيب يطنب في وصف محاسنها في رسالته: خطرة الطيف<sup>(11)</sup>، ومعيار الاختيار<sup>(12)</sup>. فَمِمَّا قاله في خطرة الطيف:

«وكان ملقي الجران، منابت الزعفران، بسطة حرسها الله وما بسطة، محل خصيـبـ، وبـلـدةـ لهاـ منـ اسـمـهاـ نـصـيـبـ، بـحـرـ الطـعـامـ، وـبـنـبـوـعـ الـعـيـونـ الـمـتـعـدـدـ بـتـعـدـدـ أـيـامـ الـعـامـ، وـمـعـدـنـ ماـ زـينـ لـلـنـاسـ جـبـهـ مـنـ الـحرـثـ وـالـأـنـعـامـ، يـاـ لـهـ مـنـ عـقـيـلـةـ، صـفـحـتـهاـ صـقـيـلـةـ، وـخـرـيـدـةـ، مـحـاسـنـهاـ فـرـيـدـةـ».

ثم وصف جمالها وطبيعتها ومحضونها وأهلها إلى أن قال: «فلا أقسم بهذا البلد، وحسن منظره الذي يشفي من الكمد، لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق، لأثرها بقوله في صفة بلاد جلق:

بـلـادـ بـهـ الـحـصـبـاءـ دـرـ وـتـرـبـهـاـ  
عـبـيرـ وـأـنـفـاسـ الـرـيـاحـ شـمـولـ  
تـسـلـسـلـ مـنـهـاـ مـأـهـاـ وـهـوـ مـُـطـلـقـ  
وـصـحـ نـسـيمـ الـرـوـضـ وـهـوـ عـلـيـلـ

رمـتـ إـلـىـ غـرـضـ الـفـخـرـ بـالـسـهـمـ الـمـصـيـبـ، وـأـخـذـتـ مـنـ أـقـسـامـ الـفـضـلـ  
بـأـوـفـىـ نـصـيـبـ، وـكـفـاـهـاـ بـمـسـجـدـ الـجـنـةـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ الـبـرـكـةـ وـبـابـ الـمـسـكـ عنـوانـاـ  
عـلـىـ الـطـيـبـ».

وـعـمـاـ قـالـهـ فـيـ مـعـيـارـ الـاـخـتـيـارـ: «وـنـاهـيـكـ مـنـ بـلـدـ اـخـتـصـ أـهـلـهـ بـالـمـرـانـ، فـيـ  
مـعـالـجـةـ الـزـعـفـرـانـ، وـأـمـتـازـواـ بـهـ عـنـ غـيرـهـمـ مـنـ الـجـيـرانـ، عـمـتـ أـرـضـهـاـ السـقـيـاـ  
فـلـاـ تـخـلـفـ، وـشـمـلـتـهـاـ الـبـرـكـةـ تـخـتـصـ مـنـ يـشـاءـ اللهـ وـيـزـلـفـ، يـتـخلـلـ مـديـنـتهاـ  
الـجـدـولـ الـمـتـدـافـعـ، وـالـنـاقـعـ لـلـعـلـلـ النـافـعـ، ثـيـابـ أـهـلـهـ بـالـعـبـيرـ تـنـأـرـجـ، وـحـورـهـاـ  
تـتـجـلـيـ وـتـبـرـجـ، وـوـلـدـانـهـاـ فـيـ شـطـ أـنـهـارـهـاـ الـمـتـعـدـدـةـ تـنـفـرـجـ، وـلـهـاـ الـفـحـصـ الـذـيـ  
يـسـافـرـ فـيـ الـطـرـفـ سـعـيـاـ، وـلـاـ تـعـدـمـ السـائـمـةـ بـهـ رـيـاـ وـلـاـ رـعـيـاـ». وـوـصـفـهـاـ اـبـنـهـاـ  
الـقـلـصـادـيـ فـيـ رـحـلـتـهـ فـقـالـ: «دارـ تـخـجلـ مـنـهـاـ الدـورـ، وـتـقـاـصـرـ عـنـهـاـ

القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوتة من المحسن والفضائل، من صحة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كريم الشمائل، لهوائها الصحيح، وفضائلها الفسيح، وحسبك فيها من عدم العرج، أن داخلها باب الفرج».

ولشاعرنا القيسي شعر كثير في وصف طبيعتها الخلابة، ومتزهاتها الجميلة، وفواكهها المتعددة، فمن ذلك قوله في الحنين إليها حينما كان في الأسر (40) :

وَدَعِ الْحَنِينَ لِبْسَطَةٍ وَرُبُوعَهَا  
إِنَّ الْحَنِينَ يَهِيجُ مِنْكَ غَلِيلًا  
وَاتَّرَكُ حَدِيثَ «جَنَانٌ رُومَة»<sup>(14)</sup> جُمْلَةً  
وَجَنَانَ «عَيْنٌ قَنُولُشٌ»<sup>(15)</sup> تَفصِيلًا  
وَ«الْمَنْيَة»<sup>(16)</sup> الْغَرَاءَ دَعْ تَخْيِيلَهَا  
إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَحْذَرُ التَّخْيِيلًا  
حِيثُ الْجَدَاوِلُ مَاوَهَا مَتْفَجِرٌ  
أَضْحَى الصَّغِيرُ بِهَا يَفْوَقُ النِّيلًا  
حِيثُ الْبَطَاحُ كَانَهَا صَحْفٌ بَدَتْ  
تَهْفُوا الْجَفُونُ بِحَسْنَهَا التَّكْحِيلًا  
حِيثُ الظَّلَالُ تَوارَفَتْ وَتَفَيَّأتْ  
بِجَوَارِهَا تَهْوَى النُّفُوسُ مَقِيلًا  
حِيثُ التَّرَابُ لَطِيفٌ وَلَحْسِنَهُ  
تَهْوَى الشَّفَاهَ تَسُومُهُ التَّقْبِيلًا  
تَلَكَ الْرِبْوَعُ بِهَا الْفَؤَادُ مَتَيْمٌ  
مِمَّا يَحْنَ لَهَا أَبَى التَّقْبِيلًا

في الأصل: عما يحن بها أبي التقبيل.

ومن شعره في الحنين إليها أيضاً (36) :  
 مع ما أُعانيه بُعْدِي دائمًا  
 عن بسطة المأنوسية الأرجاء  
 حيث البطاخ كأنهن صحائف  
 رُقِمت بـإبريزٍ من الأضواء  
 حيث الحدائق فتحت أزهارها  
 عن وجنة المعشوقة العذراء  
 حيث الطيور ترنت في دوّحها  
 فأتت بمثل ترنم الشعراة  
 حيث النسيم إذا سرى مالت به  
 طرباً غصون البناء الميساء  
 حيث الجداول كالسيوف إذا مضت  
 موصوفة أبداً بحسن صفاء  
 حيث التراب كأنه من لؤلؤ  
 متناهٍ أو فضةٍ بيضاء

ويقول في فواكه جناتها (69 - 70) :

بالدمنة<sup>(17)</sup> الغراء من بسطةٍ  
 أدواحُ أعنابٍ تروق العيون  
 تلوّنت فيها عناقِيدها  
 وأظهرت للحسن شتى الفنون  
 قالوا: هي الشهد لذى ذوقها  
 طيباً، فقلت: الشهد والله دون

وَتِينُهَا الْأَيُوبِيِّ<sup>(18)</sup> فِي طِبِّهِ  
 وَحَسْنِهِ لَيْسَ يُسَاوِيهِ تِينُ  
 وَخَوْخُهَا يُشَبِّهُ مَحْمَرَةَ  
 خَدُودَ حُورٍ فُقَنَ فِي الْحُسْنِ عَيْنِ  
 وَكَالنَّهُودِ الْمُذْمَجَاتِ اغْتَدَى  
 اسْفَرْجَلُ يَحْمِلُ كُلَّ حِينَ  
 وَمُثْلُهُ فِي الشَّكْلِ رَمَانُهَا  
 كَمُثْلِ إِجَاصِ بَهَا مُسْتَبِينُ  
 وَكَالنَّجُومِ الرَّزْهُرِ زَعْرُورَهَا  
 أَوْ كَالْمَصَابِيعِ بِأَعْلَى الْغَصُونِ  
 مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَهُ جَنَّةَ  
 فَعَدَهُ مَنْ بَسْطَةٌ يَنْكِرُونَ

وَمِنْ أَعْجَبِ بِمَدِينَةِ بَسْطَةٍ وَمَدْحَاهَا صَدِيقُ شَاعِرِنَا إِبْنَ الْأَزْرَقِ الْأَدِيبِ  
 الشَّاعِرُ - وَهُوَ غَيْرُ إِبْنِ الْأَزْرَقِ صَاحِبِ الْمَؤْلُفَاتِ الْمُعْرُوفَةِ كَمَا سَنُشِيرُ إِلَى  
 ذَلِكَ - .

هَذِهِ هِيَ بَسْطَةُ مَوْطِنِ الشَّاعِرِ الْقَيْسِيِّ وَمَرْبِعُ صَبَاهُ وَمَثَواهُ. أَمَّا حَيَاتُهُ  
 فَسَنَعْتَمِدُ فِي تَصْوِيرِهَا عَلَى دِيْوَانِهِ، وَسَنَحَاوِلُ اسْتَخْلَاصُهَا مِنْ شِعْرِهِ.

وَكَعْدَدِ مِنَ الْأَعْلَامِ لَا نَجِدْ تَسْجِيلًا لِطَفْولَتِهِ مَا عَدَ إِشَارَةً إِلَى أَيَّامِ  
 الْدَّرَاسَةِ نَجَدُهَا فِي قَصِيدَةٍ يَخَاطِبُ بَهَا رَفِيقَ الْظَّلْبِ وَصَدِيقَ الْعُمَرِ أَبَا  
 عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ مَالِكِ الْأَلْيَرِيِّ، قَالَ يَذَكُّرُ هَذِهِ الْأَيَّامُ وَيَتَحَسَّرُ عَلَى ذَهَابِهَا  
 وَيَتَمَنِي رَجْوَعَهَا (38):

لِلَّهِ أَيَّامٌ مَضَتْ بِجِوارِهِ  
 فِي خَفْضٍ عِيشِ رَائِقِ الْجِلْبَابِ

نَجْنِي مِنَ الْعِلْمِ النَّفِيسِ نَفِيسَهُ  
 وَمِنَ السُّرُورِ وَصَالَ عَذْرًا كَعَاب  
 مَا كَانَ أَلَا مُثْلِ طَيفٍ زَائِرٍ  
 لِمُتَّمِيمٍ نَاءٍ عَنِ الْأَحْبَاب  
 مَرَّتْ وَفِي الْأَحْشَاءِ مِنْ تَخْيِيلِهَا  
 لَفَحَاتْ نَارٌ أَضْرِمَتْ لِعَذَاب  
 لَهْفِي عَلَيْها لَهْفَ صَبَّ مَوْجَعٍ  
 لِفِراقِ إِلَفٍ أَوْ لِفَقْدِ شَبَابٍ

ويقول من قصيدة أخرى مخاطباً صديقاً آخر من زملاء الدراسة هو أبو  
 عبد الله ابن رجاء (35):

فَهَلْ أَنْتَ مِثْلِي فِي الْإِخَاءِ وَرَعِيهِ  
 أَمْ لِلْبَعْدِ نَسِيتَ رَعْيَ إِخَائِي  
 وَغَفَلْتَ عَنْ عَهْدِ التَّأْسِ دَائِمًا  
 حَتَّى لَدِي الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ  
 فِي مَنْزِلٍ حَيَاهُ مُسَبِّحُ الْحَيَاةِ  
 وَسَقَاهُ صَوْبَ الدَّيْمَةِ الْوَطَفَاءِ  
 لَمْ تَتَخِذْ فِيهِ جَلِيسًا مَؤْنَسًا  
 غَيْرَ الْعِلْمَ وَسِيرَةِ الْعُلَمَاءِ  
 فَلَكُمْ فَوَائِدَ عِنْدَ ذَلِكَ نِلْتُهَا  
 جَلَّتْ لِكَثْرَتِهَا عَنِ الْإِحْصَاءِ

أما الشيوخ الذين درس عليهم فلم يذكر منهم إلا واحداً هو الشيخ  
 أبو عبد الله محمد البیانی وقد عرف به تلميذه القلصادي، فذكر أنه حضر  
 عليه عدة كتب في الفقه والعربية وسمى منها رسالة ابن أبي زيد وألفية ابن

مالك واياضاح أبي علي الفارسي وقال إنه توفي سنة سِتٍ وسبعين  
وثمانمائة<sup>(18)</sup>.

ونجد شاعرنا يخاطبه بجملة قصائد ومقطعات ولا سيما حين وقع في الأسر، وفي هذه القصائد ما يزيدنا معرفة بهذا الشيخ الذي كان من شيوخ العصر وتوشك بعض هذه القصائد أن تكون ترجمة لهذا الشيخ، ففي القصيدة التي أولها (16):

سَلُوامْنِبِهَا أَسْلُولَمْ اخْتَارَتِ الصَّدَا<sup>١٦</sup>  
وَلَمْ تَرْعَ لِي الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَلَا الْوُدَا

يعدد فنون العلم التي كان يتقنها هذا الشيخ فيذكر أنه كان في الحديث كالأمام مسلم، وفي الفقه كالمصري ابن القاسم، وفي التفسير كابن عطية، وفي القراءات كالDani، وفي النحو كسيبوه، وفي العروض كالخليل، وأنه كان عالي الكعب في أصول الفقه وأصول الدين، طائر الصيت في اللغة والطب، مجاوزاً الحد في التاريخ، مسابقاً سواه في علم الحساب والجبر، لا نظير له في التكسير، يهتدى برأيه في علم التعديل، واري الزند في علم المنطق، له بدائع في علم البديع، وشوارد في التصوف، إلى إتقانه ما يتعلق بقواعد الأحكام، وصنعة التوثيق.

ومع ما قد يكون في هذا من الإطراء والمبالغة فإننا لا نستبعد مثل هذه المشاركة الواسعة، لأنها من طوابع الثقافة الإسلامية التي ظلت حية ونشطة في الأندلس حتى في هذه الفترة التي سبقت سقوط غرناطة، فهذه الفترة أنجبت مثل العلامة ابن الأزرق، والحسيني الكبير القلصادي، وأبي يحيى ابن عاصم، والأديب الشاعر ابن الأزرق، وقد أطلق على كل منهما: ابن الخطيب الثاني.

ويستفاد من قصيدة أخرى للبسطي في مدح شيخه البشاني هذا أنه كان عصاماً في تعلمه وثقافته فهو يقول (12):

تجرّدَ غِرّاً للعلومِ فحازها  
 ولم يفتقرُ في حوزها لمعلمٍ  
 وأدركها وهي البعيدةُ مدركاً  
 بعقلٍ سليمٍ لم يعب بِتقسّمِ  
 وذكر في قصيدة أخرى أن البياني هذا ولبي القضاء في بسطة على كثرة  
 منه (18) :

فجَدَ رَسْمَ العدْلِ بعَدْ دُرُوسِهِ  
 وغَادَرَ رَبْعَ الْجَوْرِ لِلعينِ مُنْهَداً  
 وغَلَقَ بَابَ الظُّلْمِ مِنْ بَعْدِ فَتْحِهِ  
 وفَتَحَ بَابَ الْحَقِّ مِنْ بَعْدِ مَا انسَدَا  
 وَأَيَّدَ مُظْلوماً وَهَدَّ ظالماً  
 وَأَمْنَ مُذْعوراً وَأَعْدَى مِنْ اسْتَعْدَى  
 وَسَاوَى وُقُوفاً بَيْنَ خصِّمٍ وَخَصِّمِهِ  
 وَأَدْبَرَ مَنْ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ قَدْلَدَا  
 وَفَاقَ شُرَيْحاً فِي عَدَالِتِهِ الَّتِي  
 يَأْهِرُزُها كُلُّ الْمُظَالَمِ قَدْ رَدَا  
 وَأَنَّهُ قَامَ مَعَ ذَلِكَ بِأَعْبَاءِ الْخَطَابَةِ وَالإِمَامَةِ وَالإِقْرَاءِ وَالتَّدْرِيسِ وَالْفِتَايَا

قال:

وَكَانَ مُجَدّاً فِي الْقِيَامِ بِحَمْلِهَا  
 وَصَادَفَ وَقْتاً لَمْ يَكُنْ يَلْحِظَ الْجِدَا  
 فَأَخْرَى عَنْهَا لَا لَنْقَصٍ وَوَصْمَةٌ  
 وَعُوْضٌ مِنْهُ مَنْ تَبَدَّى لَهُ ضِداً  
 فَأَفَ لِدُنْيَا لَمْ تُؤْفَ حُقُوقَهُ  
 وَتَبَّا لِقَوْمٍ لَمْ يُرَاعُوا لَهُ الْعَهْدَا

وقد أشار في قصيدة أخرى إلى أنه لازمه مدة يأخذ عنه (16):

لَازْمُتُهُ زَمَنًا أَجْنِي فَوَائِدَهُ  
مُثَابِرًا عِنْدَمَا أَجْنِي وَمُخْتَلِسًا  
وَالْجِدُّ يَبْعَثُنِي وَالْجَدُّ يُسْعِدُنِي  
مَعَ الشَّبَابِ وَطَرْفُ الدَّهْرِ قَدْ نَعْسَا  
حَتَّى جَرَى الْقَدْرُ الْمُحْتَوْمُ سَابِقُهُ  
فَخَابَ ظَنِّي وَمَا أَمْلَتَهُ انْعَكَسَا  
فَمَا هُوَ الْقَدْرُ الْمُحْتَوْمُ الَّذِي يُشَيرُ إِلَيْهِ؟

لَعَلَّهُ الْأَسْرُ الَّذِي امْتَحَنَ بِهِ فِي مَطْلَعِ حَيَاتِهِ وَوَصْفِهِ فِي قَصَائِدٍ  
وَمَقْطَعَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَكَيْفَ كَانَ ذَلِكُ؟.

يبدو أن شاعرنا بعد أن شدا قدرًا صالحًا من العلم اضطرَّ تحت وطأة  
الحاجة إلى مغادرة بسطة وهو ما يزال في ميعنة الشباب أو كما يقول هو  
مخاطبًا والده في قصيدة وجهها إليها من مدينة برجة:  
فَقَدْ شَيَّبَتْ هَذِي الْبُشَرَاتُ<sup>(19)</sup> مَفْرِقِي

وَسِنِي كَمَا تَدْرُونَ سِنُّ غُلامٍ

وفي هذه القصيدة يعبر عن شوقه لوالده ويدرك أنه ظفر بعمل هو  
الإمامية في مسجد برجة لقاء أجر سنوي حدد في قوله:

بِخَمْسِينِ دِينَارًا وَمَا هُوَ تَابَعٌ

لَهَا مِنْ فِرَاشٍ لَاقِي وَطَعَامٍ

ويبعد أنه كان مرتاحاً في برجة مستريحاً إلى أهلها فهو يقول

: (46 - 45)

أَرْوَحُ وأَغْدُو بَيْنَ قَوْمٍ تَوَاطَلُوا

قَدِيمًا عَلَى إِكْرَامِ كُلِّ إِمَامٍ

سَرْتُ بِشَذَا إِحْسَانِهِمْ نَفْحَةُ الصَّبَا  
 فَحَطَّتْ لِشَمِّ الطَّيْبِ كُلَّ لَثَامِ  
 فَطَابَتْ نُفُوسُ طَالَمَا قَدْ تَغَيَّرَتْ  
 وَصَحَّتْ أَنُوفُ تَشْتَكِي بُزُوكَامِ  
 أَمِثْلُ شَخْصٍ عِنْدَهُمْ فِي حَدِيقَةٍ  
 سَقاها سَحَابُ الْجَوْدِ صَوْبَ سِجَامِ  
 فَجَادَتْ بِمَا تَهَوَى النُّفُوسُ وَتَشَتَّهَيِ  
 فَمَا شَيْئَهُ أَجْنِيَهُ دُونَ مَلَامِ  
 وَفِي بَرْجَةٍ مَثَوَيَ حِيثَ تَبَسَّمَتْ  
 ثَغُورُ الْأَقْاحِي مِنْ بَكَاءِ غَمَامِ  
 وَسَالَتْ بِسْلُسَالِ الْفَرَاتِ جَدَاؤُ  
 لَرِي بَطَاحِ غَضَّةٍ وَأَكَامِ  
 وَمَالَتْ غَصُونُ الرُّوْضِ بَعْدَ تَعْانِيَةٍ  
 كَمَا مَالَ سَكْرَانُ لِشُرْبِ مُدَامِ  
 وَنَاحَتْ رِيَاحُ الشَّحْرِ فِي كُلِّ رُوحَةٍ  
 كَمَا نَاحَ فِي الْأَدَوَاهِ وَرَقُ حَمَامِ  
 أَؤُمُّ بِهَا فِي مَسْجِدٍ بِجَمَاعَةٍ  
 مُقِيمِينَ لِلْخَمْسِ الْفُرُوضِ كِرَامِ  
 بِهِمْ تَضَرُّبُ الْأَمْثَالُ فِي حَفْظِ دِينِهِمْ  
 فَمَا مَثَلُهُمْ فِي مَوْصِلٍ وَشَامِ

وهذا هو نظام الشرط الذي كان معروفاً في الحواضر والبوادي  
 بالأندلس والمغرب - وما يزال العمل جارياً به في الbadia المغربية - حيث  
 يتشارط أهل القرية على أجراة مع طالب حافظ للقرآن عارف بمبادئ الدين

يقرىء صبيان القرية ويؤم بالناس فيها، وتوجد نوازلٌ غرناطية متعددة تتحدثُ عن نظام الشرط في هذه الفترة<sup>(20)</sup>.

والشاعر يصرح في هذه القصيدة بأنه خرج مضطراً من بسطة إذ لم يتع له التوظف فيها، قال (46):

وَاللَّهِ مَا صَبَرْتُ عَلَى الْبَعْدِ سَلَوةً  
وَلَا أَنْ جُورَ الدَّهْرِ شَدَ زِمامِي  
وَلَكِنْ قَضَاءُ سَابِقٍ حَكِمْتُ بِهِ  
مَقَادِيرُ تَرْمِي مَنْ تَشَاءَ بِسَهَامِ  
لَهَا فِي الْوَرَى فِي كُلِّ يَوْمٍ تَصْرُفُ  
بِوَضْعِ عِظَامٍ أَوْ بِرَفْعِ لِئَامٍ  
أَحْلَتْ دَمِي بِالْبَعْدِ وَهُوَ مُحَرَّمٌ  
كَتْحِرِيمٍ قُرْبِي وَهُوَ غَيْرُ حَرَامٍ  
وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقُرْبِ ذَبَتْ تَشْوِقاً  
إِلَيْكُمْ وَمَا أَتَمْمَتْ شَهْرَ صِيَامٍ

والذي يبدو لي أنه خلال تجواله للمشارطة في القرى والمدن الصغيرة بمملكة غرناطة تعرض للأسر في بعض الطرقات ونعرف أنها كانت يومئذ مخوفة، وفيهم من بيت له أنه تجول في أرجاء الأندلس من أجل الدراسة أو العمل، قال يمداح أستاذة البيانى (16)::.

وَحَقُّ وَالِدِهِ الْحَبْرِ الْإِمَامِ وَمَا  
حَوَى مِنَ الْعِلْمِ بِالدِّرْسِ الَّذِي دَرَسَاهُ  
مَا أَبْصَرَتْ مُقْلِتِي شَخْصًا يَمَاثِلُهُ  
فِي بَعْضِ أَوْصَافِهِ مُذْجَلُتُ أَنْدَلُسَا

وذهب صديقنا الدكتور محمود مكي إلى أن الشاعر أسر إثر اشتراكه في الجهاد وانخراطه في صفوف الغزاة المجاهدين، وقد يكون أسر في

إحدى الغارات على بسطة، لأنَّ الأسرى لم يكونوا يومئذ من المحاربين فقط فإننا نجد من بينهم نساء. (وثائق عربية غرناطية: 107).

ومهما يكن من أمر فنحن نجد الشاعر أَسِيرًا في آبَرَة كما رسمت وضيَّبت في الديوان مرات متعددة، وقد تكون أَبْذَنَة كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمود مكي بعد الأولى من ديار الإسلام وقرب الثانية منها؛ ولتساوي الكلمتين فإن الميزان الشعري يقبلهما معاً، والأولى تكتب عادة يابرة لا آبَرَة، ومن ثم فإن آبَرَة خطأ من الأخطاء الموجودة في هذه النسخة.

ولئن كان اغتراب الشاعر في سبيل البحث عن العمل واشتياقه إلى والده من دواعي نظمه المبكر فإنَّ الأسر فجر قريحته الشعرية إذ أصبح النظم أَنْيَسَه في وحدة السجن القاتلة، وسلوته في ظلمته القاتمة، وهكذا أخذ يحبر قصائد إلى والده وأهله (زوجه؟) وشیخه البياني المذكور سابقاً وبعض أصدقائه في بسطة بعد أن كان في أول تعلمه وبعد إلمامه بالعروض ينظم البيت والبيتين والثلاثة على سبيل الرياضة والتمرین قال (19):

فليس نظامُ الشّعر مِنْ شَيْمِي التّي  
أجاري بها في النّظمِ مِنْ يُحسِّنُ الطُّردَا  
ولكتني صَيْرُتُه لي مُؤانِساً .  
بأبَدَّهِ حيثْ اغتَدَتْ فِرقُ الأَعْدَادِ

وهو يخبرنا في هذه القصائد «الأَبْذَنَيات» بأطوار أسره وسجنه، فقد وضع أول الأمر في شبه «زنزانة» مقيداً مكبلاً مهدداً بوسائل التعذيب (37):

في قُرِّ بَيْتِ غُولٍ مَجموَّعةٍ  
والهَامُ فِيهِ قَدْ أَجَابَ الْهَامَا  
ما لِي بِهِ أَنْسٌ سُوِّي تَذَكَّارِكُمْ  
ومدَامُ حُمْرٌ تَفِيضُ سِجامَا

وِبِجَامِعٍ جَمِعْتُ يَدَايِ وَقُرْمَةٍ  
 مَنْعَتْ قِيَامِي إِنْ أَرْدَتْ قِيَاماً  
 وَالشَّبُّ وَالْإِبْرِيقُ كُلُّهُ مِنْهُمَا  
 نَصْبَ الْعِيَانِ بِجَانِبِي قَدْ قَاماً<sup>(21)</sup>

ووصفت الأشغال الشاقة التي كان يُكلّف بها فقال (35):  
 فحصلت في الأسر الذي أدواؤه  
 لرهينه من أعظم الأدواء  
 أجنبي مذلةه وضيق قيوده  
 بعد اجتناء العزة القعسأء  
 ما بين قوم كافرين تلونوا  
 في كفرهم كتلون الحرباء  
 لا يرحمون موحدا في أرضهم  
 إن جاءهم يشكو بخطب عناء  
 ما إن أرى منهم سوى من قلبه  
 من قسوة كالصخرة الصماء  
 أصل الصباح مع المساء لديهم  
 في الخدمة المعهودة الإعياء  
 وأقوم منها بالذي هو واجب  
 من غير تفريط ولا استهزاء  
 متحررياً إرضاءهم لو أنهم  
 يبدون أنني جئت بالإرضاء  
 حتى ضعفت ورق جسمي بينهم  
 وتغيرت عن حالها أعضائي

وتقرّحتْ مني الجفونُ بدمعها  
 وتقطّعتْ بهبّتها أحشائي  
 ومن اغتدى في الأسرِ مثلي موثقاً  
 فمن الغرائب وصفه بقاء  
 وأمرٌ ما ألقاهُ آني عاجزٌ  
 عنْ أنْ أخُصُّ فرائضي باداء

والخدمة المعهودة للإعفاء التي أشار إليها هي التي يصفها في هذه  
 الآيات (74):

واحسّرتني ، بعْدَ اشتغالِي بالعلوِّ  
 مِ ودرسها وتلاوة القرآن  
 أمسي وأصبحُ خادماً متصرفاً  
 لعبادة الأصنام والأوثان  
 إن لمْ أكُن بالحَفْرِ مشتغلاً أكُن  
 بالهَدْمِ مشتغلاً مع البُنيان  
 والكنسُ في يومِ الجلوسِ صناعتي  
 والرشُّ يتبعُه مَدى الأحيان  
 وبغسلِ أقدارِ الكلاب تحرّفي  
 في أكثرِ الأوقات والأزمان  
 فثيابهم أدرانها مَغسولةُ  
 بيدي ، وثوبِي الدهرَ بالأدرانِ  
 وإذا المنامُ أردتهُ الفيتةُ  
 لعظيمِ خطبي طارَ عنْ أجفاني

هذا جزءٌ مخالفٌ مثلي أبى  
تقوى الإله ودان بالعصيان

ويبدو أنه سُلم بعد هذا إلى أحد كبراء النصارى، وقد وصف لنا معاملة هذا له فقال (40 - 41):

وصيرني بالرغم في ملوك كافر  
بابذةً أضحي من العظام

يرى أكله الخنزير أفضل طعمه

ويجعل شرب الخمر أرفع ماء

ويحسب عيسى ابن الإله وأمه

له زوجةً موصوفةً ببهاء

وينكر ما في جنة الخلد موداعاً

لأهل التقى من نعمة وجزاء

ويكفر جهراً بالنبي محمد

وشرعاً بيضاء دون حياء

ويهزا حتى إنه ليقول لي

بكْ تفتدي من خدمتي ولائي

فأسكت عنده والجوانح تتظري

على أعظم الأشجان والبراء

فيسالني حتى أقول له بكم

تريد ولا تسلك سبيل جفاء

فيطلب لي ألفاً من الصفر دائماً

وعشرين علجاً في أقل فداء

واقسم أنني لست أملاك عشرها

وبعد غطائي دائماً ووطائي

وهو لا يفصح عن سبب أسره وإنما يلمح إلى ذلك فيقول (14):  
 ولا ذنب لي إلا اشتغالِي بِكُلِّ ما  
 يُسْهَلُ لي سُبْلَ الْعُلا وَتَهَمَّمِي

ويقول (74):

هذا جزاءٌ مخالفٌ مِثْلِي أَبِي  
 تَقْسُى إِلَّاهٌ وَدَانَ بِالْعِصْبَانِ

وقد ينسبُ ما حصل له إلى غدر الزمان وريب الدهر فيقول (35):  
 كَشَرَ الزَّمَانُ بَغْدَرَهُ عَنْ نَابِهِ  
 كَشَرَ العَجُوزِ الْقَاعِدِ الشَّمَطَاءِ  
 فَأَخْلَلَ بِي مِنْ خَطْبِهِ مَا لَمْ أَخْلُ  
 أَنِي أَرَاهُ نَازِلًا بِفِنَائِي

ويقول (14):

رَمَانِي زَمَانِي مِنْهُ عَنْ قَوْسِ صِرَفِهِ  
 بَابَذَةٌ بَيْنَ الْعِدَادِ بَأْسِهِمْ

وفي هذه القصيدة يشير إلى أنه بيع - بعد أسره - بيع العبيد:  
 وَبَيْعِي كَبِيعِ الْعَبْدِ بَيْعَ تِزَايدِ

بِدِرْهَمِ نَقِدِ زَائِدِ بَعْدَ دِرْهَمِ

وهو يذكر في بعض شعره أن أسره كان تدرأً كتب عليه (3):

يَا مُؤْتَقًا بَيْنَ الْعِدَى بِقِيودِهِ  
 يَجْنِي لَدِيهِمْ ذِلَّةً وَصَغَارًا

حَكْمُ إِلَّاهٌ عَلَيْهِ بِالْأَسْرِ الَّذِي

مَا فِي عَظِيمِ بِلَائِهِ يُتَمَّارِي

اصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَارْضَ بِمَا قَضَى  
تَكْتُبْ لِدِيهِ مِنَ الْأَنَامِ خِيَاراً

وفيها يقول متشفعاً بجاه النبي :

مَالِي إِلَى رَبِّي سِوَاكَ وَسِيلَةٌ

أَرْجُو بِهَا أَنْ يَمْحُوا الأَوْزَارَا

وَيُجْمَعَ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ بِوَالِدٍ

أَصْحَّتْ ضُلُوعِي مِنْ نَوَاهِ حِرَارَا

وَمِنْ تَوْسِيلِهِ وَهُوَ فِي الْأَسْرِ قَوْلَهُ (73) :

يَا مَنْ عَلَيْهِ فِي السَّرَّاجِ أَعُولُ

إِلَيْهِ فِي تَعْجِيلِهِ أَتَوَسَّلُ

أَنْتَ الْمُؤْمَلُ لِلشَّدَائِدِ كُلُّهَا

وَعَلَيْكَ فِي تَخْفِيفِهَا أَتَوَكَّلُ

وَلَقَدْ قَضَيْتَ عَلَيَّ بِالْأَسْرِ الَّذِي

مَا مِثْلُهُ خَطْبٌ عَظِيمٌ مُعْضِلٌ

فَحَمَلْتُ مِنْ كُرْبَاتِهِ الْكَرْبَ الَّذِي

مَا مِثْلُهُ شَخْصٌ أَسِيرٌ يَحْمِلُ

وَصَبَرْتُ صَبَرْ مُفْوَضٌ لَكَ أَمْرُهُ

رَاضٌ بِمَا تَقْضِيهِ فِيهِ وَتَقْبِلُ

يَا رَبَّ فَامْنُنْ بِالسَّرَّاجِ مُعَجَّلًا

فَأَنَا سَرَاحِي مِنْ جَلَالِكَ أَسَأْلُ

:81( قوله )

يَا مَنْ قَضَى بَعَذَابِي وَمِنْهُنِّي وَأَكْثَابِي  
وَخِدْمَتِي لِأَنَاسٍ مِنَ النَّصَارَى الْكِلَابِ

عليك رب اعتمادي في كشف كرببي وما بي

: قوله (36)

وَقَضَى عَلَى قَوْمٍ بِنِعْمَةِ رَحْمَةٍ  
وَلَاخَرِينَ بِنَقْمَةٍ وَبَلَاءٍ  
وَأَحَلَّنِي مَعَ مَنْ فَضَى بِبَلَاثِهِ  
مِنْ خَلْقِهِ فِي الرُّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ  
لِأَفْوَزَ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ وَالْجَزَا  
بِكَرَامَةِ عَظَمَّيِّ وَحُسْنِ جَزَاءِ  
هَذَا مَعَ الصَّبَرِ الَّذِي أَدْعُوْ بِهِ  
مَنْ لَمْ يَرْزُلْ قِدْمًا يُجِيبُ دُعَائِي  
سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ  
عَدَدُ الْحَصَادَاتِ دَابِّاً وَقَطْرِ الْمَاءِ  
مَا فِي الْوَجْدِ سِواهُ أَرْجُو فَضْلَهُ  
فِي أَنْ يُدَلِّلَ شِدْتِي بِرَحْمَاءِ  
وَيَحْلِلَ قِيدَ الْأَسْرِ عَنِي عَاجِلًا  
مَعَ مَنْ بِأَيْدِيهِ مِنَ الْأَسْرَاءِ  
فَهُوَ الْمُفْرِجُ لِلْكُرُوبِ إِذَا ذَهَتْ  
وَبِهِ انجِلاءُ نَوَابِ الْأَسْوَاءِ

وقد يرى أن ذنبياً ارتكبها كانت من أسباب محنته وأسره وفي ذلك يقول نادماً على ما اقترف وسائل العفو والفرج (40):

إِذَا ضَاقَ ذُرْعِي بِالْخِتْمَالِ عَنَائِي  
مَدَدْتُ إِلَى رَبِّي بِيَدِي بِدُعَائِي

فَادْعُو وَأَرْجُو أَنْ يُجِيبَ تَكْرِمًا  
 وَحَاشَا وَكَلًا أَنْ يَخِيبَ رَجَائِي  
 فِي الْذِكْرِ نَصٌّ بِالإِجَابَةِ مُفْصَحٌ  
 غَدًا شَاهِدًا مِنْ أَعْدَلِ الشُّهَدَاءِ  
 فِي رَبِّ يَسْرِ كُلِّ عُسْرٍ قَضَيَتْهُ  
 عَلَيِّ وَفَرَّجَ كُرْبَتِي وَبَلَائِي  
 وَجُدْ بِجَمِيلِ الْعَفْوِ عَنِي تَفْضَلًا  
 فَعَفْوُكِ يَا رَبِّي أَجَلَ مُنَائِي  
 وَلَا تَلْتَفِتْ نَحْوَ الذَّنَوبِ الَّتِي مَضَتْ  
 فِيمِنْهَا بَلَاءُ الْأَسْرِ أَعْظَمُ دَاءً  
 فَلَمْ آتَهَا جَذْلَانَ يَوْمَ أَتَيْتَهَا  
 وَأَنْتَ بِجَهْرِي عَالَمُ وَخَفَائِي  
 وَمَا كُنْتُ أَرْضَاهَا لِنَفْسِي سَجِيَّةً  
 أَعَابُ بِهَا فِي بُكْرَتِي وَمَسَائِي  
 وَلَكِنَّمَا الشَّيْطَانُ غَرَّ بِكِيدِهِ  
 فَوَاقَعْتُ مِنْهَا مَا أَطَالَ بُكَائِي

وكان يظن في بعض أوقات أسره أن وثاقه لن يفك عنه وأنه سيظل في الأسر إلى الأبد، ولذلك نجده يتمنى الموت (74):

إِنْ لَمْ تُيَسِّرْ سَرَاحِي  
 يَا رَبِّ يَسِّرْ مَمَاتِي  
 فَالْمَوْتُ عَنِّي خَيْرٌ  
 مِنْ خِدْمَتِي لِلْحَيَاةِ

ويقول (74) :

الموت أهون من أسر بآذنة  
عند الذي ذاق فيها من الناس  
ما ذاك إلا لما يلقى الأسير بها  
من الثقاف العظيم الخطب والباس

وكانت أيام الأسر بآذنة تمر عليه طويلة بطيئة لا يعرف فيها راحة ولا  
تفمض له عين، (74)

أعاذك الله من أسر بآذنة  
فالعين في أسرها لم تكتحل بسنة  
ناهيك من بلد يوم الأسير به  
شهر وليلته معدودة بسنة

وقد بلغه وهو في الأسر أن بعضهم شمت به فقال يخاطبه:  
يا شامتا بي وهو يُظهر رحمة  
اصبر فدائلك للزمان قليلا  
فالدهر لا يُقى على حال بدأ  
إلا ويعقب بعدها تحويلا  
كم من أسير موثق بقيوده  
أمسى وأصبح مطلقا محولا  
ولكم طلاق لم يقدر أسره  
أمسى وأصبح موثقا مغلولا

وكان يأنس بما يصله من رسائل شيخه الأستاذ أبي عبد الله البياني  
الذي كان يحضره على الصبر الجميل، ويسوق فيها الأمثال والمواعظ؛ وفي  
هذا يقول (19) :

كأنسي بكتب جاءني منك بارع  
 حضرت به للصبر أغصانه المُلدا  
 كتاب هدى حلية بمواعظ  
 بلاغتها أضحت على كيدي بربادا  
 بقيت تسلى كل نفس بمثله  
 وتبذر مِنْ تأسيها الوسع والجهدا

ويقول (19):

لسانی على أسری بودك لافظ  
 وقلبي على بعدي لعهدك حافظ  
 وفي كل أوقاتي أراك تخيلًا  
 كأنی بعيوني نحو وجهك لاحظ  
 ونصب عياني من كتابك مرشد  
 يحضر على الصبر الجميل وواعظ  
 كتاب يروق الطرف رائق خطه  
 فيقرأه في الناس من هو جاحد

كما كان يخفف عنه في أسره حسنة نصرانية تدعى «البليرة» وقد تغزل  
 فيها في بعض قصائده، وإليها يشير في هذين البيتين مورياً باسمها الذي هو  
 اسم مدينة وباب في غرناطة (74):

شاني بآبنة لا أستطيع له  
 وصفاً يوافي لسانی عنه تعبيره  
 والصبر في أسرها ما كنت آلفه  
 لولا احتلائي فيها حسن البليرة

ومن الغريب أنه في قصائده إلى والده وشيخه البياني وبعض أصدقائه

لم يكن يطلب منهم العمل على افتتاحه من الأسر وإنما كان يشكو حاله ويسألهم الدعاء له، قال يخاطب شيخه البهاني (19) :

وَخُصْنِي بِنَصْبِي مِنْ دُعَائِكَ لِي  
لَعَلَّ نَحْوي بِهِ الْأَيَامَ تَنْعَطِفُ

وقال أيضاً (16) :

جَاءَتْكَ مِنْ خَجْلٍ التَّقْصِيرُ لِابْسَةٍ  
ثُوبَ الْحَيَاءِ الَّذِي مَا مِثْلُهُ لِيْسَا  
فَاغْذِرْ بِفَضْلِكَ صَبَّاً صَاغَهَا عَجَلاً  
يَشْكُو بِأَيْنَدَةٍ أَسْرَأَ صَبَّاحَ مَسَا  
أَتَى بِهَا يَبْتَغِي مِنْكَ الدَّعَاءَ لَهُ  
لَمَ رَأَى أَنَّهُ فِيهَا حَلِيفٌ أَسَى  
فَهَبْ لَهُ مِنْهُ حَظًّا وَافْرًا لِيَرَى  
مِنَ السَّرَّاجِ بِهِ مَا مِنْهُ قَدْ يَشَأ

وفي الشعر الذي قاله البسطي في الأسر كثير من الشوق والحنين إلى أهله وبيلده وإخوانه، قال من قصيدة كتب بها لأهله (37) :

يَا سَاكِنِينَ بِبِسْطَةٍ دُونِي وَلِي  
قَلْبُ بَهْمٍ مَا يَسْتَفِيقُ غَرَاماً  
إِنِي وَانْ أَصْبَحْتُ عَنْكُمْ نَازِحًا  
فَالْقَلْبُ فِي تِلْكَ الْدِيَارِ أَقَاماً  
وَجَلَالِكُمْ وَجَمَالِكُمْ وَكَمَالِكُمْ  
قَسَمًا بِذِلِكَ كُلُّهِ إِعْظَاماً  
مَا لِي بِغَيْرِ حَدِيثِكُمْ شُغْلٌ وَلَا  
أَرْغَى لِغَيْرِكُمْ هَوَى وَذِمَاماً

وَحَلَّ نَوْمٌ بِالْفِرَاقِ جَعَلَتُهُ  
 مِنْ يَوْمٍ فُرْقَتُكُمْ عَلَيَّ حَرَاماً  
 فَالنَّوْمُ قَدْ عَادَى الْجُفُونَ ضَرُورَةً  
 فَغَدَتْ جُفُونِي مَا تذوقَ مَنَاماً  
 وَنَسِيمُكُمْ لَوْ زَارَنِي لَوْجَدْتُهُ  
 بَرْدًا عَلَى نَارِ الْحَشَا وَسَلَامًا

وقال من قصيدة أخرى (19) :  
 إِنْ خَانَنِي جَلَدي فِي الصَّبْرِ عَنْ بَلْدِي

وَكُنْتُ مِنْ كَمَدٍ فَوْقَ الَّذِي أَصِفُ  
 فَالعَذْرُ يَقْبِلُهُ فِي ذَاكَ كُلُّ فَتَّى  
 لَأَنَّهُ وَاضِعٌ لِلْعَيْنِ مُنْكَشِفٌ  
 أَسْرُ تَصَاحِبُهُ الْأَغْلَالُ دَائِمَةً  
 وَمَحْنَةٌ مَعَهَا الْأَشْغَالُ وَالْكُلَفُ

عرفنا مما سبق أن الشاعر طلب منه ألف دينار في فديته، وهو مبلغ  
 كبير ولا نعرف هل خُفض فيما بعد إلى مبلغ أقل منه، ويبدو أن الشاعر  
 دبره من بيع كتبه فهو يقول مخاطباً صديقه ابن الحسن النباهي المالقي عند  
 خروجه من الأسر (34) :

يَا سِيداً مَتَضَلاً أَبْوَابَهُ  
 أَصْحَّتْ مَحْلَ الشَّدُو وَالْإِنْشَادِ  
 أَعْلَاقَ عَلَمِي بَعْثَ في الْخَطْبِ الَّذِي  
 هُوَ ظَاهِرٌ لِلْمُبْتَدِي وَالشَّادِي  
 وَالْجَبَرُ أَرْجُو إِنْ عَلَيَّ عَطْفُتُمْ  
 بِرِسَالَةِ التَّنْبِيهِ وَالْإِرْشَادِ

ولا نعرف كم كان عمر الشاعر في وقت أسره ويبدو أنه كان شاباً كما قدّرنا، ولعله كان متأهلاً فقد وجدها يكتب من السجن إلى أهله زيادة على كتابه إلى والده ويحنّ إليهما (5):

لِكِنْ تَحِنْ لِوَالِدٍ وَلِزَوْجَةٍ  
وَتَحْبُّ مَا لِأَصَمْتَأَ وَعَقَارَأَ

ولقد رجع الشاعر من أسره إلى بلده بسطة ورضي من الغنيمة بالإياب، ونجده يقول بعد بلوغ الأربعين (135):

دِنْتُ بِالْجَدَّ، فَقَالُوا: عَكْسُهُ  
مَذْهَبٌ لِي، قَوْلَ قَوْمٍ مُفْتَرِينَ  
قَلْتُ مَا أَقْبَحَ عَكْسَ الْجَدَّ لَا  
سِيمَا بَعْدَ بُلُوغَ الْأَرْبَعينَ

وهو يوضح عن هواجسه ويستحضر ذكر الموت في هذه السن، ويعبر عن تطلعه إلى تأدية فريضة الحج فيقول (135):

مَرَوْرُ الْأَرْبَعينَ أَطَارَ نَوْمِي  
وَأَجْرَى فَوْقَ صَفْحِ الْخَدَّ دَمْعِي  
وَعِلْمِي بِالرَّجِيلِ غَدَا وَتَرْكِي  
مِنْ أَهْلِي مَنْ غَدَا بَصَرِي وَسَمِعِي  
وَمَا يَشْفِي الَّذِي أَشْكَوْهُ إِلَّا  
مَبِيتِي مُحْرِماً أَدْعُو بِجَمْعِ

ويؤكّد هذا في أبيات يقول فيها (134):  
إِذَا مَا النَّفْسُ مَا لِبِها هَوَا  
لَأْمَرٍ مَا شِمَالًا أَوْ يَمِينًا

أقول لها أقصري نفسي وكفي  
فإنني قد بلغت الأربعين  
وحسبي ما مضى عني وولى  
وأصبحت الغداة به رهينا  
فما زال الهوى يُردي قدماً  
ويورث أهله داء دفينا  
ومن عادى الهوى والعكس والى  
من الشرف افتني علقاً ثمينا  
وسار بسيرة يُشنى عليها  
وتساوى من سما علمًا وديننا

وله قصيدة في لوم النفس ومحاسبتها مطلعها (149 - 150) :  
إلى كم تميل النفس بي للهوى العذري

وشيء عذاري مُبِطل في الهوى عذري

وفيها يشير إلى بلوغه الخمسين :  
أيُلْهُو أَمْرُؤٌ مثلي صياد قد انقضى  
بخمسين عاماً قد تولت من العمر  
ويبدو أن عمره امتد إلى ما بعد الخمسين فهو يقول من قصيدة في  
قائد وادي آش حامد (141) :  
وقد ذهبت مني القوى وتغيرت  
وهل قوة بعد الذهاب تعاود  
وشاب عذاري واستحال سواده  
وبالموت لا شك المشيئ يقاود  
والمفروض أن الشاعر عاش إلى ما بعد سنة 890هـ (1485م) وذلك لأننا

وجدناه يهنىء الفقيه الجعده الله (844 - 897هـ) بعودته للقضاء في بسطة، وهذا وقفنا على إعلامه بثبوت رسم مكتوب في بسطة بتاريخ «الثامن والعشرين لذى الحجة متم عام تسعين وثمانمائة» (وثائق عربية غرناطية: 99).

كما وجدنا له قطعة لم يفصح عن مناسبتها أو الغرض من نظمها وقال إنه يفهم من النَّظَمْ، ونرى أنها قيلت في إدانة الفتنة الناشبة بين الأندلسين على إثر نبذ بيعة السلطان أبي الحسن ودعوة الناس إلى مبايعة ولده أبي عبد الله، وهذا ما أدانه فقهاء غرناطة في فتوى مؤرخة «في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» (المعيار 7: 148) وهو هي قطعة البسطي (140):

مَنْ سَعَى فِي عَزْلِ وَالِي  
وَابْتَغَى تَقْدِيمَ وَالِي  
بِإِنْتِهَا بِالنَّفْسِ وَالْمَا  
لِ اجْتِرَاءِ لَا يُبَالِي  
فِي حَقٍّ مُثْلِهِ هَذَا  
نَبَذَهُ فِي كُلِّ حَالٍ  
وَاغْتَنَمَ الْبَعْدَ مِنْهُ  
فَهُوَ يَدْعُو لِلضَّلَالِ

.....  
.....

وهي على نقصانها وعدم استكمالها في الديوان مطابقة في فحواها لمضمون الفتوى المذكورة، وقد اشتراك في الإفتاء بها جماعة من أصحاب شاعرنا مثل القاضي ابن الأزرق والمفتى أبي الحسن ابن داود والقاضي الجعده الله وال حاج القلصادي، والقاضي ابن عبد البر؛ وتتجدر الإشارة إلى

أن بسطة بلد شاعرنا ظلت وفية لأبي الحسن. ومعنى هذا أن البسطي - حسب تقديرنا - بلغ السبعين أو جاوزها وأدرك المرحلة الخامسة والأخيرة في سقوط مملكة غرناطة، ولعله عاش حتى حصار بسطة من قبل الملوك الكاثوليكين فرديناند وإيزابيلا سنة 1489 وهو الحصار الطويل الذي استمر قرابة سبعة أشهر، وضرب فيه أهل بسطة أروع الأمثلة في الصبر والصمود، وانتهى بتسليم المدينة في رابع دجنبر 1489.

وقد نستأنس في هذا الموضوع أيضاً بمدحه القائد حامد قائد وادي آش، وهذا لعله الذي اشترك مع القائد محمد بن حسن في الدفاع عن بسطة وقت الحصار.

وللشاعر قصيدة في وصف حصار بسطة منها قوله (99):

عَزَّمُوا عَلَى إِجْلَاثِنَا عَنْ أَرْضِنَا  
مِنْ بَعْدِ مَا اجْتَمَعُوا لَنَا وَتَأَلَّفُوا  
وَأَتَوْا بِكُلِّ مَكِيدَةٍ قَدْ أَرْهَقَتْ  
آرَاؤُهَا فِي أَهْبَةٍ لَا تُوصَفُ  
وَتَطَلَّعُوا فَرَحًا لَهُمْ مَعَالِمٌ  
لِلَّذِينَ شَيَّدُوا بُنَاءَهَا وَاسْتَشْرَفُوا  
لَمْ يَقِنْ رُمُّ عَنْهُمْ إِلَّا أَتَوْا  
قَصْدًا بِهِ لِجِهادِنَا أَوْ مُرْهَفُ  
فَالْمُرْهَفَاتُ تَفَلَّتْ وَتَحَطَّمَتْ  
وَغَدتْ رِمَاحُ جَمِيعِهِمْ تَتَقَصَّفُ  
لَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا لَنَا بِجَمِيعِهِمْ  
فَتَخَادَلُوا فَكَانُوهُمْ لَمْ يَزْحِفُوا  
رَامُوا النُّهُوضَ حَمِيَّةً فَتَقْهَقَرُوا  
نُكُصًا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَتَوَقَّفُوا

وَأَبِي إِلَهٌ سِوْيَ حِيَاطَتِنَا فَلَمْ  
يُلْغِهُمْ غَرَضاً إِلَيْهِ تَشَوَّفُوا

وله أيضاً قطعة قال إنه جعلها في صدر رسالة وفيها يصف هجوماً  
على بسطة (93):

مُصَابٌ عَظِيمٌ دُهِينَا بِهِ  
بِهَذِي الدِّيَارِ، وَخَطَبَ طَرَقَ  
هَجَرْنَا الْمَضَاجِعَ مِنْ أَجْلِهِ  
وَاجْفَانْنَا اكْتَحَلْتَ بِالْأَرْقَ  
وَلَمْ يَقِنْ [فِيمَا] نَرَاهُ امْرُؤٌ  
بِذَا الْقُطْرِ إِلَّا اعْتَرَاهُ الْفَرَقُ  
لِهَذَا الْعَدُوِ الَّذِي أَمْنَا  
وَلِلْزَرْعِ فِي أَرْضِنَا قَدْ حَرَقَ  
وَحَازَ مِنِ السَّبْيِ فَوْقَ الْمُنْيِ  
وَكَمْ مُسْلِمٌ دَمَهُ قَدْ هَرَقَ  
وَمَا خَرَقَ الْيَوْمَ فِي بَسْطَةٍ  
بِغَرْنَاطَةٍ مِثْلُهُ مَا خَرَقَ

ولسنا نdry هل قال هذا في حصار بسطة الأخير الذي أحرقت فيه  
بالفعل زروعها وأبادت أشجارها، أم أنه قال ذلك في مناسبة سابقة، ومن  
سوء الحظ أن الشاعر لا يشرح المناسبات ولا ينص على التواريخ، فهو لم  
يدرك في ديوانه كله إلأ تاريخاً واحداً سبقت الإشارة إليه.

هذا وللشاعر قصيدةتان يذكر فيها مرشه ويقول في إحداهما مبتداً

(126):  
لا تَؤَاخِذْنِي بِمَا أَسْلَفْتُهُ  
وَتَفْضُلْ مِنْ شَكَاتِي بِالشَّفَا

ويقول في الأخرى (120):  
 وما زلت تُشفي السُّقْمَ يا رب دائمًا  
 وتُطْفِي بِرْدَ الْبُرْءَ مِنْ غُلَةِ الصَّدْرِ  
 فَجُدْ لِي إِلَهِي بِالذِّي مِنْكَ أَرْتَجِي  
 وَحَقًّا رَجَائِي فِيكَ يَا عَالَمَ السُّرُّ

وربما كان هذا مما قاله في آخر حياته، ولعل فيه ما يفسّر صمته خلال هذه الأحداث الأخيرة التي انتهت بسقوط غرناطة.

أما حياة الشاعر العائلية فقد قدرنا أن يكون تزوج في سن مبكرة حسب المعهود في ذلك الزمان، وفي ديوانه إشارات إلى أولاده، فمن ذلك قصيدة في رثاء ابنتين له توأميين مات أحدهما بإثر الآخر. وكانا يسميان بالحسين والحسين - كما هو العرف عندنا إلى اليوم - يقول في مطلعها (107):

أَوْدَى حُسَيْنٌ وَأَوْدَى بَعْدَهُ حَسَنٌ  
 فَطَارَ بَعْدَهُمَا عَنْ مُقْلَتِي الْوَسْنُ

ويفهم من القصيدة أنهما ماتا في الطفولة المبكرة وقد حزن عليهما حزنًا شديداً:

لَمْ يُسْلِنِي عَنْهُمَا مِنْ بَعْدِ بَعْدِهِمَا  
 مَالٌ مَلَكْتُ وَلَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ

وكان له ولد اسمه أحمد، قال يخاطب بعض المؤدبين في شأنه (120):

ابْنِي مِنَ التَّفْرِيْطِ يَا سَيِّدِي  
 فِي الدَّرْسِ قَدْ [ جاء ] بِإِفْرَاطٍ  
 وَحاجَتِي إِحْسَانٌ تَأْدِيْهِ  
 بِضَرْبِهِ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ

وقد يكون هو الذي داعبه بهذين البيتين (74):  
حَذَارٌ مِنْ أَكْلِ الْحُوتِ يَا أَخْمَدَ الرَّضِي

فَقَيْ أَكْلِهِ ضُرٌّ عَلِمْنَاهُ بِالنَّصْرِ  
فَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ يُحِبُّونَ أَكْلَهُ  
فَأَفْضُلُهُ مَا مِنْهُ سُمِّيَ بِالْمُصْ(22)

وقال فيمن تعدى على ولد له (96 - 97):  
قالوا ابْنُ عَمْكَ إِبْرَاهِيمُ اغْتَدَى سَفَهَا  
عَلَيْكَ فِي ابْنَكَ بِالْإِفْرَاطِ فِي الْأَدَبِ  
فُخِذْ عَلَى يَدِهِ وَامْنَعْ تَعْدِيهِ  
مِنْ قَبْلِ عُودَتِهِ وَالْحَدَّ لِلْعَطَبِ  
فَقُلْتُ مَنْ لِي بِكَلْبِ السَّوَءِ أَزْجُرُهُ  
فِي قَبْلِ الزَّجْرِ وَهُوَ الْفَذُّ فِي الْكَلْبِ  
وَاللَّهُ مَا عَنْ قَبِيحٍ رَمْتُ أَصْرُفَهُ  
إِلَّا تَأْبَى وَأَبْدِي الْجَدَّ فِي الْتَّلَبِ  
وَمَنْ يَكُونُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ أَبْدًا  
قَرِينُ سَوِءٍ فَمَا يَنْفَكُ فِي تَعْبٍ

وأما العصر الذي عاش فيه فهو عصر انحلال دولة غرناطة وأضمحلال مملكتها (1492هـ - 1410م) وقد غلب عليه الخلاف بين النصريين المتصارعين على الملك، وكثرت فيه الفتن الداخلية والمحروbs الخارجية، وعرف بسلسلة طويلة من المؤامرات والاغتيالات والخيانات، وامتحن فيه المسلمون بضروب من المحن وألوان من الخذلان، ولكنه عرف أيضاً أمثلة من البطولة والبسالة والصمود، وعاصر الشاعر منذ ميلاده حتى وفاته فيما نقدر هؤلاء الملوك:

- . (1417 - 1408) يوسف III
- . (1419 - 1417) محمد VIII
- . (1427 - 1419) محمد IX
- . (1429 - 1427) محمد VIII
- . (1431 - 1430) محمد IX
- . (1432 - 1431) يوسف IV
- . (1445 - 1432) محمد IX
- . (1446 - 1445) يوسف V
- . (1447 - 1446) محمد X
- . (1453 - 1447) محمد IX
- . (1452 - 1451) محمد XI
- . سعد (1462 - 1453)
- . يوسف V (1462)
- . سعد (1464 - 1462)
- . أبو الحسن (1485 - 1464)
- . محمد XII (1492 - 1482)

وأما بلده مدينة بسطة فقد أصبحت طوال هذا العصر أشبه بالمعسكر منها بشيء آخر، وذلك بسبب موقعها على خط المواجهة مع المسيحيين فكانت مع نشاطها الفلاحي والصناعي ثغراً للجهاد ورباطاً للغزو وظلت تردد الهجمات وتتصمد في وجه الغارات، وكانت الأبراج والحصون تتخلل الجنات والبساتين المنتشرة في خارجها. وقد روى التاريخ بعض مواقف أهلها في الثبات والصمود ولكن ظروف الحرب الطويلة كان لها آثار سلبية على أحوالها الدينية والاجتماعية والثقافية وهذا ما سجد صداه في ديوان شاعرنا البسطي.

---

## الحواشي

---

(1) هذه صورة ديباجة الديوان المذكورة.

بِفَوْزِنَرِ اللَّهِ بَشَّـا إِنَّمَا أَمْرُنِي بِعَيْنِـا وَاحْسَـا إِنَّهـ  
وَفَعْـرا نَـا عَـبْـرا لِلَّـذِـمـ مـنـ صـمـرـ عـبـرـ الـكـرـمـ  
الـغـنـيـسـ أـقـا طـرـالـلـهـ بـقـيـنـهـ اـعـاصـمـ رـاحـسـاـنـهـ

(2) رحلة القلصادي : 162 تحقيق أبو الأజفان.

(3) ثبت فيما يلي صورة ذلك في المخطوط :

أَتَـهـ مـيـ لـعـرـ لـشـأـسـعـ مـرـجـلـامـعـ كـنـابـ اـيـسـاـرـ وـلـعـصـاـرـ وـلـشـرـحـ وـلـتـرـجـيـ  
وـلـتـعـلـيـرـ وـلـعـلـيـاـدـ كـلـ جـمـيـعـ كـنـابـ اـنـعـيـارـ لـذـكـرـ وـجـهـاـلـرـ لـعـمـرـ  
مـرـاجـعـهـ بـنـ العـقـائـدـ مـحـمـدـ عـبـرـ الـكـرـمـ مـحـمـدـ عـبـرـ لـكـرـمـ الـغـنـيـسـ مـحـمـانـ  
الـدـرـدـ وـإـضـلـيـ قـرـلـهـ وـعـمـلـهـ وـهـدـ لـوـقـدـ لـغـرـةـ لـتـرـجـمـ اـلـفـوـجـ اـلـمـبـارـكـ عـدـمـ  
لـنـسـفـ خـشـبـ وـعـمـتـ مـاـةـ بـمـرـيـةـ بـسـهـ كـلـأـمـاـنـ اـنـهـ تـعـلـىـ وـالـجـهـ وـرـاتـ  
لـعـلـيـزـ رـصـلـ اللـهـ عـلـيـ مـيـرـاـنـاـ مـحـمـدـ عـلـيـ اـلـرـحـمـيـدـ وـسـلـمـ اـلـيـمـاـنـ اللـهـ عـلـيـ

انظر مخطوط القرويين رقم 324 وفهرس المرحوم محمد العابد الفاسي ج 1 ص 320.

- (3) بهرام بن عبد الله قاضي القضاة بمصر، ولعل الشاعر يشير إلى كتابه الشامل في الفقه الذي كان يدرس في هذا التاريخ بالأندلس (انظر رحلة القلصادي : 164 - 168 وثبت الوادي آشى : 189) وترجمة بهرام في نيل الابتهاج : 101.
- (4) أظن أنه يشير فيما قبل البيت الأخير إلى قول القلصادي في رحلته (89): ففوق سهم العزم، وأدخلت على التوانى حرف الجزم. أما أنسى المواطن الذي يشير إليه في البيت الأخير فهو غرناتة التي استقر فيها بعد عودته من الحج.
- (4م) وثائق عربية غرناتية: 11 تحقيق لويس سيكودي لوثينا.
- (5) المصدر نفسه: 6.
- (6) راجع درة الرجال لابن القاضي.
- (7) المغرب 2: 77 والمعجب: 289.
- (8) المغرب لابن سعيد 2: 77.
- (9) انظر على سبيل المثال تاريخ ابن الفرضي وتكلمته ابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك.
- (10) الروض المعطار: 113 تحقيق د. إحسان عباس.
- (11) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: 31 - 32 تحقيق د. العبادي.
- (12) المصدر نفسه: 86 - 87.
- (13) رحلة القلصادي: 64 - 62.
- (14) جنان روما أو مروج روما: Praderas de Roma من متزهات مدينة بسطة. وفي وثائق عربية غرناتية: مرج روما من حوز قنولش خارج بسطة.
- (15) قنولش في هذا الشعر وفي وثائق عربية غرناتية أو قنالش كما وردت في نصوص أخرى هي الآن Canales de Baza من أعمال بسطة. وقد وصفها ابن الخطيب في خطرة الطيف فقال: «وساعد التيسير، وكان على طريق قنالش المسير، كبرى بناتها (يعني بسطة) وشبيهتها في جداولها وجذانها، ما شئت من أدواح توسلت بالثور وتتوجلت، وغدران زرع هبت عليها الصبا فتموجت، سفر بها الشقيق الأرجواني، عن حدود الغواني، فاجلنا العيون في رياض، وتذكرنا قول القاضي عياض...».
- (16) هي مدينة بسطة التي ورد ذكرها مراراً في وثائق عربية غرناتية: 8، 10، 77، 91.
- (17) كذلك في الأصل، ولعلها تحريف المدينة أي مدينة بسطة المذكورة في الحاشية السابقة.
- (18) رحلة القلصادي: 85 وللياني هذا ترجمة في الضوء الامام 6: 14 ونيل الابتهاج: 308، 321.
- (18م) كذلك في الأصل، ولم نقف على هذه النسبة في مكان آخر، والمعروف في أنواع التين بالأندلس المالقى والشعرى والإشبيلي والقوطى.
- (19) البشرات Alpujarras الجبال الشامخة وراء المربية.
- (20) انظر هذه التوازيل المتعلقة بنظام الشرط في نواحي بسطة وغيرها في المعيار المغرب ج 7 في مواضع متعددة.
- (21) الجامع والجامعة من الأغلال، والقرمة كذلك وتجعل فيها الرجل أو العنق (دوزي 718: 1-337) والشعب عبارة عن خشبين تشدي بهما ساق الأسير وقد يكون من الحديد، والكلمة في الإسبانية Cepo وفي الفرنسية Cep والأبريق هكذا في الأصل، ولعله مثل الشعب يجعل في الساق كما يقول من قصيدة أخرى (42):
- أيُّتَ والغلُ طول الليل في عنقِي وفي يدي وكذا الإبريق في ساقِي
- (22) المصن نوع من «البوبنت» والكلمة مستعملة في اليمن.



## الفصل الثاني

# كفاية في سبيل العيش

كان الشاعر البسطي يرى - حسب شعره - أن نعم الدنيا محصورة في ثلاثة جمعها في قوله (134) :

نعمَةُ الدُّنْيَا ثلَاثٌ  
هُنَّ فِي الدُّنْيَا النَّهَايَةُ  
صَحَّةُ الْجَسْمِ وَزَوْجٌ  
وَمِنَ الْمَالِ الْكِفَايَةُ

وقد أنعم الله عليه بالزوج والأولاد، كما أنعم عليه بنعمة الصحة في الجملة، أما النعمة الثالثة - وهي المال - فيبدو أنه لم يرزق منها الكفاية، ولهذا نجد في كثير من قصائده ومقطوعاته يشكو سوء الحال.

رأينا أنه هاجر في شبابه طلباً للرزق واستغل مؤذباً وإماماً في بلد برجة - وربما في غيرها - وتعرض خلال تطوافه - فيما نقدر - للأسر.

ويحدثنا في شعره أنه عين بعد ذلك في بعض الوظائف الدينية

كالإمامية والعدالة وولي مرة ولاية ما ولكن سرعان ما عزل، وله في هذا العزل مقطوعات منها قوله (153) :

عُزِّلْتُ فجَدْتُ فِي الْعِتَابِ لِكُوْنِهَا  
رَأَتْ مَدَّةَ التَّقْدِيمِ نَوْعًا مِنَ الْهَذْلِ  
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْوِلَايَةَ رَبِّيَا  
يُؤَخِّرُ عَنْهَا بِالْمَمَاتِ أَوِ الْعَزْلِ  
فَقَالَتْ نَعَمْ لَكِنْ وِلَايَةُ بَسْطَةٍ  
أَبِي حَمْلَهَا ذُو الْعَقْلِ وَالنَّظَرِ الْجَزْلِ  
فَقُلْتُ وَلَا يَرْضِي الْمُقَامُ بِهَا امْرُؤٌ  
وَفِي الْأَرْضِ مَا فِيهَا مِنَ الضَّمَرِ الْبُزْلِ  
فِسْرٌ فِي بَلَادِ اللَّهِ عَزَّكَ تَتَّمِسْ  
وَخَلَفٌ بِهَا هِنْدًا تَعِيشُ مِنَ الْغَزْلِ

ويقول (153) :

يَلَوْمُ خَلِيلٌ أَنْ عُزِّلَتْ وَلِمْ أَبْتِ  
بِهِمْ لَهُ أَشْكُو الْوَرَى مُهْجَةً حَرَّى  
فَقُلْتُ لَهُ : الْمَمْلُوكُ لَيْسَ يَهْمَمْهُ  
عَلَى رَغْبَةِ عَنْقٍ يَصِيرُهُ حُرَّا  
وَإِنَّ الْحُلَى لِلْمَرْءِ وَالْجَوْفِ فَارَاغُ  
إِذَا اعْتَرَبْتَ لَيْسَتْ تَزِينُ لَهُ نَحْرَا  
فَلَوْكُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزْلِي تَرَكْتُ مَا  
تَقْلِدُهُ تَرْكًا وَنَلْتُ بِهِ أَجْرًا  
وَلَكَنْتُ فِي قَابِلِ الْعُمْرِ بَعْدَ ذَا  
عَلَى خَطَرِ أَخْشَاهُ لَا أَرْكَبُ الْبَحْرِا

ولسنا نعرف طبيعة هاته الولاية التي أشار إلى عزله عنها في هاتين القطعتين، ونستفيد من قصيدة له أنه عزل عن خطة العدالة (التوثيق) بتدبير من بعض العدول (الموثقين) كانوا خصوصاً له، فقال مخاطباً قاضي بسطة

حيثند أبو حامد ابن الحسن المالقي (27):

قدْمٌ وأخْرُ فما في الأرض مُعْتَرِضٌ

فأَنْتَ مولاي للأُمْرِينِ مُفْتَرِضٌ

لَكَنْ أَعِدْ نظراً فِيمَا أَتَيْتَ بِهِ

مِنْ اهْتِضَامِي فَإِنِّي مِنْهُ مُمْتَعِضٌ

وَدْعَ عُدَاتِي وَمَا شَدَّوا بِكَيْدِهِمْ

فَإِنِّي بِكُمْ أَرْجُوهُ يَتَّقِضُ

حاشا لِمَجْدِكَ أَنْ تَرْضَى جَلَالُهُ

فِي جَانِبِي بِالذِّي - مَوْلَاي - فِيهِ رَضُوا

وَقْدْ رَأَوْنِي وَقَدْرِي كَانَ مُرْتَفِعاً

فَلَا يَرَوْنِي وَقَدْرِي الْآنَ مُنْخَفِضٌ

وهو لا يلح في طلب العودة إلى خطة العدالة التي اشتمل عليها خصوصه أو أعداؤه كما يقول وإنما يطلب من هذا القاضي الذي له فيه مداعع أن يعرضه عنها بخطبة الجامع المعلوم في بسطة ويعطيه ما يستعين به على المعاش قال (27):

وَمَقْصِدِي مِنْكُمْ مَا أَسْتَعِنُ بِهِ

عَلَى الْمَعَاشِ فَذَاكَ الْقُصْدُ وَالغَرْضُ

وَخُطْبَةُ الْجَامِعِ الْمَعْلُومِ آمِلُهَا

لَعَلَّ خُطْبَتَهُ مَمَّا حَوَّوا عِوَضُ

وَإِنْ أَضْفَتَ إِلَيْهَا مَا ذَكَرْتُ فَقَدْ

شَفَعْتَ عِزَّيْ بِعَزٍّ لِيْسَ يَنْقَرِضُ

فَدَاوِي بِمُرَادِي إِنَّمَا رَجُلٌ  
 أَضْرَبَ بِي عِنْدَهُمْ مِنْ عَزْلِي الْمَرَضُ  
 وَإِنْ هُمْ نَهَضُوا جَهْلًا لِجَحْدِكُمْ  
 فَاعْزِمْ وَقْدَمْ وَلَا تَنْتَرُ لِمَا نَهَضُوا  
 وَلَا تَرَعِ لَهُمْ حَقَ الصَّفَاءِ فَهُمْ  
 لِمَجْدِكُمْ رَعِيَهُ - وَاللَّهُ - قَدْ رَفَضُوا

وفي هذه الظروف - على ما يبدو - قال الشاعر قصيدة التي يصف فيها إحراق حانته وأولها (145):

وَدَدْتُ أَنَاسًا لَمْ يُرَاعُوا الْوَدَادَ لِي  
 وَمَا سُمْتُهُمْ بِالسُّوءِ حَبَّةً خَرَدَلِ

وهي قصيدة طويلة يصف فيها إجماع الناس في بسطة على اذاته لا سبب إلا لأنّه كان يقول كلمة الحق:

وَأَمْوَأُوا جَمِيعًا بِالْأَذَايَةِ جَانِبِي  
 عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ لِلَّأَذَى بِمُحَلَّلِ  
 سِوَى أَنَّنِي أَصْبَحْتُ لِلْحَقِّ نَاصِرًا  
 وَلَمْ أَلْتَفِتْ مِنْهُمْ إِلَى عَذْلٍ عَذْلٍ

ويشير إلى أن خصومه كانوا في إلحاق الأذى به على قسمين:  
 فقسم آذاه باللسان، وقسم آذاه باليد، ومن هؤلاء أولئك الذين عمدوا إلى إحراق حانته الذي كان يجلس فيه للفتيا وعقد الشروط وتقييد العلم:

فِي احْرَاقِ حَانُوتِي لِتَحْشِطَ رُتبَتِي  
 يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِاَنْعَكَاسِ الْمُؤْمَلِ  
 فَقَدْ كَانَ لِلْأَحْكَامِ مَجْلِسَهَا الَّذِي  
 تَصَانُّ بِهِ مِنْ مُفْسِدٍ أَوْ مُبْدِلٍ

وكان لتقيدِ العلومِ وضيّطها

وعقدِ شروطِ القومِ أقرب منزل

ويبدو أن القاضي المذكور أسعف طلبه، وحدّد له مرتب شهرى قدره ستون درهماً من قبل ناظر الأحباس، وهو شيخ أبو عبد الله البباني، ثم نجده بعد ذلك يشتكى إلى القاضي المذكور من نقص هذا المرتب في الآيات التالية (72):

يا أثيراً لدى الأنام مكينا

زادك الله في العلى تمكينا

أنت تدرى حقيقةً أن شيخي

ردَّ قدماً مرتبى سَتِينَا<sup>(1)</sup>

فلماذا أعاده ليت شعري

بعدما قد شهدت لي خمسينا

كلموم إذا أتاكم فإني

خائف أن يردد عشرينا

واشفعوا لي بفضلكم في ذنوب

خلت جهلاً قبحها تحسينا

والظاهر أنه حرم بعد ذلك مرتبته فقال مخاطباً البباني الناظر في الأحباس الذي خالف «الأمر الكريم» وضييع رزق الشاعر المقرر له (67):

لئن ضاع رزقي عندك اليوم إن

لدى قاسم الأرزاق ليس يضيع

ولأن كنت للسلطان وحدك عاصيا

فإنني له بين الأنام مُطيء

ولأن كنت في مرضاته مُتابطاً

فإنني في مرضاته لسريع

وَمَا بِيَدِي مِنْ أَمْرٍ إِنْ وَضَعْتَهُ

فَمَقْدَارُهُ عَنِّي الْغَدَاءَ رَفِيعٌ

ولعله يقصد هذا الموضوع حين يقول من قصيدة أخرى مشيراً إلى أن الناظر المذكور تغير عليه بعد أن كان له خليلاً، ومنته حقه، ولم يلتفت إلى أمر الإمام في شأنه، قال (47) :

وَأَبْدَى عَبْوَسَ الْوَجْهَ مِنْ بَعْدِ بُشْرَهُ

وَصَبَرَ لَيْلَى الْوَدُودَ الصَّحِيحَ عَلَيْلَا

وَدَانَ بِمَنْعِ الْحَقِّ وَالْحَقِّ وَاجِبٌ

وَهَيَّجَ وَجْدًا فِي الْحَشَاءِ وَغَلِيلًا

وَلَوْ أَنَّهُ أَمْضَى مَرْفَعَ حَكْمِهِ

لِأَفْقَى إِلَى إِمْضَاءِ ذَاكَ سَبِيلًا

وَلَمْ يَرْعَ حَكْمَ الشَّرْعِ فِي ذَاكَ عَامِدًا

وَكَانَ بِزَعْمِ الشَّرْعِ فِيهِ كَفِيلًا

وهو في هذه القصيدة يعلن عزمه على الرحيل عن بلده فراراً من الظلم والعدوان وأنفة من تحمل الضيم والهوان ونشداناً للأنس والسلوان:

خَلِيلِيَّ مَا مُثْلِي يَقِيمُ ذَلِيلًا

وَيَحْمَلُ مِنْ ضَيْمِ الزَّمَانِ ثَقِيلًا

وَيَرْضَى بَعِيشٍ لَا يَزَالُ بِبِسْطَةٍ

يَجْدُدُ مِنْ خَطْبِ الْهُمُومِ جَلِيلًا

فَلَا تَعْذُلَنِي فِي رَحِيلِي عَنْكُمَا

فَإِنِّي لِمَا أَفْقَى عَزَمْتُ رَحِيلًا

فَكَيْفَ لِنَفْسِي أَنْ تَقِيمَ بِبَلْدَةٍ

تَشَاهِدُ فِيهَا مُثْلَ ذَا وَتَقِيلًا

فَإِنَّ مِنَ الْعَجَزِ الشَّوَاءُ بِمَوْطِنٍ  
يَكُونُ بِهِ الظَّلْمُ الْذَّمِيمُ نَزِيلاً

ولكنه - فيما يبدو - لم يستطع فراق أهله، ومكث بيته نادباً حظه  
باكيأً محتته، رافعاً شعوراً إلى بعض ذوي السلطان كما في هذه القصيدة  
التي خاطب بها «الرئيس الوزير الحاج أبي يحيى بن عاصم» ( حوالي  
857هـ - 1453م) وقد استهلها بهجاء خصومه الذين تواصوا بمنع حقه فقال  
(62 - 63):

أنت الدواء إذا ما أعضل الداء  
ورام هضمي حساداً وأعداء  
قوم ضعاف القوى في كسب منقبة  
وفي اكتساب المساوى هم أشداء  
الشكل شكل الورى والخلق خلقهم  
وهم إذا نطقوا لا شك أصداء  
أمر الأمير مضاع بين أظهرهم  
وهم إذا خوصموا قوم الداء  
والحق عندهم أنواره خفيت  
وعندهم لظلام الظلم إبداء  
هم العداة إذا غابوا، فإن حضروا  
قالوا بمكرهم: إننا أوداء  
لئن تواصوا بمنع الحق بينهم  
وقد دهم بي إسرار وإرادة  
فبالرئيس أبي يحيى بن عاصم لي  
على جميعهم نصر وإعداء

هو المؤملُ بعدَ اللَّهِ يُنْصُرُنِي  
 لو كَانَ مِنْ نَحْوِهِ بِالنَّصْرِ إِهْدَاءً  
 لَهُ بِمَا نَالَنِي أَصْبَحْتُ مُشْتَكِيًّا  
 وَإِنْ عَدْتُ عَنْهُ لِلْمُظْلُومِ بَيْدَاءً  
 عَسَاهُ يَأْخُذُ حَقَّيِّي مِنْهُمْ عَجَلاً  
 فَلَمْ يَزَلْ مِنْهُ لِي بِالْفَضْلِ إِسْدَاءً

ثم ختم القصيدة بأبيات في مدح الرجل، ويتبين من قول الشاعر:  
 لَهُ بِمَا نَالَنِي أَصْبَحْتُ مُشْتَكِيًّا  
 وَإِنْ عَدْتُ عَنْهُ لِلْمُظْلُومِ بَيْدَاءً  
 أنه أرسل القصيدة من بسطة إلى المذكور في غرناطة.

ولما استخلف أبو عبد الله محمد بن مالك الأليري على قضاء غرناطة  
 فرح شاعرنا بذلك لأنَّه صديق الشاعر ورفيق دراسته، وقد عبر عن فرجه في  
 أشعار هنَّاء فيها بالخطبة السامية وذكره بحقه المهمضون، وهو يختتم قصيدة  
 في تهنئة القاضي المذكور قائلاً (88):

وَعَجَلْ سَيِّدِي نَصْرِي فَحَقِّي  
 كَمَا تَدْرِي وَتَعْلَمُ وَالسَّلَامُ

وقال في آخر قصيدة أخرى (51):  
 وَمَهْرَهَا اجْعَلْهُ بِلَا مَانِعٍ  
 إِنْفَادَ مَا مِنْ قِصْتِي تَعْلَمُ  
 ولا نعرف تاريخ تولى هذا الفقيه قضاء الجماعة. ويظهر أنَّ ولايته  
 كانت قبل ولاية ابن عاصم لأنَّه ينقل عنه في شرح التحفة.  
 ولا يشير الشاعر في شعره الذي هنا فيه القاضي ابن منظور بقضاء

الجماعة إلى قصته وإنما يذكر أن دولته أفضل من دولة ابن جماعة، وقد ولـي ابن منظور قضاء غرناطة خلال 864هـ - 870هـ. وكانت صلة الشاعر به متينة، وقد يكون أفتى في قضيته لصالحه كما سرـى، ولكنـا لا نجد في شعره ما يدلـ على إنصاف مطلبه، وإنما نراه يستمرـ في شـوكـاه، فمن ذلك تخـمـيسـ يذكر فيه أخـلـاقـ صـنـفـهـ المـعاـصـرـينـ لهـ،ـ المـتـحـزـيـنـ ضـدـهـ،ـ منـ خطـبـاءـ وـشـيوـخـ وـقـضـاءـ،ـ وـنـورـهـ هـنـاـ عـلـىـ سـبـيلـ التـوـثـيقـ قالـ:ـ (69):ـ

إساءةُ الصنفِ في ذي النفسِ قد فَجَعْتُ  
والقلبُ قد صدَعْتُ والظَّهَرُ قد قَطَعْتُ  
وقائلٌ قالَ لو أقوالُهُ سُمِعْتُ  
قابلُ أخي سقطاتِ الناسِ إِنْ وَقَعْتُ  
يُومًا بعفوٍ وإِغْصَاءٍ وإِغْمَاضٍ  
فقلتُ والنفُسُ لم تجُنْ لِمَذْهِبِهِ  
وقد رأَتْ ما رأَتْهُ من تجَنِّبِهِ  
يا قلبُ صبراً لصنفِ في تحـزـيـهـ  
فلستَ تبصرُ ما ترجو السروـرـ بـهـ  
لا مِنْ خطيبٍ ولا شَيْخٍ ولا قاضٍ  
حسبـتـهـمـ عـدـةـ منـ أـفـضـلـ العـدـدـ  
واستمسـكـتـ بـهـمـ دونـ الأـنـامـ يـديـ  
حتـىـ انـجـلـىـ آنـهـمـ مـنـ كـثـرـ الـحـسـدـ  
إـذـاـ رـأـواـ نـعـمـةـ لـاحـتـ عـلـىـ أـحـدـ  
أـضـحـىـ الجـمـيـعـ وـمـاـ مـنـهـمـ بـهاـ رـاضـ  
كـبـيرـهـمـ بـالـحـشـاـ مـنـ حـقـدـهـ مـرـضـ  
بـالـشـرـ مـنـبـيـطـ بـالـخـيـرـ مـنـقـبـ

وَإِنْ أَصْغَرُهُمْ بِالسَّوءِ مُعْتَرِضٌ  
 فَهَجَرُهُمْ وَاجِبُ عَلَيْهِ مُفْتَرِضٌ  
 وَالْحَقُّ إِنْ يُلْتَقُوا يُلْقَوْا بِإِعْرَاضٍ

ومما قاله مخاطباً حابس مرتبة (78) :

مَاذَا تَقُولُونَ لِي يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا  
 طَلَبْتُ حَقِّي لَكُمْ فِي وَاجِبِ الظَّلَبِ  
 وَاللَّهُ سَبَحَانَهُ مَا بَيْنَا حَكْمُ  
 يَقْضِي عَلَيْكُمْ بِهِ بِالْقُهْرِ وَالْغَلَبةِ  
 فَاجْلُبْ لِنَفْسِكَ مَا تَرْجُو الْخَلاصَ بِهِ  
 مِنَ الْأَدَاءِ فِيهَا تَوْفِيقٌ مِنْ جَلَبِهِ  
 وَحَظٌ نَفْسِكَ دَعْ لِلَّهِ مُحْتَسِبًا  
 قَبْلَ الْمَمَاتِ وَأَعْطِ الْحَقَّ مِنْ طَلَبِهِ  
 فَلَيْسَ يَرْضَى بِمَنْعِ الْحَقِّ صَاحِبَهُ  
 ظُلْمًا لَهُ مَنْ يَرَى لِلَّهِ مُنْقَلَبَهُ  
 وَقَدْ نَصَحْتَكَ نُصْحَادًا إِنْ عَمَلْتَ بِهِ  
 غُصْمَتْ إِذْ لَفْظُهُ حَسْنٌ لِمَنْ قَلَبَهُ

ويشير في البيت الأخير إلى أن مقلوب نصح هو حسن. وحين أعيته الشكوى إلى ذوي السلطان لجأ إلى سلاح الدعاء والابتهاج إلى الله عز وجل كي يأخذ له الحق من اهتمم حقه وحبس عنه واجبه، وهذا ما تفصح عنه هذه القصيدة (48) :

أَيَا رَبَّا إِذَا يُدْعَى يُجِيبُ  
 دُعَوْتَكَ فَاسْتَجِبْ لِي يَا مُجِيبُ

فإنني لاهتضامي واحتقاري  
 بحبسِ مرتبني مُضنىً كثيبُ  
 أكادُ لفريطِ ما ألقاهُ أفنى  
 وللشكوى التي أشكو أذوبُ  
 فدمعي في الخدويد له انسكابُ  
 وقلبي للاوارد به لهيبُ  
 وليلي للكابةِ مُذلهمُ  
 ويومي للذى أشكو عصيُّ  
 وقد أصبحتُ في كرب عظيم  
 وعيش لا يلد ولا يطيبُ  
 وأحبس واجبى رجلُ ظلوم  
 غشوم لا يتوب ولا ينيبُ  
 يجور بحبسه جوراً عظيماً  
 ولا يخشى مكانك يا رقيبُ  
 ولا أحد سواك به انتشاري  
 عليه يا مهيمن يا قريبُ  
 فخذ لي يا إلهي الحق منه  
 وخفف من خطوب ما أصيُّ  
 فأنت الله تعلم ما ألاقي  
 وحالى عن عيانك لا يغيبُ

وبعد هذا يذكر - مرة أخرى - تواطؤ المتمتعين بمرتبات الأحباس من  
 صنفه وطبقته على إبطال حقه وإنكار نصيبه، ويهجوم هجاء مرأً فيقول:  
 ولا تُشمْت بي الأعداء ربَي  
 فشأن الكل في أمري عجيبُ

وَقَالُوا لَيْسَ فِي أَحْبَاسِهِمْ لِي  
 إِذَا عَدُوا نَفْوَسَهُمْ نَصِيبٌ  
 وَقَدْ كَذَّبُوا وَمَا إِنْ ذَاكَ بِدُعْ  
 فَمَا فِيهِمْ إِلَّا فَتَّى كَذُوبٌ  
 بَطِيءٌ فِي اِكتِسَابِ الْحَمْدِ لُؤْمًا  
 وَفِيمَا دُمْ سَبَاقٌ نَجِيبٌ  
 عَلَى ظُلْمِ الْوَرَى أَبْدًا مُصِرٌّ  
 وَفِي إِبْدَاءِ عُورَتِهِمْ دَعْوَبٌ  
 فَدُونَ صَغِيرِهِمْ فِي اللُّؤْمِ كَلْبٌ  
 وَدُونَ كَبِيرِهِمْ فِي الظُّلْمِ ذِيْبٌ  
 عَلَى وَجَنَاتِهِمْ لِلخُبْثِ وَشُمْ  
 فَكُلُّهُمْ لِشَهَرَتِهِ مُرِيبٌ

وَيَخْتَمُ الْفَصِيَّدَةُ بِالْتَّشْفِعِ بِالرَّسُولِ وَالتَّوْسِلِ بِجَاهِهِ عَنْدَ اللَّهِ فَيَقُولُ  
 وَقَدْ صَيَّرْتُ جَاهَ مُحَمَّدٍ لِي  
 إِلَيْكَ وَسِيلَتِي فَحَشَا أَخِيبُ

وَانْتَهَىْ أَمْرُ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْبَارِزَةِ فِي حَيَاةِ صَاحِبِنَا بِتَعْطِيلِ الْوَظَائِفِ التِّي  
 كَانَ يَقُومُ بِهَا فِي الْجَامِعِ الْأَعْظَمِ بِيُسْطَةٍ، وَفِي هَذَا يَقُولُ (151) :

تَرَكْتُ كَلَامِيْ وَالْقِرَاءَةَ وَالْفُتْيَا  
 بِيُسْطَةٍ وَاخْتَرْتُ الْخُمُولَ بِهَا رَأِيَا  
 فَلَسْتُ إِلَيْهَا مَا حَيَّتُ بِعَائِدٍ  
 وَلَوْ أَنِّي أَعْطَى عَلَى حَمْلِهَا الدُّنْيَا

وَهَكَذَا أَخْلَدَ الْفَقِيَّهَ الشَّاعِرَ مُكْرَهًا إِلَى الْخُمُولِ وَالْابْتِعَادِ عَنْ هَذِهِ  
 الْوَظَائِفِ الْدِينِيَّةِ التِّي كَافَحَ كَفَاحًا مُرِيًّا مِنْ أَجْلِ اسْتِمْرَارِهَا وَالْبَقَاءِ فِيهَا ،

وقد توجع لتداعي دين الهدى ووهىٰ في بلده بسطة ووصم أهلها بالجهل  
والبغى وقال فيهم:

مناهم مدى الأيام ذل إمامهم  
وذل إمام القوم من أقبح الأشيا

وفي ديوان الشاعر أشعار أخرى خاطب بها ناظر الأحباس البياني في  
طلب آخر لم يلق لديه القبول أيضاً على ما يظهر، فقد كتب إليه مرة راغباً  
في كراء ملك للأحباس بجوار ملكه (119):

سَيِّدِي لِي رَغْبَةُ فِي حُبْسٍ

بجواري في اكتراء الإغْرِش (١٢٠)

لِأَذَىٰ مِنْ أَجْلِهِ يَلْحَقُنِي

كُلَّمَا يُسْقِي ضُحَىً أو بِالْعَشِي

وَالْكِرَاءُ انْصَرَمَتْ مَدْتُهُ

وَالْمُكَارِيَ الْأَخْذُ مِنْهُ قَدْ خُشِيَ

بَانَ لِي ذَا مِنْهُ إِذْ قُلْتُ لَهُ

نَقْ مَسْقَاكَ زَمَانَ الْعَطْش

فَعَسَىٰ بِالْقَصْدِ تُلْفَى مُؤْنِسِي

لَا تَكُنْ بِالرَّدِّ تُلْفَى مُوْحِشِي

وأتبع هذا ب مدحه مدحأً أطنب فيه، ولما تباطأ ناظر الأحباس كتب إليه  
الشاعر يذكره بهذه الأبيات (122):

يَا سَيِّدِي الْحَبْسُ الَّذِي خَاطَبْتُكُمْ

فِي شَانِهِ، أَمْدُ الْكِرا فِيهِ اِنْتَهَىٰ

وَأَنَا عَلَىٰ مَا كَتَبْتُهُ مِنْ رَغْبَتِي

فِي أَخْذِهِ لَمْ اِتَّقِلْ عَمَّا مَضَىٰ

فَسَاكُمْ أَنْ تُبْرِمُوا فِيهِ مَعِي  
 عَقْدَ الْكِرَاءِ عَلَى الَّذِي الْحُبُّ افْتَضَى  
 وَلَمْدَةٌ شِشْتُمْ بِمَا قَدْ شِشْتُمْ  
 إِنِّي جَعَلْتُ إِلَيْكَ ذَاكَ مُفْوَضًا

ويبدو أن ناظر الأحباس لم يلب رغبته في ذلك ومن ثم فسد ما بينه وبين الشاعر، وهو يقول مخاطبا إياه في شأن خراجة حكم عليه بتعطيلها جوراً وظلماً كما يقول (148) :

عَطَّلَتْ خَرَاجَةَ<sup>(2)</sup> الدَّارِ التِّي قَدْمَتْ  
 جَوْرًا وَظُلْمًا كَمَا قَدْ شَاءَهُ الْقَدْرُ  
 وَلَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِي ذَاكَ مُعْتَبِرًا  
 حَتَّى بَدَتْ لِي مِنْ تَعْطِيلِهَا عِبْرًا  
 فَأَذْهَلَ النَّفْسَ حَتَّى عَنْ مَرَاشِدِهَا  
 وَاسْتَقْبَلَتِنِي بِهِ الْأَشْجَانُ وَالْغَيْرُ  
 فَالْهَطْلُ عِنْدَ نَزْوَلِ الْغَيْثِ وَاكْفُهُ  
 قَدْ ضَرَّنِي ضَرَرًا مَا مِثْلُهُ ضَرَرًا

ولعلَّ مما يتصل بقراء العبس السابق قوله مخاطباً بعض أصحابه : (111)

يَا مَنْ عَلَا قَدْرًا عَلَى نُظَرَائِهِ  
 بِيَدَائِعِ قَدْ أَعْجَزْتُ نُظَرَاءَهُ  
 إِنْفَاقُ مَنْ تَدْرِيَهُ زَادَ وَإِنَّهُ  
 لِيَوْدُ مِنْ حُبْسٍ إِلَيْكَ كِرَاءَهُ  
 فَابْعَثْ بِهِ مَعْ وَاصِلٍ ، أَوْصِلْ بِهِ  
 مَتْفَضَلًا تُدْهِبْ بِهِ ضَرَاءَهُ

فَلَقْدُ غَدَا مِنْ حَاجَةٍ حَلَّتْ بِهِ  
فِي مِصْرِهِ سَاوِي بِهَا فُقَرَاءُهُ

وقوله مخاطباً آخر في شأن مغرم حبس (115) :  
أَصْحَّ لِذِكْرِ مُحَبٍّ لَمْ يَزِلْ أَبْدًا  
يَرْعَى لَكَ الْحُبَّ رَغْيًا غَيْرَ مُلْتَبِسٍ

جاء ابن عَمْكَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ  
فَأَيْنَ مَا قُلْتَهُ مِنْ مَغْرَمِ الْحُبُّ

ولما مَنَعَ مِنْ حَقِّهِ وَاشْتَدَتْ عَلَيْهِ وَطَأَةُ الْحَاجَةِ وَكَثُرَتْ مَطَالِبُ  
عِيَالِهِ خَاطِبُ الْقَاضِيِّ الرَّئِيسِ أَبَا حَامِدِ ابْنِ الْحَسَنِ الْمَالِقِيِّ بِقَصِيدَةٍ طَرِيفَةٍ  
يَمْتَزِجُ فِيهَا الْجَدُّ بِالْهَزْلِ، وَقَدْ بَدَأَهَا بِالشَّكُوكِيِّ فَقَالَ (23 - 24) :

مَنْ لَخَطَبَيِّ مَنْ لِغَمَّيِ  
مَنْ لَكَرْبَيِّ مَنْ لَهَمَّيِ  
مَنْعَ الْأَعْدَاءِ حَقَّيِ  
مَنْعَ عُدُوانِ وَظُلْمِ  
قَدْ مَضِيَ عَامٌ وَنَصْفٌ  
لَمْ أَصْلِ مِنْهُ لِقَسْمِ  
وَأَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ  
رَبُّ إِنْفَاقٍ وَغُرْمٌ  
رَبُّ بَيْتٍ أَكْتَرِيَهُ  
لِعِيَالِيِّ مَعَ كَرْمٍ  
وَدَقِيقٌ أَشْتَرِيَهُ  
مَعَ مَلْحٍ ثُمَّ لَحْمٍ

ثُمَّ زَيْتٌ لِوقودِ  
 مع حَطْبٍ ثُمَّ فَخْمٌ  
 ثُمَّ عَسْلٌ مع سُمْنٌ  
 وخليعٌ مع شَخْمٌ  
 ثُمَّ أَبْزَارٌ لِإِصْلَاحٍ  
 حِمَاطَاعِيمِي وَأَدْمٌ  
 ثُمَّ تَمْرٌ مع تَيْنٌ  
 وزَبِيبٌ دون عَجْمٍ  
 ثُمَّ فَخَارٌ لِطَبْخٍ  
 ثُمَّ شَرْبٌ ثُمَّ طَعْمٌ  
 ثُمَّ صَابُونٌ لِغَسْلٍ  
 ثُمَّ أَزْهَارٌ لِشَمٍّ  
 دُعْ غِطَائِي وَوِطَائِي  
 وَثِيَابِي دون ضَمَّ  
 وَسِوى ذَلِكَ مَمَّا  
 نَوْعَهُ لَسْتُ أَسْمَى  
 وَرَدَ النَّصَّ بِهِ فِي  
 غَيْرِ مَا دِيوَانٌ عَلِمَ  
 مِنْ أَتَاهُ لَمْ يَصْفُهُ  
 أَحَدٌ قَطْ بَظْلُمٌ  
 لَمْ أَحْصَلْ مِنْهُ شَيْئًا  
 لافتقاري مع عَذْمِي

وهذا سرد لقائمة النفقة التقليدية الحضرية في الأندلس والمغرب التي  
 كانت تعد شراء الأزهار من جملة نفقة البيت.

وفي هذه القصيدة حديث طريف عن الدرهم هو بالغزل أشبه منه بالمدح، وهو يذكرنا بشعر الحريري فيه، وفي آخر القصيدة مدح للقاضي المذكور.

والقصيدة في نسيجها تذكرنا بقصيدة هزلية لابن الأزرق معاصر شاعرنا وأخرى لأبي عبد الله العُقيلي<sup>(3)</sup>.

ولا نعرف من هو كاتب سر هذا القاضي الذي يصفه في هذه القصيدة قائلاً:

وله كاتب سرٌ  
أضفر اللون ضئيلٌ  
من تعرى ما كساه  
يُخسم الداء إذا ما  
قدره خص برفعٍ  
ثم أغلاه خطيباً  
فشفى الناس بوعظٍ  
وتاذى خلفه المف

ولعله نائب ابن مفضل الذي قال فيه في بعض أشعاره إن علمه أمضى من السّمّ الرفاق وأشار في رثائه إلى أنه كان إماماً مقرئاً واعظاً، وكل هذا تلمع إليه الآيات ولا سيما الأخير. وقد يكون يعني بها نفسه.

وهو يذكر فقره واحتياجه في أبيات يداعب بها أصحابه كقوله:

إذا ما لحا أهلي وطال اعتراضهم  
على قلة الإدراك أو ظلمة البيتِ  
أقول لهم مهلاً على فسيّدي  
أبو جعفر ذو الفضل ينعم بالرّزقِ

ويبدو أن صاحبه أبا جعفر الذي طلب منه هنا الزيت هو أبو جعفر  
أحمد القصار الذي طلب منه كتاب صحاح اللغة في هذين البيتين (67):

ثُوبِي مِنَ اللُّغَةِ الَّتِي أَحْتَاجُهَا  
عِنْدِي لِنَفْسِي كَمَالِهِ اسْتِقْصَارُ  
وَعَلَيْكُمْ تَكْمِيلُهُ بِصَحَاحِكُمْ  
نَفْسُ الشَّيْبِ يُزِيلُهُ الْقَصَارُ

ولعل من مظاهر فقره أنه كان يستعيير الكتب من أصحابه كما في هذا  
المثال وكما في قوله شاكراً بعض الأصحاب على إعارة بهرام وهو فقيه  
مالكي معروف غالب اسمه على كتابه (82):

جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ أَخِي ثَقَةٍ  
جُذْتُمْ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتُمْ بِبَهْرَامِ  
وَكَانَ إِكْرَامُهُ فِي ذَاكَ مَتْضِحًا  
لَا زَلْتُمُ الدَّهْرَ فِي بِرٍّ وَإِكْرَامٍ

ويقول أيضاً في شكر بعض الأصحاب الذين أعاروه كتاب الصيб  
والجهام، وهو ديوان شعر لابن الخطيب (105):

إِنِّي لَا قطْعُ مَدَّتِي مِنْ ذَكْرِكُمْ  
يَا أَهْلَ وَدِي بِالثَّنَاءِ الطَّيِّبِ  
فَلَقَدْ قَضَيْتُمْ لِي مَارِبَ جَمَّةَ  
لَمَّا أَعْرَتُمْ لِي كِتَابَ الصَّيْبِ

وكان يبيع كتبه وهي آخر ما يباع من المتعاق كما قال بعضهم، فقد كتب  
على ظهر كتاب اضطر إلى بيعه هذين البيتين (108):

قَسْمًاً لَوْلَا مَعَادَةُ الزَّمْنِ  
وَاحْتِاجِي مِنْ كِتَابِي لِلثَّمَنِ

ما بِهِ نُفْسِي لَبِيعٍ سَمِحْتُ  
ولَوْ اعْتَضَتْ بِهِ مُلْكُ الْيَمَنْ<sup>(3)</sup>

وقد باع نفائس كتبه ليجمع ما يفتدي به نفسه من الأسر، قال في  
مخاطبة أبي حامد ابن الحسن النباхи (34):  
أَعْلَاقَ عِلْمِي بَعْثَتْ فِي الْخَطْبِ الَّذِي

هُوَ ظَاهِرٌ لِلْمُبْتَدِي وَالشَّادِي  
وَالْجَبْرُ أَرْجُو إِنْ عَلَيَّ عَطْفُمْ  
بِرْسَالَةِ التَّنبِيَّهِ وَالْإِرْشَادِ

إن الاهتمام الذي تعرض له الفقيه الشاعر في بلده كان له انعكاس  
على رأيه فيه، فقد كان في شبابه يتغنى بطبيعة بسطة الجميلة، وله في  
ذلك شعر رأينا بعضه فيما سبق، ولكنه عدل عن هذا الرأي بسبب تفريط  
أهل بلده في حقه وأصبح يقول أشعاراً في ذمها وهجو أهلها فمن ذلك قوله  
:(152)

أَيُّهَا الصَّبُّ بُسْكَنِي بَسْطَةٌ  
يَتَغْنِي الْعِزَّ بِهَا وَالشَّرْفَا  
انْصَرَفَ عَنْهَا لِسُكْنِي غَيْرِهَا  
فَكِلاً الْأَمْرَيْنِ عَنْهَا انْصَرَفَا  
لَا تُؤْمِلْ نِيلَ شَيْءٍ مِنْهُمَا  
مَا عَلَيْهَا الْمَلَوَانِ اخْتَلَفَا  
بَلْدَةٌ فِيهَا الْهَوَا مُنْحَرِفٌ  
كِمْزَاجٌ النَّاسِ فِيهَا آنْحَرَافٌ  
حَسَدٌ صَاحِبَهُ الْبَغْيُ بِهَا  
ذَا عَلَى هَذَا بِهَا قَدْ وُقْفَا

أكثُرُ النَّاسِ بِهَا مَنْ تُلْفِهِ  
بِكُلِّ الْوَصْفَيْنِ فِيهَا عُرِفَا

ويبدو أن أهلها كانوا يؤثرون الغريب على القريب وفي هذا يقول

(93)

قَالُوا غَدَا الْبَرَانِي فِي غُلَيْرَةٍ  
فِي الْوَقْتِ صَدْرَ صُدُورِهَا الْأَعْيَانِ  
فَأَجَبُتُهُمْ لَا تُنْكِرُوا فَيْسَطِهِ  
مَا زَالَ صَدْرَ صُدُورِهَا الْبَرَانِي

(غليرة بلد من أحواز بسطة. انظر نازلة شراء أموال أهل غليرة من الروم في المعيار 2: 110).

وقال في التعريض بها وبأهلها «لموجب أوجب ذلك» (103 - 104):  
لَا رَعَى اللَّهُ بَسْطَةً وَأَنَاسًا

بِحِمَاهَا أَصْحَحُوا مِنَ السَّكَانِ  
فَلَقَدْ أَكْرَمُوا اللَّئَامَ افْتَخَارًا  
وَهَانُوا الْقُرَاءَ لِلْقُرْآنِ  
لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتِنَا ذَا بْلُ عَلَيْهِ  
لَمْ يَزَالُوا فِي سَالِفِ الْأَرْمَانِ

وقال في الغرض نفسه (104):

الْكَلْبُ صَارَ بَسْطَةً أَعْلَى وَأَشَرَّفَ مِنْ فَقِيهٍ  
أَنَّ فَقِيهَ يَعْتَلِي لِمَحْلِهِ أَوْ يَرْتَقِي  
الْكَلْبُ مَالُكُهُ بِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَخْشى يَقِيهُ  
وَفَقِيهُهَا مِنْ أَهْلِهَا مَا سَاءَ مِنْهُمْ يَتَقِيهُ  
فَتِرَاهُ عَنْدَ خُرُوجِهِ يَرْتَاعُ مَمْنُ يَلْتَقِيهُ

أَفْعَالٌ يَرْضَى بِهَا وَطَنًا لِسُكْنَى يَتَّقِيْهُ  
وَقَالَ أَيْضًا (104) :

عَجَبًا لِمَادِحٍ بَسْطَةٍ مِنْ جَاهِلٍ  
عَمَّا بِهِ فِي النَّاسِ عَيْتُ لَاهٌ  
وَعَزِيزُهَا [ذو الفسق] عَزٌّ لِفَسْقِهِ  
وَذَلِيلُهَا تَالِي كِتَابُ اللَّهِ

إن هذه الأشعار التي يشكو فيها الشاعر خالية من التاريخ كما هو الأمر الغالب في دواوين الشعراء الأقدمين، ولكن الشاعر كما رأينا يشكو تارة من حبس حقه في واجب الطلبة، ويشكو تارة أخرى من نقص مرتبه ثم من إيقافه، كما يشكو من عزله ومنعه من خطبة العدالة وإحراق حانوته، وقد بدا لي بعد إمعان النظر فيها أنها تتعلق بثلاث حوادث في حياة الشاعر: فالحادثة الأولى هي التي يطلب فيها حقه «في واجب الطلبة» حين يقول:

مَاذَا تَقُولُونَ لِي يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا  
طَلَبْتُ حَقَّيْ لَكُمْ فِي واجبِ الطَّلَبَةِ

وينبغي أن تكون هذه الحادثة في آخر مرحلة الطلب وكان فيها الشاعر على ما يظهر - ما يزال يعيش في كنف والده، وكان يستفيد من الأحباس المحبسة على الطلبة الضعفاء في مدينة بسطة، ويبدو أن الشاعر لم يعد يوازن على حضور مجالس العلم وأخذ يشتغل بتأديب الأولاد وكتابة العقود وغير ذلك، فبحبس عنه ناظر الأحباس ما كان يأخذه بحجة عدم المراقبة على الدروس والاشتغال بالتأديب والوراقة، وهنا رفع الشاعر عقيرته بالشكوى في القصيدة المشار إليها وغيرها، ويبدو أن ناظر الأحباس استند في موقفه على فتاوى مفتى الحضرة (غرناطة) يومئذ أبي عبد الله محمد المواق، وقد وقفنا على هذه الفتوى التي لعلها تعنى صاحبنا، وإذا كان لم

يذكر فيها بالاسم فإن القرائن تدل على أنه المقصود بها في الغالب، وها هو نص الفتوى كما وردت في المعيار للونشريسي (7: 145 - 124):

«وسائل المواقف<sup>(10)</sup> عن أحباسٍ ببساطة محبسٍ على الطلبة الضعفاء وعندنا من يحضر مجلس العلم في وقت من الأوقات وهو مؤدب يقطع جل أوقاته في التأديب وآخر يستغل جل أوقاته بصناعة من الصنائع يتعيش منها فأشكل علينا، هل يعطى من هو على هذه الحالة من الأحباس المذكورة؟ فإن ظاهر الأمر أن الإعانة من مقصد المحبس فيها أن تكون إعانة لمن يهتم بالطلب ولا يتكلف معيشة غيرها لكون أوقاته يعمرها بطلب العلم. أما من يحضر مجلس العلم في وقتٍ ما من الأوقات مثل ما يحضره العامي فبعيدٌ من المحبس قصد إعانته، وكنا نسمع من أصحابنا مدة الإقامة أن من برز للشهادة مع المؤثرين لاحظ له مع الطلبة في مرتب الطالب، فأردنا منكم الإتحاف بما عندكم في هذه المسألة.

فأجاب: من تلبّس إبليس أخذ حبس الطلبة لمن وقف عند غاية لا هو ينمو في نفسه ولا ينمّي في غيره. قال الشاطبي في موافقاته في مثل هذا: إنه من باب العبث بالنسبة للمصلحة المجتبية ومن تكليف ما لا يطاق في حقّه، وكلاهما باطلٌ شرعاً فلا يأخذ من الوقف على طلبة العلم إلا من جاد فهمه وحسن إدراكه وطابت سجنته، وتجرد لأن ينتفع وينفع، وأما إن كان خبره بالقراءة لا يتجاوز عتبة بابه فليطلب أجره من ربّه ول يجعل الوقف لأهله أو يصرف فيما هو أعود نفعاً للعامة، لأنّه لمصالح العامة، وما ذكرتم أن من سرحت شهادته منع من مرتبه على الطلبة، فشيخخنا أبو القاسم ابن سراج كان هذا مأخذة، سرّح شهادة بعض أصحابنا وشرط عليه إن ارتفع لحانوتٍ أنه يمنعه المرتب».

وله فتوى ثانية في هذه النازلة مع تعديل في صيغة السؤال هذه المرة، ونظن أنها مثل الأولى تتعلق بموضوع شاعرنا، وها هو نصها كما في المعيار (7: 130).

وسائل (أي المواق) عن قرية حبست على مصالح قشتال<sup>(5)</sup> وطلائعه عين لذلك ربع فائدتها [وربع] على ضعفاء الفرسان ببساطة، وعين للضعفاء من طلبة العلم ببساطة ربع آخر، وعين الربع الرابع للناظر، ظهر للناظر الآن فيها أن في طلبة العلم بها من هو غني بمال أبيه لكونه تحت إنفاقه وكسوته وأحب مطالعة سعادتكم بذلك، وهل يعد من كان قد بلغ وخرج من حجر أبيه - إذا كان لا شيء أو له شيء يسير - غنياً بسبب كونه ساكناً مع أبيه وتحت إنفاقه وكسوته، أو هو ضعيف يعطي من هذه الأحباس مع جملة ضعفاء الطلبة.

ومن سؤال الناظر أن الأرض المحبسة لها جب وقرار مفتران للإصلاح وفيها أرض غامرة عليها مساري لسواتها من أرضها العamerة تفتقر لمن يعملاها، هل له أن يأخذ من جملة غلتها ما يصلح به ما ذكر أو لا؟ .

فأجاب أما أن الطالب المذكور ليس له شيء فلا يشك أنه فقير، لكن غيره يستعين بما يعطى في سد جوعه وستر عورته، وهذا الطالب قد كفى هذه المؤنة يستعين بما يعطى في ترفة .

وهذه المسألة فيها نظر قد يكون مرجواً أكثر من غيري وهو يحتاج لكتب وغيرها .

ولكن الفقيه ابن منظور، وهو أبو عمرو ابن منظور الذي استنجد به الشاعر كما رأينا كان له رأي مخالف لرأي المواق في هذه النازلة، وإذا كان المواق أفتى بمنع الطالب في حالتي النازلة من حقه في الحبس المذكور فإن ابن منظور أفتى بخلاف ذلك، وها هي فتواه كما أوردها الوتشريسي أيضاً في المعيار بعد إعادة السؤال المذكور (7: 124).

«فأجاب بأن القرية المذكورة يتبع فيها قصد المحبس الذي يفهم من ألفاظ رسم التحبيس ولا يخالف في شيء منه، فما كان للقتال فيما ذكر فهو كذلك ولا يغير، وما كان لضعفاء الفرسان من ذكر فلهم، وما كان

لضعفاء الطلبة فلهم، ولا فرق في الضعفاء بين من هو ضعيف ولا والد له أو له والد ضعيف، وبين من له والدٌ غني لأنَّ غنى الوالد لا يوجب وصفاً للولد أنه غني لا سيما مع بلوغ الولد، فقد خرج على إيجاب النفقة عليه من أبيه، وأن أرفق الوالد ولده فالله يشكراً، فقد يجدي ما يعطيه الأب لشراء كتابٍ أو كاغطٍ، وله سهمه في الحبس إن شاء الله، وكذلك سكني الولد مع الأب لا يحرمه حظه إن شاء الله، والطلبة الساكنون في البلد المستوطنون وإن لم يكونوا في الأصل من البلد إذا كانوا ضعفاء يعطون إلا أن يكون في الرسم نص على إخراجهم، وأما من غير نص فلا، وأما تصريف فائد الحبس في جب أو قرار فليس ذلك له، وإنما يصلح ما يعود بمصلحة للحبس غالباً إلا أن يُكرِي القرار فيعود بمنفعة، فقد يقال بجوازه، وهذه المتفعة للحبس لا لغيره».

وإذا صحَّ أن هذه الفتوى هي في نازلة صاحبنا البسطي فقد تكون هي «الحكم» الذي أشار إليه في قصيدة سابقة له في الموضوع إذ يقول متحدثاً عنمن منعه حقه من قصيدة (47):

ودان بِمَنْعِ الْحَقِّ وَالْحَقِّ وَاجِبٌ  
وَهَيَّجَ وَجْدًا فِي الْحَشَا وَغَلِيلًا  
ولَوْ أَنَّهُ أَمْضَى مَرْفَعَ حُكْمِهِ  
لِأَلْفِي إِلَى إِمْضَاءِ ذَكَرِ سَبِيلًا

ولعله يشير إلى أن ناظر الأحباس كان يتلمس السبل إلى عدم تنفيذ الحكم بتعلات مختلفة - كما رأينا - مع أنه كان في وسعه أن يجد سبيلاً ومخرجاً إلى تنفيذ الحكم بالاستناد إلى فتوى ابن منظور.

وقد عبر الشاعر في أول هذه القصيدة عن عزمه على الرحيل عن بسطة وذلك في أبيات ذكرناها سابقاً، ويقول في آخر القصيدة (48):

لَعَلَّ الَّذِي أَلْقَاهُ يَذْهُبُ جُمْلَةً  
وَأَبْصُرُ وجْهًا لِلسَّرُورِ جَمِيلًا

بِلْقِي رَجَالٍ فِي مُوَاطَنٍ طَالِمًا  
 بَنْتٌ وَبَنْوَانٌ فَخْرٌ الرِّجَالِ أَثِيلًا  
 وَيُلْفِي لَدِيهِمْ مِنْ أَتَاهُمْ بِأَرْضِهِمْ  
 مِنَ الْفَضْلِ حَطَّاً فِي النُّفُوسِ جَزِيلًا  
 وَظَلَّاً ظَلِيلًا فِي رِيَاضِ تَنَعُّمٍ  
 يُطِيبَ مُثْوِي لِلْفَتَى وَمَقِيلًا  
 وَسَعَدًا بِمَا يَهُوَى الْفَؤَادُ مُسَاعِدًا  
 وَأَنْسًا وَصَوْلًا بُكْرَةً وَأَصِيلًا  
 هَنَالِكَ مَا بِي مِنْ خُطُوبٍ عَظِيمَةٍ  
 يَخْفُ عنِ الْقَلْبِ الْقَرِيبِ قَلِيلًا

فهل كان الشاعر يفكر في برجة وأهلها الذين قصدتهم واشتغل عندهم  
 إماماً ومدحهم في شعره، بمثل ما مدحهم ابن الخطيب في نثره، ولقي  
 عندهم ما أمل في الأبيات الآنفة فاستراح خاطره وطابت نفسه كما يقول:

فطابت نفوسُ طالما قد تغيرت  
 وصحتْ أنوفُ تشتكي بركام  
 أمثلُ شخصي عندهم في حدائقِ  
 سقاها سحابُ الجَوْدِ صوبَ سِجام  
 فجادَتْ بما تَهُوَى النُّفُوسُ وتشتهي  
 فما شئْهُ أَجْنِيَهُ دونَ مَلام

وأغلب الظن أن رحيله إلى برجة كان بعد هذه الحادثة، ولعل مما  
 يدل على ذلك أنه يشير إلى صغر سنه في هذه القصيدة:

فقد شبيَّتْ هذِي البُشَراتِ مَفْرُقي  
 وسِينِي كَمَا تَذْرُونَ سِنُّ غَلام

وقد قدّرنا فيما سبق أن محنّة أسره جاءت في أعقاب هذه المرحلة من حياته، والأشعار التي قالها وهو في الأسر تشهد بهذا.

أما الصنف الثاني من شكاوى الشاعر -حسب تقسيمنا السابق- فيتعلق بمرتبٍ كان يأخذُه من الأوقاف لقاء عملٍ ما، وقد أشار الشاعر كما سبق إلى أن هذا المرتب كان «ستين» وأصبح «خمسين» وكان خائفاً من أن يصير «عشرين» ثم حبس عنه، فشكى من ذلك وأكثر من الشكوى، ولجا إلى القضاة والمفتين عليه يستنصر بفتواهم، ويبدو أن الفتوى في هذه النازلة طلبت من فقهاء فاس فأفتي فيها مفتى المغرب عبد الله العبدوسى والفقىء ابن املاك.

وقد وردت النازلة مرتين في المعيار للنشرىسي (7: 12 - 14 ، 297 - 298) ونقلها فيما يلي :

«وسائل (العبدوسى) رحمة الله عن مرتب القيسى الذي كان يأخذ من الأحباس نحواً من خمسة أعوام ثلثين ديناراً في الشهر وهو لم يكتب قط في الحبس يوماً واحداً ولا جلس فيه ولا شهد فيه لا في داخل ولا في خارج، هل يجب عليه رد جميع ما أخذ أو يسوغ له؟ ما حكم الله في ذلك؟ بينما لنا ذلك مأجورين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجاب: الحمد لله تعالى وحده دائمًا. الجواب، والله سبحانه المرشد للصواب بمنه إن جعل له المرتب المذكور على القيام بمصلحة من المصالح، من نظر أو إشراف أو شهادة أو غير ذلك من مصالحه فلم يقم بها فأخذ ما أخذ باطل يجب عليه رده لأنه أخذه من غير عوض ولا يجوز للناظر في الحبس السكوت عنه، بل يجب عليه طلبه واستخلاصه منه فإنه مطلوب بضم أموال الأحباس واستخراجها من يد معتصبها أو آخذها بغير حق، وقد كان الأخذ المذكور استفتانا في ذلك فأفتيته بأنه لا يجوز له أخذ المرتب إلا بشرطين: أن يكون عن أمر من ولاه الله سبحانه النظر في مصالح المسلمين على حسب ما اقتضاه اجتهاده في ذلك وأن يقوم

بالمصلحة التي جعل له المرتب عليها وإنما لا يجوز له أخذه وبالله سبحانه التوفيق.

وأجاب عن السؤال المذكور الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي المديوني الشهير بابن أملاك بما نصه: الجواب، والله الهادي إلى الصواب أن يرد ما تحصل بيده من مال الحبس، لأنه أخذه بغير حق ولا وجه شبهة، وهو متعد في أخذ ما أخذ من ذلك لأنه لم يغُّ عن الحبس شيئاً والواجب على من تعين للنظر في الحبس أن يقوم بذلك ويطلب بذلك ولا يسعه ترك القيام في ذلك، لأن ذلك حق من جملة حقوق الحبس وهو دين متعلق بذمة آخذه من غير شك في ذلك ولا ارتياح والله الموفق للصواب بمنه.

وتقييد بعقبه ما نصه: أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير الصدر الأوحد الخطير القدوة الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد بن أملاك المذكور مجبياً فوقه يليه أن الجواب فرقه هو وتقييد بعقبه ما نصه:

الحمد لله أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير، الصدر الأوحد الخطير، القدوة الحجة المفتى المدرس الأجل الأفضل الأكمل أبي محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه المعظم الصدر المعتبر الأشهر المفتى المدرس الأحفل الأفضل أبي عبد الله محمد بن محمد بن موسى بن معطي العبدوسى على نفسه أن الجواب على السؤال المذكور فوقه الذي في أوله: الحمد لله تعالى وحده دائماً وآخره: وخار له بمنه وفضله. جوابه عن المسألة المذكورة الذي تقلده فيها من غير شك في ذلك بمن علم خطه، قيد عليه شهادته في أوائل شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة. عرفا الله تعالى قدره.

جوابه، وبخط يده في النازلة المتضمن لها السؤال أولاً أعلاه جواب ارتضاه، وقال به في النازلة المذكورة. شهد عليه أكرمه الله تعالى بذلك وهو بحال كمال الإشهاد وعرفه وفي رابع شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة عرفا الله خيره».

وجاءت صيغة السؤال عن هذه النازلة في موضع آخر من المعيار مغايرة للصيغة السابقة وهذا نصها: «وسائل سيدي عبد الله العبدوسى عن مرتب القىسى الذى كان يأخذ من الحبس وهو لم يكتب ولم يحضر متجملاً لا حصيراً ولا زيتاً ولا بناءً ولا أخذناً ولا إعطاء، هل يسوغ له وهل يرد، وهل يجب طلبه؟».

إنَّ عندنا من القرائن هنا ما يجعلنا نقدر أن المقصود في هذه النازلة هو صاحبنا، وأول هذه القرائن ذكر القىسى وهي الشهرة التي عرف بها الشاعر، وممَّا يؤسف له عدم ذكر اسمه، وثانيها ذكر مرتب الأحباس، وثالثتها تاريخ النازلة فهو ملائم لزمن الشاعر، ورابعتها الإشهاد على الفتوى مما يشعر بأنها للاستظهار بها في غير البلد الذي صدرت عنه، ويستفاد من جواب العبدوسى أن سؤال الفتوى جاء من جهة القىسى ومن جهة ناظر الأحباس معاً.

ويبدو أنه بناءً على هذه الفتوى قطع المرتب عن الفقيه الشاعر، وقد شكا من ذلك كثيراً.

والحادية الثالثة التي رأيناها يشكو منها كثيراً أيضاً هي تأخيره عن خطة العدالة والتوثيق، والظاهر من شعره أنه اشتغل بالتوثيق زمناً وكان له حانوت يجلس فيه لذلك، وفي شعره ما يشير إلى هذه الفترة، فمن ذلك قوله يخاطب بعض القضاة (121):

برعي عدول الوقت غياً ومشهدأ  
تحلُّ من الفردوس أعلى الأرائك  
وقد ساءهم أن يُحرموا كل فائدٍ  
لديكَ اغتنى حتى حضور الترائكِ

فهو هنا يدافع عن حقوق العدول، ومن هذا قوله مخاطباً بعض القضاة أيضاً (113):

بذل النصيحة واجب لك سيد  
 فاصبح فعنك نصيحتي لم أخزن  
 إن العدول من الشهود يسوءكم  
 جعل المبرز منهم كالمخزني

وكذلك قوله (113) :

رأيت عظيمة أشفقت منها  
 وشيمه سيدى دفع العظام  
 عدولك في حواناتهم قعود  
 وغير العدل بالتحليف قائم

وله في مخاطبة هذا القاضي الذي لم يسمه (73) :  
 يا قاضياً يعدل في حكمه  
 وغيره في حكمه قد يجوز  
 مالي بما تقضيه إلا الرضى  
 قضيت لي بالحزن أو بالسرور

وله فيه أيضاً (77) :

سواك إذا يقضي يجور ويظللم  
 ويرضى بهتك العرض وهو محرم  
 وغيرك يعطي العون خمسين درهماً  
 ولي ثلثها أو دونه حين يقسم  
 أعد نظراً فيما أتيت به فقد  
 بدأ أن هذا الفعل منك تحكم  
 وبادر زمان الحكم من قبل فؤته  
 فما كُلّ وقت أنت تقضي وتحكم

وأحسن مكسوب الفتى في زمانه  
ثناء جميل منجد الذكر متهם

ويبدو أن طول لسان الشاعر الفقيه وميله إلى النقد اللاذع لبعض  
قضاة بسطة ومشاكلته لبعض عدولها كانت من أسباب تأخيره عن العدالة  
ومنعه من التوثيق، وما نظن أن السبب يرجع إلى عدم الكفاءة والأهلية  
للحركة فقد كان كما يدل شعره عارفاً بالفقه بصيراً بالوثائق، وقد كتب على  
ظهر نسخته من وثائق ابن سلمون التي كانت عدمة المؤثثين في الأندلس  
والمغرب يومئذ ما نصه (92):

جوهرُ أحكامِ ودرُّ وثائقِ  
بترتيبها جمعاً أجادَ ابنُ سلمونِ  
تضمنَ ذا الديوانُ منها فرائداً  
من ابتعاثها بالرّوح ليسَ بمغبونٍ  
تقوُّد إلى التّحقيقِ مستمسكاً بها  
وتصلحُ للدنيا اقتناء وللدّينِ  
بها كلَّ قاضٍ يكتفي وموثقٌ  
وملكُها يُعني عن جميعِ الدّواوينِ (؟)  
فخذُّها لحكمٍ أو لعقدٍ وثيقةٍ  
على ثقةٍ منها بشرحٍ وتبيينٍ  
ولا تلتفتْ فيها إلى قولِ قائلٍ  
وكن بالذّي جاءتْ به جدًّا مفتونٍ  
وطالعَ مَعَ الأيامِ منها حديقةٌ  
من العلمِ بالأحكامِ ذاتِ أفالينِ  
ووجهَ الإلهِ اقصدْ بفعلكِ دائمًا  
تُنلُّ منه أجرًا عاجلاً غيرَ ممنون

كما أنه كان يفتى ويجب على المسائل الفقهية نثراً ونظمًا، فمن ذلك قوله مجياً بعض الأصحاب (90):

نَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ يَا خَبِيرُ  
يَا مَنْ لَهُ فِي مَلْكِهِ التَّدْبِيرُ  
أَبْدًا نَظَمَيْ هَا هُنَا مُجِيبًا  
خَلَّا صَفِيًّا طَالِبًا نَجِيبًا  
فِيمَا غَدَا بِالنَّظَمِ عَنْهُ سَائِلِي  
إِذْ ذَاكَ لِلْوَدُّ مِنَ الْوَسَائِلِ  
وَذَاكَ قَسْمٌ قُلِلٌ ثَمَانٌ  
مِنْ زَيْتِ زَيْتُونٍ مَدَى الزَّمَانِ  
بَيْنَ شَرِيكَيْنِ عَلَى الْمَعْرُوفِ  
بِمَا لَدَيْهِمَا مِنَ الظَّرُوفِ  
وَهِيَ ثَلَاثَةُ كَبِيرُهَا اجْتَمَعَ  
فِيهِ جَمِيعُهُ وَذَاكَ مَا يَسْعُ  
وَسَعُ الثَّانِي ثَلَاثًا عَدْدًا  
وَالثَّالِثُ اثْتَتِينِ لَيْسَ زَائِدًا  
وَقَسْمُهُ عَلَى السَّوَاءِ دَانِ  
وَفِيهِ لِلْقَاسِمِ صُورَتَانِ  
إِحْدَاهُمَا تَعْلَمُ دُونَ مَيْنِ  
بِمَلْئِنَا الصَّغِيرَ مَرَّتَتِينِ  
وَالصُّورَةُ الْأُخْرَى بِمَلْءِ الْأَوْسِطِ  
ثُمَّ بِمَلْءِ أَصْغِرِ مِنْهُ أَضْبَطِ  
وَرَدَّ مَا يَبْقَى إِلَى الْكَبِيرِ  
ثُمَّ لِلْأَوْسِطِ مِنَ الصَّغِيرِ

وَامْلَأَ الصَّغِيرَ بَعْدَهُ وَهَذِي  
 تَعُودُ لِلْأَوَّلِيْ بِلَا اِنْتِبَادٍ  
 وَصُورَةُ ثَالِثَةُ فِي الْقَسْمِ  
 ظَاهِرَةٌ يَعْلَمُهَا ذُو الْفَهْمِ  
 تَرَكْتُهَا لِعَوْدِهَا لِمَا مَضَى  
 فَأَفْهَمْهُ حَبَّاكَ اللَّهُ مِنْهُ بِالرَّضْسِ  
 فِي أَخِي هَذَا جَوَابِي عَمَّا  
 سَأَلْتَ عَنْهُ لَا عَدِمْتَ نُعْمَى  
 وَاللَّهُ يُبَقِّيْكَ خَلِيْ الْبَالِ  
 مِنْ مَضَضِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَالِ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَيْهِ الْخَلْقِ  
 عَلَى الْهِدَايَةِ لِدِينِ الْحَقِّ

ومهما يكن الأمر فإنَّ مستوى شاعرنا في الكتابة والتوثيق كان فوق مستوى بعض المؤثرين في بسطة وغيرها يومئذ ، وبين أيدينا صور من عقودهم، بل إن شاعرنا الفقيه كان يسرخ من جهل بعضهم وعجزهم، ويبدو أن هذا الصنف من العدول هم الذين تحزبوا ضده وكادوا له حتى آخر عن التوثيق كما تسببوا قبل ذلك بالاستحواذ على حقه في الأحباس كما يقول شاكياً في صدر رسالة كتبها إلى بعضهم (93) :

إِلَى اللَّهِ نَشْكُو مَا نَلَاقِي مِنَ الْأَذَى  
 فَمِنْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَلْتَمِسُ الضَّرَّا  
 فَقَدْ أَفْرَطُوا فِي ظَلْمِنَا وَاهْتَضَانِنَا  
 وَجَاءُوا بِأَمْرٍ لَا نُطِيقُ لَهُ صَبْرًا  
 قَرَأْنَا وَبِالتَّوْثِيقِ رُمْنَا مَعِيشَةً  
 فَقَدْ عَطَلُوا التَّوْثِيقَ وَاطَّرَحُوا الإِقْرَا

وَمِنْ قَبْلٍ فِي الْأَحْبَاسِ وَاجْبَنا حَوْرَا  
 لِيُسْتَجْلِبُوا قَصْدًا بِذَاكَ لَنَا الضَّرَا  
 وَمَا عَذْرُهُمْ إِلَّا تَحْقَقَ فَضْلِنَا  
 وَأَنَّهُمْ حَسَدُنَا إِنْ جَلَوْا عُذْرَا

وللشاعر قصيدة نظمها عند إحراق حانوته في بسطة ظلماً وعدواناً  
 وذلك بتحريض من خصومه ذكرنا طرفاً منها فيما سبق وقصيدة أخرى طويلة  
 في تعطيل التوثيق ببساطة، وهو يشير في هذه القصيدة على الخصوص إلى  
 فقيهين كانوا وراء هذا التعطيل (94) :

إِلَّا فَقِيهَيْنِ لَا كَانَا وَلَا وُجِدُوا  
 فِي النَّاسِ لَمْ يَجِدَا مِثْلَ الذِّي وَجَدُوا

سُرَا لِمِصْرِهِمَا بَعْدَ الظَّهُورِ بِمَا  
 لِمِصْرِهِ فِي الْوَرَى لَمْ يَرْضَهُ أَحَدُ  
 سُرَا لَهُ وَهُوَ فِي الْبَلَدَانِ نَخْبِتُهَا  
 بِأَنْ يُرَى ضُحْكَةً مَا مِثْلُهُ بَلَدُ  
 سُرَا لَهُ بَعْدَ مَا التَّوْثِيقَ رَزَّيْنَاهُ  
 بِأَنْ يُعَظَّلَ مِنْهُ الْهَدْيُ وَالرَّشَدُ

ونحسب أنه يقصد نفسه حين يقول :  
 زَكَى الْعَدْلُ الْعَدْلَ فِي بَسْطَةٍ  
 لَكِنْ سَوْى الْعَدْلِ بِهَا جَرَحَةٌ  
 فَأَمْضِي الْحَكْمَ بِتَجْرِيْحِهِ  
 رَغْمًا عَلَى أَنْفِنَا مِنْ اسْتِقْبَاحَةِ  
 فَاعْجَبْ لِحَكْمٍ باطِلٍ قَدْ مَضَى  
 بِهَا وَقَاضٍ بِالْهَوَى صَحَّةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلَهُ وَسَلَّمَ  
 بِأَعْلَمِ أَسْرَارِهِ بِأَعْلَمِ حِجَاجِ يَوْمِ سَعْيِ الْتَّافِينَ سَمِّيَ الْأَسْرَارُ  
 أَبْكِيَ حِجَاجاً حِدَانِفَ بَلِيلَانِي مِنْ أَمْمَةِ الْأَنْبَايَةِ أَمْ الْعَبْدُونَ  
 الْأَنْسَيْنَ كَمَا لَسَانَمُ الْأَنْسَيْنَ الْأَنْجَوْدَانِ الْأَنْجَوْدَانِ  
 الْأَعْلَقِ الْأَعْلَقِ مَعْلُومَهُ مَبْدُوكَ عَلَيْهِ حَكَارَجَ نَسْكَةَ حَلِيَّهَا اللَّهُ أَعْلَمُ  
 لِلْجَاهِ رَحِيبُهُ فَرْفَهُ وَحْرَمُهُ وَمَرْخَلَهُ وَخَرْجَهُ وَ  
 مَنَابِعُهُ وَمَرَاقِفُهُ بِيَعَايَاتِهِ بَشَرَقَهُ مَلَاتِحَهُ بَلَمَّا  
 مَنَّ الْعَيْنَةَ الْعَيْنَةَ الْعَيْنَةَ فَبَغَارَيَهُ مَيْمَنَهُ الْبَرَكَهُ مَنْزِعُهُ  
 بَلَهُ بَلَهُ مَنَّ الْبَرَكَهُ مَنَّ الْبَرَكَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ  
 الْمَعْرُوفُ الْمَسْمُ تَرْمِيدُهُ لَعِيَهُ بَلَهُ بَلَهُ الْمَسْمُ مَهَايَهُ لَهُ فَنَاهَهُ  
 بَلَهُ بَلَهُ صَفَقَهُ وَعَدَهُ بَلَهُ بَلَهُ خَلَمُهُ كَحْلَمُهُ مَامُهُ حَلَوْهُ  
 بَلَهُ بَلَهُ وَحْلَتَهُ بَلَهُ بَلَهُ الْكَرَحَلُ الْأَسْنَهُ دَارِجُهُ مَالَرَهُ لَهُ  
 بَلَهُ بَلَهُ عَوْهُهُ دَهَمَهُ بَلَهُ بَلَهُ حَجَرَهُ بَلَهُ بَلَهُ الْمَادُ سَوْدَهُ لَهُ  
 شَوَّالُهُ عَامُهُ لَيْلَهُ شَيْرَهُ بَلَهُ بَلَهُ مَانَهُ وَسَعْيَهُ  
 دَعْلُهُ لَحْرَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ لَهَيَهُ بَلَهُ بَلَهُ كَلَمَنُهُ لَهَيَهُ

صورة عقد بيع مؤرخ في 888 هـ لعدلين من بسطة عن كتاب وثائق عربية  
 غرناطية: 91-90

ولا نعرف ما هي الجرحة التي اتتهم بها كذباً وبهتاناً وبغياً وحسداً كما يقول (95):

### وأصل ذاك على التحقيق سببه - فيما فشا عنهم واستحكم - الحسد

وفي نهاية المطاف قنع صاحبنا بالإمامية والخطابة، وقد زوحم عليهم من صنفه وأهل طبقته كما رأينا مما سبق، ورثى كثيراً لحال المساجد وإهمالها وشكراً من تأخير مرتبات أئمتها والقائمين عليها كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

إن هناك سبباً عاماً يمكن أن نرجع إليه شكاوى الشاعر زيادة على ما ذكرناه ألا وهو كثرة صنف العدول والأئمة وما يكون بينهم في العادة من تنافس وتزاحم على المناصب في مدينة صغيرة كبسطة مع ظروف هذا البلد الذي كان ثغراً على حدود مملكة غربناطة مهدداً بالسقوط في كل حين.

وقد أشار القلصادي، وهو معاصر القيسي وبليديه إلى كثرة أهل الطلب والعلم وتنافسهم على المناصب في بسطة والقرى المجاورة لها فقال: «وكان هذا وقت كانت بسطة وسوق العلم فيها قائمة، وكذلك كانت الحصون التي يبسّطها، الغالب على أئمتها أن يكونوا من أهل العلم، وقد كان يقع التنازع بين أهل الموضع فيمن يكون الإمام منهم، وقد أدركت من ذلك وشاهدته في حصن شوجر وقنالش . . . وأما الآن (851هـ):

فقد هَرَّلْتُ حتى بدا من هَزَالِهَا  
كلاها وحْتَى سامَها كُلُّ مفلس<sup>(6)</sup>»

وإشارة القلصادي إلى ما أصبحت عليه الحال في بسطة والتي أوجزها بإنشاد البيت المذكور سنجدها مبسوطة في شعر القيسي الذي يتقد في بعض القضاة والعدول والأئمة والمقرئين في الفترة التي أشار إليها القلصادي.

ولعلّ من أسباب محنّة الشاعر هذه تلك الأزمات الإدارية والمالية المتعاقبة بتعاقب الدول وتتابع الفتن، وقد لا تستبعد الأسباب السياسية نظراً لمواقوف الشاعر وآرائه الجريئة التي سنشرحها فيما بعد.

ومهما يكن الأمر فقد كان لما لقيه فقيهنا الشاعر من أهل بلده على العموم ومن الصنف الذي ينتهي إليه على الخصوص انعكاس على شخصيته ونفسيته، وبعد أن كان في شبابه يتغنى ببساطة أصبح يذمها ويذم أهلها كما رأينا فيما سبق، وبعد أن كان اجتماعياً يكثر من مخالطة الناس واتخاذ الأخوان ومكاتبهم والوفاء بحقوقهم صار في آخر حياته - بعد أن ناله الأذى من بعضهم - يدعو إلى العزلة والحذر من الأصدقاء، وله بيتان طريفان صور فيها حاله مع الأصدقاء وهم قوله (93) :

حَصَلَتْ مِنِ الْإِخْوَانِ إِخْوَانٌ جِيرَتِي  
بِسُطَّةٍ مِنْ عِلْمِ الْحِسَابِ عَلَى شَرْحٍ  
فِي الْجَمْعِ دَهْرًا لَمْ أَزِلْ مِنْ حُقُوقِهِمْ  
وَهُمْ دُونَ ذَنْبٍ مِنْ حَقْوَقِيِّ فِي الْطَّرْحِ

وَمَمَّا قَالَهُ فِي التَّحْفَظِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ (144) :  
إِنْ شَئْتَ مِنْ دُنْيَاكَ حَسَنَ تَخَلَّصَ  
لَا تَطْمَئِنَ إِلَى صَدِيقٍ مُخْلِصٍ  
وَإِذَا تَخَالَطَهُ [كَثِيرًا] عُدُّهُ  
فِي النَّاسِ كَالْمَجْدُومِ أَوْ كَالْأَبْرَصِ

وَالَّذِمْ سَكُوتَكَ عَنْهُ وَإِذَا افْتَضَى  
مِنْكَ الْكَلَامَ بِمَا اقْتَضَاهُ تَرْبَصَ  
وَانْظُرْ مَحَاسِنَهُ الَّتِي يَزْهُو بِهَا  
وَيَتَيَّهُ إِعْجَابًا بِعِينِ الْأَحْوَصِ

إِنَّ الصَّدِيقَ لِيُسْتَحِيلُ تَغْيِيرًا  
 فِي جِيَءٍ مِّنْ عُذْوَانِهِ بِمُلْحَصٍ  
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ سَرَّنِي بِتَعْظِيمٍ  
 لِمَا تَغْيِيرَ سَاعِنِي بِتَنْقُصٍ  
 فَوَدَدْتُ لَوْ أَنَّ الصَّدَاقَةَ لَمْ تَكُنْ  
 وَلَوْ أَنِّي أَحَدًا بِهَا لَمْ أَخْصُصْ  
 وَعَلَى الوفاءِ بِشَرْطِهَا لَمْ أَعْتِمْ  
 وَعَلَى القيامِ بِحَقِّهَا لَمْ أَحْرِصْ

وقال في المعنى نفسه (144) :

لَا تَلْتَفِتْ لِصَدِيقٍ سَرَّ ظَاهِرُهُ  
 فَسُوءُ بَاطِنِهِ لَا شَكَّ يَعْكُسُهُ  
 وَاحْذِرْ تَوْهِمَهُ مِنْكَ الْوَدَادَ لَهُ  
 أَوْ أَنْ يَشَاهِدَ يَوْمًا مِنْكَ يَوْنِسُهُ  
 وَذَاكَ تُدْرِكُهُ بِالْقُرْبِ تَقْطَعُهُ  
 عَنْهُ كَمَا مِنْهُ بِالْإِبَاعِدِ تُؤْسِهُ  
 فَالْأَصْلُ يُغْرِسُ قَرْبَ الْأَصْلِ تُبَصِّرُهُ  
 يَكُونُ دُونَ الذِّي بِالْبُعْدِ تَغْرِسُهُ

وقد شكا من جحود الأصدقاء وتأسف على الغبن والانخداع فيهم : (145)

وَدِدْتُ أَنَاسًا لَمْ يَرَاعُوا الْوَدَادَ لِي  
 وَمَا سَمَّتُهُمْ بِالسُّوءِ حَبَّةً خَرْدَلَ

وَعَابُوا وِفَاءَ الْعَهْدِ مِنِي لَوْدَهُمْ  
عَلَى مُقْتَضِي طَبْعِي وِفَاءَ السَّمْوَالِ

وقال (135) :

أَسْفًا لِصِدْقِي فِي هَوَى  
مَنْ فِي هَوَى جَهَلَ صِدْقَهُ  
وَبِذَلِّهِ مَخْضُ اللَّوْدَا  
دِ وَكَانَ مِنْهُ الْبَلْلُ مَذَقَهُ  
إِذْ مَذْهَبِي مَذْ كَنْتُ مَنْ  
لَمْ يَرْعَنِي لَمْ أَرْعَ حَقَّهُ

وفي معنى البيت الأخير يقول في موضع آخر: (139) :

أَرَعَ السُّوْدَادَ لِمَنْ رَعَى لَكَ وُدُّهُ  
وَلَتَجْزِهِ مِنْهُ بِمَا هُوَ جَازِ

وَيَقُولُ أَيْضًا (138 - 139) :  
إِذَا الْمَرْءُ أَكْرَمْتَهُ دَائِمًا  
وَقَابِلَ ذَلِكَ مِنْكَ بَعْكِسَةً  
فَدَعْهُ وَمَا اخْتَارَ مِنْ فَعْلِهِ  
فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى خُبُثِ نَفْسِهِ

وَقَالَ فِي الْمَعْنَى نَفْسَهُ (149) :  
صَافِ الصَّدِيقِ وَكَنْ مِنْهُ عَلَى حَذِيرِ  
وَعَدَهُ مِثْلُ مَا قَدْ عَفْتَ مِنْ قَدَرِ  
أَقْلَلْ [كَلَامَكَ] لَا تُكْثِرْ بَحَضْرَتِهِ  
وَصَمَّ سَمَعَكَ عَمَّا قَالَ مِنْ هَذِ

إِنَّ الصَّدِيقَ إِذَا أَبْدَى تَغْيِيرَه  
لَمْ يُقِنْ مَمَّا بِهِ يَأْتِي وَلَمْ يَذْرِ

وَقَالَ فِي بَعْضِهِمْ (74) :

وُجُومُ وَجْهِكَ إِنَّ الْقَالَكَ يُخْبِرُنِي  
عَمَّا بِقْلَبِكَ مِنْ حَقْدٍ وَمِنْ حَسَدٍ  
سَرَائِرُ الْقَلْبِ وَجْهُ الْمَرءِ يُظْهِرُهَا  
إِلَى الْوُجُودِ فَلَا تَخْفِي عَلَى أَحَدٍ

وله أبيات قالها مرغباً في العزلة كقوله (79) :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبَغْيَ فِي النَّاسِ ظَاهِرًا  
وَلَمْ أَرَ مِنْهُمْ جَانِحًا لِمَتَابٍ  
وَكُنْتُ خَصَصْتُ الْبَعْضَ مِنْهُمْ بِخُلْلَةٍ  
عَتَبْتُ عَلَيْهَا النَّفْسَ أَيِّ عِتَابٍ  
رَغَبْتُ بِنَفْسِي عَنْ مَرَاعِيَهُ وَدَهْمٍ  
وَأَصْبَحْتُ عَنْهُمْ أَمَّةً بِكِتابٍ

وقوله (75) :

وَاللَّهِ مَا يَصِلُّ الْفَتَنَى  
فِي ذَا الزَّمَانِ إِلَى مُرَادِهِ  
إِلَّا إِذَا تَرَكَ الْوَرَى  
طُرَازًا وَآنَسَ بِانْفَرَادِهِ

وما نحسب الشاعر الفقيه نظم في هذه المعاني بمحض من الأدبيات  
المعروفة في الصداقة والصديق، ولكنَّه قال ما قال بعد محنَّة شديدة وعن

تجربة مريءة أو علم بالناس كما يقول (101):

إذا أحببْتُ أو أبغضْتُ شخصاً  
فَعَنْ عِلْمٍ بِهِ حَبَّيْ وَبِغُضْنِي  
عَلَى أَنِّي حَقِيرَ الْقَوْمَ أَرْعَى  
وَأَنِّي عَنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ أَغْضَنِي

على أن ديوانه حافل بالإخوانيات وما يتصل بها من معانٍ حفظ  
الوداد ورعاية الوفاء، وكان في شبابه يذكر عهْد الدراسة وصحبة الرفقاء كما  
رأينا من نماذج سابقة، وكان يتغنى بمجامع الأصحاب وأيام الأنس كقوله  
(71):

رَعَى اللَّهُ يَوْمًا طَالَ عَهْدُ بِمثِلِهِ  
وعهدي ب أيام السرور طويلاً  
سقانا كؤوسَ الأنس في فحصِ بسطةٍ  
إلى أن دنا منه وحان رحيلُ  
وما بعْضُنا للبعض عند اعتبارنا  
لصدق الهوى إلا أخ وخليلٌ

وقوله في وصف نزهة أخرى بحمة صالححة (149):  
لِلَّهِ لِيَلْتَنَا بِحَمَّةِ صَالِحَةٍ  
والنَّفْسُ فِيهَا بِالتَّنَعُّمِ فَارَحَةٌ  
بِنْتَنَا بِهَا فِي فِتْيَةٍ مِنْ حُسْنِهِمْ  
في روْضَةٍ مِنَ الْلَّوَاحِظِ سَارَحَةٌ

أنا مدفُّعٌ مِنْ عهْدِهَا مُضْنِي الحشا  
عَانِ أشْبَهُ لِي لِتِي بِالْبَارَحَةِ

وقال يذكر ليلة فرح وأنس اجتمع فيها شمل الأحباب (62) :  
 ماذا جَنَّيْتِ عَلَى قُلْبِي مِنَ التَّرَحِ  
 وَمِنْ عُمُومِ الْهُوَى يَا لَيْلَةَ الْفَرَحِ  
 حِينَ اغْتَدَى الشَّمْلُ بِالْأَحَبَابِ مُجْتَمِعًا  
 وَالْأَنْسُ مَنَا قَرِيبًا غَيْرُ مُتَّسِرِّحٍ  
 وَقَدْ شَرِبْنَا شَمْوَلًا هَيَّجَتْ شَغْفًا  
 مِنْ خَمْرَةِ الْوَصْلِ لَا مِنْ خَمْرَةِ الْقَدْحِ  
 عَلَى بِسَاطٍ بَسْطَنَاهُ لِكُلِّ مُنْتَهٍ  
 مَحْبُوبَةٌ وَهُوَى لِلنَّفْسِ مُقْتَرَحٌ  
 وَمُنْشِدُ الشَّعْرِ يُغْرِيْنَا بِنَغْمَتِهِ  
 إِذَا شَدَا بِسْرِيعٍ أَوْ بِمُنْسَرِحٍ

وتتجدر الإشارة إلى جانب مهم في علاقتنا بـشاعرنا بإخوانه وأصدقائه،  
 لا وهو حرصه على مكاتبهم ومخاطبتهم ومعاتبتهم إذا تأخر واعن مكاتبته،  
 ونلاحظ أن عدداً من قصائده ومقطوعاته خاطب فيها أصدقاءه أو صدر بها  
 رسائله وكتبه إليهم، ولعل هذه - لو حفظت - كانت تفيد في إلقاء مزيد من  
 الضوء على حياته.

ونريد أن نطرح في آخر هذا الفصل جملة أسئلة وهي : لماذا لم  
 يرحل الشاعر من بلده بسطة إلى العاصمة غرناطة كما فعل القلصادي بعد  
 رجوعه من رحلته المشرقية، وكما فعل جاره أحمد الوادي آشي وأبوه  
 وغيرهما من الأعلام الذين كانت تجتذبهم الحضرة ودار الملك؟ ولماذا  
 كانت محاولاته في الخروج من بسطة تقتصر على الاتجاه إلى جهات أخرى

كبرجة وبرشانة والمرية ومقالقة؟ فهل كانت أدواته العلمية والأدبية تقعد به عن مزاومة قُصاد غرناطة أم ثمة أسباب أخرى؟

طرح هذه الأسئلة لأننا لم نجد في ديوانه ما يشعر بأي وجود له في غرناطة، وهو أمر غريب حقاً، ونحسب أنه من أسباب حمول ذكره وعدم اشتهراره، وإنما في فقهه وأدبه لم يكن دون عذرٍ ممَّن ذكرتهم كتب التراجم من أهل زمانه.

وقد وجده في بعض شعره يتلمس إلى الحج ويحن إلى الديار المقدسة، ويحلم بذلك قال: «رأيت في المنام، كأنني دخلت المسجد الحرام. فقلت من غير رؤية (93):

يَا بُقْعَةَ شَرَفِهَا اللَّهُ  
مَاذَا بِحُبَّيِ فِيكِ الْقَاهُ  
بِالْقُرْبِ مِنْ مَغْنَاكِ يَبْغِي الشَّفَا  
مُتَّيَّمُ الْقُلْبِ بِشَكْوَاهِ»

فلماذا يا ترى لم يحج أو يرحل إلى المشرق أو المغرب شأن كثير من الأعلام يومئذ، أم أن شروط الاستطاعة والرحلة لم تكن متوفرة لديه؟. مهما يكن الأمر في هذا كله فإن القرائن تدل على أنه ظل مقيناً في بسطة إلى أن وفاه الأجل المحتوم في تاريخ لا نستطيع تحديده.

## الحواشي

- (1) توجد نازلة في المعيار تتطبق على ما يذكره الشاعر هنا وهي: «وَسْلَلُ الْقَاضِيِّ أَبُو عُمَرٍ وَابْنِ مَظْوِرٍ عَنْ إِمامٍ مسجداً وَأَصْبَفَ لِذَلِكَ الْمَسْجِدِ الْمَذْكُورَ مَحْضَرَةً يَقْرِئُ فِيهَا الْأَوْلَادَ، وَصَدَرَ أَمْرٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِدِرْهَمَيْنِ فِي الْيَوْمِ لِيَتَقْوِيَ رَاتِبَ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَافْتَحْتَ فَوقُهَا مَحْضَرَةً ثَانِيَّةً فَتَرَقَتِ الْأَوْلَادُ وَنَفَرَتِ أَفْيَجُوزَ لَهُ أَنْ يَوَاجِرَ عَلَى وَلَدِينِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَوْ أَقْلَلَ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ يَتَرَكُهَا؟ فَأَجَابَ: يَجُوزُ لِإِلَامٍ أَنْ يَقْرِئَ فِي مَحْضَرِهِ يَقْرِئُ كِتَابَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَقْرِئْ إِلَّا وَاحِدًا أَوْ أَثَنَانَ وَيَأْخُذَ مِنْ عَيْنِهِ لِهِ السُّلْطَانُ، فَهَذَا جَوَابٌ مَا سَئَلَ عَنْهُ بِمَحْولِهِ» المعيار 7: 156 وما يؤكد هذا الافتراض التوافق في المبلغ وإشارة الشاعر إلى أمر السلطان.
- (1م) كذلك في الأصل، ولعلها الأحرش شهرة شخص.
- (2) الخراجة: ربما يقصد بها بوابة صغيرة أو مسرأياً للماء.
- (3) انظر قصيدة ابن الأزرق في نفح الطيب، وكذلك قصيدة العربي.
- (3م) قول البسطوي يشبه قول أبي الحسن الفالي الذي اضطر إلى بيع نسخة من كتاب الجمهرة بخط مؤلفها:

وَقَدْ طَالَ بِي وَجْدِي بِهَا وَحْنِبِي  
وَلَئِنْ خَلَدْتِي فِي النَّجْوِنِ دِيْنِي  
صَغَارٌ عَلَيْهِمْ تَسْهَلَ شُونِي  
مَقَالَةً مَكْوَى الْفَوَادَ حَزِينِ:  
كَرَائِمٌ مِنْ رَبِّ بَهْنَ ضَبِينِ

أَنْسَتُ بِهَا عَشْرِينَ عَاماً وَبَعْتُهَا  
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنِّي سَأَبْيَعُهَا  
وَلَكِنْ لِعَجْزٍ وَفَتَقَارٍ وَصِنْبَةٍ  
فَقَلَّتْ وَلَمْ أَمِلْكْ سَوَابِقَ عَبْرَةً  
وَقَدْ تُخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أَمَّ مَالِكَ  
وَقُولُ الْحَدَادِ الْمَهْدُوِيِّ:

كَالشَّمْسِ مِنْ تَحْتِ الْقِبَانِ  
خِرْ مَا يَبْاعُ مِنْ الْمَتَانِ  
كَبَدِي وَهَمَتْ بَانِصِدَانِ  
لَا تَعْجِبِي مَا رَأَيْتَ

قَالَتْ وَأَبَدَتْ صَفَحةً  
بَعْتَ الدَّفَاتِرَ وَهِيَ آ  
فَاجْبَثَتْهَا وَيَدِي عَلَى  
لَا تَعْجِبِي مَا رَأَيْتَ

- (4) من فقهاء هذا العصر ومتهم. ترجمته في نيل الاتهام: 324 وشجرة النور الزكية: 262.
- (5) القشتال كلمة عجمية معناها الحصن أو برج الحراسة والمراقبة.

(6) رحلة القلصادي : 91 - 92.

(7) حمة صالحة من الحمّات التي كانت تقصد للتزهّة والاستجمام والاستشفاء وكان بها حصن وقد استولى عليها النصارى في شهر رمضان من عام 890هـ. انظر أخبار العصر: 382 في ذيل آخر بني سراج وانظر كذلك في حمة صالحة «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب» 93 والمعيار 7: 94.

## صلاته بمعاصريه

مما يلفت النظر أن شاعرنا البسطي - الذي لم نعثر على ذكره أو شعره في المصادر الموجودة - لم يكن نكرة في عصره أو مجهولاً بين أعلام وقته في الأندلس، والدليل على هذا ديوان شعره، فهو حافل بأسماء الأعلام الذين عرفهم في مختلف أطوار حياته، ومنهم بعض شيوخه، ورفاقه زمن الطلب والدراسة، ومعاصريه من القادة والقضاة والأئمة والعدول وأهل الأدب، وجّل الذين ساهموا في ديوان شعره لهم ذكر أو إشارة في كتب التراجم والتاريخ، وإنّ من شأن هذا كله أن يعواضنا في الجملة عن فقدان ترجمته، ويعرفنا بظروف عصره، ويحدّد لنا بعض التواريف من حياته.

ومع أنه قضى معظم عمره في بسطة ولم يخرج منها إلا قليلاً كما يبدو من ديوانه فقد كانت له صلات كثيرة بأهل عصره في بلده بسطة وجارتها وادي آش وغرناطة وبرجة وبرشانة والمرية والمنكب وغيرها.

ويرد ذكر الأعلام في الديوان في معرض مخاطبة الشاعر إياهم بشعره

في مختلف الأغراض والمناسبات؛ ومن هنا يمكن عد ديوان البسطي في المصادر التاريخية واعتبار شعره شعراً وثائقياً.

- إن أول الأعلام الذين نصادفهم في ديوان البسطي هو «الشيخ الأستاذ أبو عبد الله البياني» وللشاعر في مدحه ومخاطبته في أغراض مختلفة نحو اثنى عشرة قصيدة ومقطوعة، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ورأينا أنها تعرف به أكثر من ترجماته القصيرة في رحلة القلصادي والضوء اللامع ونيل الابتهاج، كما رأينا من خلال بعضها تطور العلاقة بين الرجلين، بعد أن حُبس عن الشاعر الفقيه مرتبه من قبل البياني ناظر الأحباس، (والغالب أنه هو نفسه شيخ الشاعر وممدوحه).

وفيه - على ما يبدو - يقول مشيراً إلى سبب ذلك التطور من مدحه إلى الشكوى منه (76) :

أَصْبَحَ الْأَسْتَاذُ عَنِي مَعْرِضاً  
وَغَدَا بَاطِنَهُ لِي قَدْ فَسَدْ  
فَأَطْلَتُ الْبَحْثَ عَنْ مَوْجِبِ ذَا  
كَفَلْمَ أَفْلَى لَهُ غَيْرُ الْحَسْدُ  
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًاً (76) :

أَيَّهَا الْمُعْرِضُ عَنِي مَا الَّذِي  
جَئْتُ حَتَّى صَرَتْ عَنِي مَعْرِضاً  
لَسْتُ ذِمِيًّا وَلَا مُبْتَدِعًا  
فَلِمَادِيَا أَيَّهَا الْعَدْلُ الرَّضِيُّ

ولعله أعلن ندمه على ما مدحه به قدماً في قوله (76) :

أَقْبِلُونِي فَقَدْ أَخْطَأْتُ فِيمَا  
مَدْحُوكُمْ بِهِ خِطْأً كَبِيرًا

وَإِنْ مِلْتُمْ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنِي  
فِي الْإِعْرَاضِ تُلْفُونِي خَبِيرًا

وفي قوله (76) :

جُرْتَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِي  
أَيَّهَا الشِّيخُ الْذَّمِيمُ  
بَعْدَ مَدْحِي لَكَ جُهْدِي  
إِنَّكَ الْخَبَّ الْكَيْمُ

- وإذا سرنا في ترتيب الاعلام على حسب ورودهم في الديوان فسنجد - بعد البيانى المذكور - «الوزير الحاجب أبا إسحاق إبراهيم بن عبد البر»، وأخباره مذكورة في المصادر المسيحية<sup>(1)</sup>، إذ كان رجل الدولة في عهد أبي عبد الله محمد بن نصر الملقب بالأيسر حيث سفر له لدى ملك قشتالة، وقاد الجيش في عدد من الوقائع، ودبر أمور الدولة، وكانت له مواقف معروفة .

وفي ديوان البسطي قصيدة في مدحه «أيام ولايته بسطة» وقطعة جعلها صدر رسالة كتب بها إليه، أما قصيدة المدح فيفهم من مطلعها أنها أنشئت في مناسبة عيد (20) :

بِشَائِرٍ هَذَا العِيدِ بِالْعَوْدِ تُفْصَحُ  
لِتَدْبِيرِ أَمْرِ الْمَلَكِ إِذْ بَكَ يَضْلُحُ

ومطلع يشير إلى الأمل في عودة الوزير الحاجب إلى تدبير أمر الملك في غرناطة، والظاهر أن القصيدة قيلت بعد خروجه من غرناطة، ويمكن أن يكون ذلك بعد خلع الأيسر سنة 1445م، وفي آخر القصيدة إشارة إلى شيء من ظروف إبعاده عن غرناطة وولايته بسطة :

وَلَكَنَ لِلَّا يَامِ شِيمَةَ غَادِرٍ  
إِذَا حَسَنْتَ حَالًا تَعُودُ تُقْبَحُ

فَغَارْتُ عَلَيْهِ لَا لِنَفْسٍ وَوَصْمَةٌ  
وَلِكُنْ طَبَاعُ لِيْسَ عَنْهُنَّ تَبَرَّحُ

إن هذه القصيدة تؤكد ما جاء في المصادر المسيحية التي تشيد  
بشجاعة الرجل ودهائه وحسن سياساته وتدبريه:

وَمَنْ كَابِنْ عَبْدِ الْبَرِّ رَبِّ فَضَائِلٍ  
بِهَا الدَّهْرُ يُزْهِى وَالظَّرُوسُ تُوشَحُ  
وَزِيرُ أَمِيرٍ شَدَّ بِالْمُلْكِ أَزْرَهِ  
وَحَاجِبُ سُلْطَانٍ لِهِ الْحَجْبُ يَجْنَحُ

وقد أفضى عليه الكثير من صفات الكمال وقال إنه جمع فضائل شتى  
 بكل اللسان عن وصفها، ونقبس من القصيدة قول الشاعر وقد يكون فيه  
 شيء من الصدق:

يَمِينًا لَمَا أَبْقَى الْجَزِيرَةَ غَيْرُهُ  
يُقَدِّسُ فِي أَرْجَائِهَا وَيُسَبِّحُ  
بِحَفْظٍ وَلَحْظٍ وَاحْتِيَاطٍ وَعِزْمَةٍ  
تَطْبِيْلُ لَنَا أَخْبَارُهَا حِينَ تُشَرَّح

وتذكر المصادر المسيحية أنه قاد الجيش مراراً قبل توليه الوزارة وفي  
أثنائها، وهذا ما يؤيده قول الشاعر:

فَسَلْ عَنْ جُمُوعٍ لِلْعِدَى قَدْ أَبَادَهَا  
تَجْدُ مُخْبِرًا فِي كُلِّ قُطْرٍ يُصَرَّحُ  
عِظَامُ وَأَشْلَاءُ وَهَامُ كَرِيهَةٌ  
لَهَا الْأَرْضُ مَرْمَى لَا تَرَالُ وَمَطْرَحٌ  
يَضْيقُ بِمَا مِنْهَا أَتَيْحَ لَهُ الْفَضَّا  
فَتَمَلَّأُهُ أَنْوَاعُهَا وَهُوَ أَفِيْحُ

فلله عينا مَنْ رآه لَدَى الْوَغْيِ  
 يُجَدِّلُ أَبْطَالَ الْأَعْادِي وَيَجْرِحُ  
 عَلَى ظَهِيرِ مَرْكُوبٍ يُبَارِي إِذَا جَرَى  
 لِخَفْتِهِ رِيحُ الصَّبَا حِينَ تَنْفَحُ  
 رَعَتْ عَيْنُهُ الْإِسْلَامَ وَاللَّهُ عَالِمٌ  
 لِيَحْفَظُهُ يَوْمَ السَّرَّائِرِ تُفَضَّحُ

وفي الديوان قطعة مهد لها الشاعر بما يلي : «وقلت أيضاً مخاطباً ابن عبد البر وصدرت بذلك رسالة كتبت بها إليه»: وهو يعرب فيها عن شوقه إليه وجهه له (67):

وَحْبُّ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْذُ غَرَسْتُهُ  
 بِقَلْبِي جَنِيتُ الْجَاهَ وَالْعَزَّ مِنْ غَرْسِي

ونحسب أنه ابن عبد البر الوزير، وقد يكون الشاعر قال هذه القطعة بعد رجوع المذكور إلى الوزارة في غرناطة إثر مبايعة مخدومه السلطان الأيسر من جديد سنة 1448م .

وقد تحدثت المصادر القشتالية عن نهاية هذا الوزير المفجعة في غرناطة بعد هزيمته المنكرة في كائنة لورقة التي يسميها المسيحيون Al Porchones ووقعت يوم الجمعة 25 صفر سنة 856هـ (17 مارس 1452) واستشهد فيها خيرة المجاهدين من المغاربة وغيرهم، وقد رثاهم شاعرنا بتخميس مؤثر سنذكره فيما بعد .

ولسنا نعرف هل ثمة دلالة سياسية في مدح الشاعر هذا القائد الوزير الذي ينتمي إلى عائلة غرناطية كان لها - طوال قرن ونصف تقريباً - دور سياسي بارز، فقد كان جده أبو إسحاق إبراهيم بن فرج ابن عبد البر وزيرًا ليوسف الأول، كما أن ولد هذا القائد خدم دولة محمد الأخير (بوعبدل)، ويذكر المؤرخون القشتاليون أن إبراهيم ابن عبد البر كان زعيم حزب بني

سراج أصحاب الأدوار المعروفة في آخر العهد النصري.

- وبعد إعدام إبراهيم ابن عبد البر في السنة المذكورة أُسند الأيسر مقاليد حكومته إلى أبي يحيى محمد بن عاصم ولد القاضي المشهور ابن عاصم صاحب التحفة وغيرها من المؤلفات، وهو العلم الثالث الذي نجده حين نتصفح الديوان بالترتيب، وهذا نص ما فيه (22):

«وقلت مخاطباً بعض الأصحاب ومادحاً الشيخ الرئيس الكبير أبا يحيى ابن عاصم» ويدو من التحلية أن القصيدة قيلت بعد توليه الوزارة أي بعد سنة 856هـ وترجمة أبي يحيى الذي كان ينعت بابن الخطيب الثاني موجودة في نفح الطيب وأزهار الرياض ونيل الابتهاج وغيرها وأخباره مبثوثة في شرحه المخطوط على تحفة الحكام لوالده والمعيار للونشريسي ، وغيرهما، ومن مؤلفاته تقيد في التعريف بأهل بيته، وكتاب جنة الرضى، وكتاب الروض الأريض وغير ذلك، وذكر في ترجمته أنه «تولى اثنتي عشرة خطة في وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابة والخطابة والإمامية وغيرها»<sup>(2)</sup> وفي ترجمته أيضاً أنه «توفي على ما قيل ذبيحاً من جهة السلطان»<sup>(3)</sup>.

أما قصيدة البسطي فتألف من 30 بيتاً ومطلعها (22):

ما كنت أحسب أن الحسن يلعب بي  
حتى انجلَى كتبُكم للعينِ منْ كَبِ

وهو يخاطبُ بها بعض أصحابه المتصلين بالرئيس ابن عاصم - ولعله ابن الأزرق الشاعر لا الفقيه الذي له شعر في مدح الرئيس المذكور - ويدو أنه بعث قصيده من بسطة إلى صاحبه في غرناطة، وفي قسمها الأول وصف ومدح لكتابه صاحبه، وتذكر لزمن المعاشرة:

ذَكَرْتَني زَمْنًا قَضَيْتُ فِيهِ مُنْتَ

منْ قُرْبِكُمْ ذَكْرُهَا بِالْقَلْبِ لَمْ يَغْبِ

وأما القسم الثاني فأوله إشارة إلى رغبة الرئيس في شعر الشاعر

البسطي ليدرجه - على ما يظهر - في كتابه «الروض الأريض» الذي ذيل به  
«الإحاطة» لابن الخطيب، قال مخاطباً صاحبه المذكور

أشرتَ فيه إلى قصدِ الرئيسِ أبي  
يعينِ بن عاصِمَ أعلى السادةِ النُّجُبِ

وبعد هذا مدحٌ مسهبٌ للرئيس، وخاتمتها تشرح الموضوع  
وما أشار به من بعثٍ شعريٍ قدْ  
وافاهُ ما بينَ وحشىٍ ومخلبٍ  
ولو قدرتُ على درٌ أتيتُ به  
إلى حِمامٍ وما يممُ بالحصبِ  
لكن طاقةً مثلِي غيرُ خافيةٍ  
والذرُ نذرُه في خسَةِ الجَلَبِ  
وقد ترددتُ في إرساله خجلًا  
منه وعذرِي لدِيه واضحُ السببِ  
وقلتُ حاشاه حاشاه يشينُ به  
ديوانَ علمٍ أتى من أعجب العجبِ

وهذه القصيدة تؤكد أموراً أربعة سبقت الإشارة إلى بعضها، أولها أن الشاعر عاش في بلده بسطة لا في غرناطة، وثانيها أنه كان مشهوراً لدى معاصريه، ومعدوداً من شعراء وقته. وثالثتها أن له ترجمة في كتاب الروض الأريض لابن عاصم، ولا نعرف منه الآن إلا مقتبسات في نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما، ورابعتها تواضع الشاعر البسطي ورأيه الصريح في شعره وهو الرأي الذي عبر عنه في مقدمة ديوانه فقال: «إن شعري منحط عن الدرجة المتوسطة، ومع انحطاطه عنها فنفسي به مغتبطة، تكثر دائماً من إنشاد أبياته، وتتوثر استجلاء باهر أنوار إياته، وتردد على السمع رجاء النفع عجائب آياته، وترفع باليمين منشور رياته، كلها بمحاسنه الأدبية

وإعجاباً، وشغفاً بما تحمله للنفس من الارتياح والأنس وتوجبه إيجاباً.

ولشاعرنا قصيدة أخرى قالها أيضاً «مخاطباً الرئيس الوزير الحاجب أبي يحيى ابن عاصم المذكور من قبل» ومطلعها (62) :

أنت الدّواء إذا ما أعضل الداء  
ورام هضمي حساد وأعداء

وقد رفعها إليه من بسطة مستنصرًا به على خصومه في بلده، وقد أوردنا بعضها فيما سلف.

- أما الشخصية الرابعة في الديوان فهي شخصية «القاضي الرئيس أبي حامد ابن الحسن»، وللشاعر في مخاطبته ومخاطبة ولده أبي جعفر أحمد أكثر من عشرين قصيدة وقطعة، ويستفاد من شعر البسطي أن أبي حامد المذكور كان قاضياً في بسطة، وفي هذا يقول مخاطباً إياه (29) :

لما حللت بقطر بسطة قاضياً  
أضحت معالمه بعدلك مشرقةٌ  
وكسوته ثوب الفخار تفضلًا  
فملكَت مغربَه كملكَك مشرقةٌ

وتدلّ لهجة أشعاره فيه وفي ولده على نوع من الصلة الوثيقة بهما، فقد كانت بين الشاعر وبين الرجلين مجاويات شعرية، ويدلّ على ذلك قوله لما توصل بقطعة شعرية من أبي حامد (28) :

تنشقُ منها للوداد نواسِماً  
يفوقُ شذاها المسك خالطه النُّ  
يميناً لقد أعجزت قسًا بنظمها  
فليسَ له فخرٌ بنظم ولا وخدُّ

وعذرًا لمن رأى الجواب ففاته  
فجاء بنظمٍ ضعفه ماله حَدٌ

ولعل مما يدل على المداخلة ورفع الكلفة بينهما مخاطبته بهذه الآيات التي ذكر في عنوانها أن لها حكاية (34) :

مولاي إني أهوى مبيت نجلك عندي  
ورغبتي منك أن لا تخص بالردد قصدي  
لا زلت في خفض عيش ووصل عز بسُعد

ويبدو أن نجل القاضي هذا كان من أقران شاعرنا أو أكبر منه وله فيه تصائد ومقطعات «على سبيل التغزل فيه» ومنها قصيدة ضمن أوائل أبياتها حروف كنيته واسمها وما به يعرف أي أبو جعفر أحمد بن الحسن<sup>(4)</sup>.

وبعض هذا الغزل صريح، ومنه هذان البيتان (34) :  
أنت روحي وراحتي ثم راحي  
ومحياك في الدجى مضباحي  
إن صحا من شراب سحر هواكم  
من هواكم فإني غير صاح

وبعضه الآخر إعجاب بجماله وحُلو شمائله وباهر أدبه، كقوله من قصيدة مطلعها (32) :

أهلًا بيوم سرور رائق حسن  
نعمت فيه بظبي منبني الحسن  
ما شئت من أدب غض ومن حسب  
قد لزَ مع شهُب الأفلak في قرنِ  
الحفظ حيلته والفهم شيمته  
والفضل وصف له إن بان لم يَنِ

يستحضرُ الشَّعرَ عن طبعِ يَرْبَنِه  
 أقولُ إن دَامَ فِي الإِنْشادِ يَقْتَلُنِي  
 أذابَ روحِي بِمَا أَمْلأَهُ مِنْ أَدْبَرٍ  
 وَشَاهِدِي لِعَذْوَلِي صَفْرَةُ الْبَدْنِ  
 إِنِّي اخْتَبَرْتُ مَعَانِيهِ الَّتِي بَهَرَتْ  
 فَلَمْ أَجِدْ مَثَلَهُ فِي الْلَّبْ وَالْفِطْنَ  
 مَذْ إِلَهٌ لَهُ فِي الْعُمُرِ مَنْفَسِحًا  
 حَتَّى يَحُلَّ مَحْلَ الْجَدَّ ذِي الْمِنْ  
 وَيَجْتَنِي وَهُوَ فَذُ كُلُّ مَكْرُمَةٍ  
 تُقْرِئُ عَيْنَ أَبِيهِ فَاضِلُّ الزَّمَنِ

أريد أن استنتج من هذه الأبيات أن أبي جعفر أحمد بن الحسن هذا هو حفيد القاضي أبي الحسن النباوي قريع ابن الخطيب المعروف الذي عاش حتى متم القرن الثامن، ويبدو أن حفيد النباوي وولد القاضي أبي حامد المذكور قال الشعر وهو صغير، فقد أورده مؤلف مظهر النور الباصري ثلاثة قصائد لمن اسمه «أبو جعفر أحمد بن الحسن النباوي»<sup>(5)</sup> في مدح يوسف الثالث الملقب بالناصر الذي ملك حتى سنة 820<sup>(6)</sup>هـ. ومما جاء في إحداها (ص: 98):

وَلَكُمْ أَيَادٍ جَمِّةٌ أَسْلَفُتُمْ  
 أَسْلَافُنَا قَدْمًا بِهَا قَدْ مُتَعَا  
 وَحَيَاةٌ قَلْبِي فِي «ظَهِيرٍ» عِنَايَةٍ  
 يُعْلِي مَكَانِي فِي الْفَخَارِ وَيَرْفَعُ  
 وَمَعِيشَةٌ تُغْنِي وَتُرْغِدُ عِيشَتِي  
 أَشْفَى الْغَلَيلَ بِمَا تُفِيدُ وَأَنْقَعُ

وفي هذا بعض الاشكال حيث إن والده - إذا كان - عاش حتى سنة 888هـ إلا إذا فسرنا الأمر بالتقريب الذي يكون أحياناً في السن بين الآباء والأبناء وبالنوع المبكر لهذا الولد، أو يكون مادح يوسف الثالث عمّا له سمي باسمه وكتني بكتنيته.

وأغلب الظن أنه هو صاحب البسطي هذا كما يدل على ذلك التماثل في الاسم والقرائن الواردة في الأبيات المذكورة آنفًا، وقد نجد ما يشهد لذلك أيضاً في هذه القصيدة التي وطا لها الشاعر بقوله: «وقلت أيضًا مخاطبًا ابنه [أبي ابن أبي حامد بن الحسن] أبا جعفر وقد بلغني أنه طلب منه بعض الأدباء أن ينظم له أبياتاً يهجونني بها، وذلك لما كان طبع عليه من الشغف بحفظ الهجاء» وأول القصيدة (30):

هجاؤك لي مدح فزعني من الهجو  
لعلك تشفيني من البث والشجو  
وتجدد به تذكار أيام إنسنا  
بسطة مجموعين في مجلس اللهو  
ندير كؤوس الوصول في كل ساعة  
ونخطوا إلى لذاتنا أوسع الخطوط  
فنقطف أزهار المسارات غضة  
وطرف الردى حيران في سنة السهو

وبعد أن يشكو من هجر صاحبه وإضعافه لواشٍ أراد أن يذكر صفو العلاقة بين الصاحبين، ويهجو هذا الواشي يقول - وهو محل الشاهد هنا -:

ولست أرى من سُكْر حبك صاحياً  
إذا ما أَرَى غيري يميل إلى الصحو  
لأنك أحرزت الفضائل كلها  
فصرت بها ترقى على المرقب العلوي

ورثَتِ المُعَالِي عن رجالٍ أعزَّةٍ  
 قضاةٌ كرامٌ قُلْدوا لامة الزَّهْرِ  
 لهم دانت الدُّنيا بنيل مَرَامِهم  
 فأرَوْتُهم عِزًا وللغير لم تُرُوا  
 أنت كتبُ التاريخ تظہرُ فَضْلَهُم  
 فعَنْها أخي الفخر آرو إِن شئتَ أَنْ تروي  
 وفي غيرِ ما نظمٍ تضمَّنَ ذَكْرَهُم  
 موْقِيًّا بما حازوا قَدِيمًا من السُّرُوفِ  
 فقل للثَّئِيمِ رَامَ طَيَا لسَرُوفِهِم  
 توق فَسَرُوفُ الْقَوْمِ يَنْشُرُ ما تَطْوي

ويقول من قصيدةً في مدح أبي حامد والد المذكور (71) :  
 شبَّ في حَجَرِ أبيه فارْتَقَى  
 فُنَانًا للعلمِ منْ أَعْلَى الْقُنْنِ  
 وأبُوهُ حلَّها منْ قَبْلِ مَعْنِ  
 جَدَّهِ فخرِ القضاةِ المؤْتَمِنْ

وهذا الشعر كله يحمل في طيئه إشاراتٌ تاريخية إلى أصلة بني  
 الحسن النباهيين الذين رجحنا أن يكون هذا الممدوح والده منهم، ولعلَّ  
 من المستحسن معارضته بكلام أبي الحسن النباهي الذي يرد فيه على ابن  
 الخطيب :

«وَقُلْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ : «أَيْنَ الْخَطْطُ الْمُتَوَارِثَةُ عَنِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ». وَقَدْ  
 أَذْهَبَ اللَّهُ عَنَا بِرَبْكَةِ الْمَلَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي التَّفَاظِ بِالْآبَاءِ،  
 وَلَكُنِي أَقُولُ لَكُمْ عَلَى جَهَةِ الْمُقَابَلَةِ لِكَلَامِكُمْ : إِنْ كَانَتِ الإِشَارةُ إِلَى  
 الْمُجِيبِ بِهَذَا فَمِنْ الْمُعْلَمَ الْمُتَحَقِّقِ عِنْ أَفَاضِلِ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ حِيثِ  
 الْأَصْلَةِ أَحَدُ أَمَاثِلِ قَطْرِهِ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ عَسْكَرٍ وَقَدْ ذُكِرَ فِي

كتابه من سلفي فلان بن فلان، ما نصه: وبيته بيت قضاء وعلم جلاله لم يزالوا يرثون ذلك كابرًا عن كابر، استقضى جدّه المنصور ابن أبي عامر، وقاله غيره وغيره، وبيدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمنه الله وحده». وجاء في ظهير تولي أبي الحسن النباهي من إنشاء ابن الخطيب: «ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين، والأصالحة التي قامت عليها صلاح البراهين، والأباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين، وطبق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين، وازدان بمحالسته وزرائهم السلاطين، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير، وقاض في الأمور الشرعية ووزير، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير».

ولعل مما يؤكّد هذا استعمال الشاعر عبارة «بني الحسن» وبشهرة «ابن الحسن» يعرف النباهي القاضي، وكذلك قول الشاعر مخاطبًا القاضي أبا حامد موريًا بابن الحسن ومشيرًا على ما يظهر إلى كتاب «خلع الرسن» لابن الخطيب (29):

قلت لَمَا لَامْنِي فِي الْحُبِّ مَنْ  
قَدْ رَأَيَ فِيهِ مَخْلُوعَ الرَّسَنْ  
مَنْ أَحَبَّ الْمُضْطَفَى مَعْ آلِهِ  
لَيْسَ نُكْرًا أَنْ يُحِبَّ ابْنَ الْحَسَنْ

وإنما احتجنا إلى كل هذا لأن نسبة النباهي - أو الجذامي مثلاً - لم ترد في الديوان ولأننا لم نقف على ترجمة لهذا القاضي أبي حامد أو ولده وإنما وجدنا اسم هذا الأخير - مع زيادة النباهي - في مخطوط مظهر النور الباصري، كما وجدنا اسم «السيد الشيخ أبي حامد بن الحسن» في فتوى فقهاء الأندلس فيمن نبذ بيعة السلطان أبي الحسن النصري<sup>(7)</sup>.

فإذا صَحَّ ما ذكرناه فإن ديوان البسطي يقدم لنا بذلك فائدة في استمرار النباهيين في القضاء وخدمة الدولة حتى نهاية غرناطة.

ويبدو أن القاضي أبي حامد المذكور ولـي القضاء في المرية أيضاً فقد كتب إليه الشاعر من بسطة (29) :

لعمُرُكَ ما استحالَ الحُبُّ عِنْدِي  
ولا أَنِّي لعَهْدٍ هواكَ ناسِي  
أَزورُكَ بالمريةِ كُلَّ يَوْمٍ  
وما سافرْتُ عنْ أَهْلِي ونَاسِي

وكـرر هذا المعنى في قوله (81) :  
وفارقْتُ أَبْنَائِي وَأَهْلِي وَوَالِدِي  
وسِرْتُ لِلْقِيَا مَنْ وَهَبْتُ لَهُ قَلْبِي  
ولَيْ قَائِدُ يَطْوِي الْمَرَاحلَ دَائِبًا  
لِزُورَةٍ مُشَوَّاهٍ وَلَكِنَّ مِنْ حُبِّي

كانت صلة الشاعر بهذا القاضي متينة كما ذكرنا وقد رأيناه فيما سبق يخاطبه في استعارة بعض الكتب بعد خروجه من الأسر، وفي شأن مرتبه الذي حبس عنه، ويبدو أن القاضي الذي كان يقول الشعر أحياناً كان مولعاً بـشعر الجناس والتورية ولـهذا وجـدنا الشاعر يخاطبه كثيراً في هــذين الغرضـينـ، فـمن ذلك توريـته باسم القاضـي قـائلاً (29) :

فـشـتـ بـمـشـكـاةـ الـأنـوارـ مـنـ  
كتـابـكـ بـغـيـةـ القـاصـدـ  
ولـيـسـ عـجـيـباـ بـهـ فـتـنـتـيـ  
فـمـصـدـرـهـ عـنـ أـبـيـ حـامـدـ

ورى هنا بأبي حامد الغزالى وكتابه مشكاة الأنوار، وقد رأينا الشاعر يشكو إلى ولد القاضي من بعض الوشأة، وهو هو يشير إلى الأمر نفسه في بيتهن خاطب بهما القاضي نفسه (34) :

إِلَيْكَ اشْتِيَاقُ الْقَلْبِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ  
وَأَنْتَ مَحْلُ الْحُبَّ حَقًّا بِلَا شَكَّ  
فَأَيَّ لَئِيمٍ جَاءَ يَزْعُمُ غَيْرَ ذَا  
فَقْدٌ جَاءَ بِالْبُهْتَانِ وَالْزُورِ وَالْإِلْفِ

ولعل الشاعر سمع مرة خبراً بتعيينه أو ترقيته في منصب ما بسعى من صديقه وممدوحه فخاطبه بهذه الأبيات (28 - 29) :

فَدَيْتُكَ عَرَفْنِي حَقِيقَةً ذَا الْخَبَرِ  
وَلَا تُخْفِ عَنِّي مِنْهُ عَيْنًا وَلَا أَثْرٌ  
وَنَفْسٌ عَنِ الصَّبَّ الْمَعْنَى كَابَةٌ  
وُقِيتَ مِنَ الْأُوصَابِ فِي الْوِرْدِ وَالصَّدَرِ  
فَنَفْسِي وَحْقُّ اللَّهِ طَارَتْ لَسْمُعِهِ  
وَهَذَا لَدِي الْإِخْرَانِ مِنِّي قَدْ اسْتَهَرَ  
وَلِمْ لَا وَقَدْ أَصْفَيْتُ لِي طَوِيَّةً  
تَجَلَّتْ لِأَرْبَابِ الْبَصَائِرِ وَالنَّظَرِ  
وَفَاضَتْ أَيَادِيْكُمْ سِجَالًا بِسَاحَتِي  
فَحُزْتُ بِهَا فَخْرًا عَظِيمًا عَلَى الْبَشَرِ

على أننا وجدناه من جهة ثانية يشكو اهتمام صاحبه حقه وتأخيره وقد يغدو عليه وسبق أن أوردنا في فصل سابق ما قاله في ذلك.

هذا ولم نجد ما نعتمد عليه في تحديد التاريخ الذي كان فيه أبو حامد ابن الحسن هذا قاضياً في بسطة ثم في المرية ولا نعرف من هو

السلطان النصري الذي لاه حسبما يشير إليه الشاعر في قوله (25):

عَلِمَ السُّلْطَانُ مِنْهُ  
فَأَصْطَفَى مِنْهُ رَئِيسًا  
رَبَّ فَخْرٍ رَاقَ فَخْمٌ  
عَضَدَ الْمُلْكَ بِعَزْمٍ  
أَيَّدَ الْحَقَّ بِحَزْمٍ

وكل ما نعرفه أنه كان حيًّا سنة 888هـ ووصف يومئذ بالسيد الشيخ .  
- وبعد هذا نصل في الديوان إلى قصيدة طويلة مهَّد لها الشاعر  
بقوله: «وقلت مخاطبًا الصديق المخلص أبا عبد الله ابن رجاء وكتبت بذلك  
إليه من أبيذة وأنا في حكم الأسر» وتشتمل القصيدة على 50 بيتاً وفيها تذكر  
لصديقه بما كان بينهما من إخاء وزمالة أيام الدراسة، وشكوى من قيود  
الأسر، وحنين إلى بسطة، ورجاء فضل الله سبحانه في أن يفك قيود الأسر  
عنه وعن من بأبنته من الأسراء، وقد استشهدنا فيما سلف بأبيات من هذه  
القصيدة .

أما صاحبه هذا فلم نقف على ذكره في المصادر التي رجعنا إليها .  
- ومن أصدقاء الشاعر الذين تردد ذكرهم في شعره أبو عبد الله  
محمد بن مالك الأَلْيَرِي ، وفي الديوان سِتُّ قصائد في مخاطبته، ومطلع  
القصيدة الأولى (38) :

رَعَيِ الْوِدَادُ لِأَفْضَلِ الْأَصْحَابِ  
مَتَأْكِدُ الْإِلْزَامِ وَالْإِيْجَابِ

وقد اقتصر في توطئتها على تحلية صاحبه بالفقير الطالب مما يدل على  
أنه كان من أقرانه ونظرائه، وهذا ما تؤكده الأبياتُ التي يتحدث فيها عن  
أيام الطلب وقد سبق إيرادها في موضعها من هذه الدراسة، وليس فيها ما  
يعين البلد الذي جمعهما. وكتب إليه مرة رسالة إلى المنكب

حيث كان إماماً ومقرئاً، وجعل في صدر الرسالة هذين البيتين (100) :

وَدَادُكُمْ أَرْعَى وَإِنْ طَالَ بَعْدُكُمْ  
وَعُوَضْتُمْ مِنْ بُسْطَةٍ بِمُنْكَبٍ  
وَإِنْ نَكَبَ الْأَصْحَابُ عَنْ رَعْيِي وَدَكْمٌ  
فَلَسْتُ أَرِي عَنْ رَعْيِهِ بِمُنْكَبٍ

وقد خاطبه هذا الصاحب من المتكب بقصيدة يشكو فيها وضعه<sup>(27)</sup>

فأجابه البسطي عنها بقصيدة مطلعها (110) :

لَكَ اللَّهُ مِنْ جَمَّ الْفَضَائِلِ مَعْلُومٌ  
بِسَبِقِ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ وَتَقْدِيمِ

ثم يسرد بعض فضائله ويقول :

وَأَقْسُمُ لَمْ تَدْعَ الْإِمَامَ ابْنَ مَالِكٍ  
سِوَى لِجَنَى مَلِكٍ سَتَحْوِيهِ مَحْتُومٍ

ويستدلّ على ذلك بخطابه الذي يشتمل على شعر رفيع ونشر بديع

ويقول في هذا الخطاب :

تَلَوْتُ لَهُ «وَالْتَّيْنَ» لَمَا لَمَحْتُه  
وَعَايَنْتُ مِنْ مَعْنَاهُ أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ

ثم يتوجع لفراقه ويعاده فيقول :

وَلِكُنْ شَجَنِي نَفْسِي وَأَمْرَضَ مُهْجَتِي  
وَصَرَّبَنِي فِي النَّاسِ أَذْهَلَ مَهْمُومٍ  
بَعْدُكَ عَنْ عَيْنِي وَكُونُكَ ثَاوِيَاً  
بِمَعْقُلٍ شَرٌّ فِي الْمَعَاقِلِ مَذْمُومٍ  
تَطَابَقَ تَحْقِيقًا مَسْمَاهُ وَاسْمُهُ  
مَطَابَقَةً أَضَحَتْ دَلِيلًا عَلَى الشَّوْمِ

وهذا المعقل هو حصن المُنكَب الذي سَمَاه في البيتين السابقين، والشاعر باسم المُنكَب معروف عند الأندلسيين، قال ابن الخطيب في معيار الاختيار يصف بلدة المُنكَب: «إِلَّا أَنْ اسْمَهَا مَظْنَةٌ طِيرَةٌ تُشَتَّفُ، فَالْمُنكَبُ عَنْهَا يُؤْتَفُ».

أما القصيدة الثالثة فهي مصدّرة بما يلي: «وقلت مخاطباً القاضي الفاضل أبا عبد الله محمد بن مالك الأَلْيَري» وتنكون من 60 بيتاً، وقد حبرها في مدح صاحبه ورفيق دراسته الذي أصبح قاضياً في بسطة، وبدأها بالغزل ثم تخلص إلى المدح فأطّلب في وصف علمه وعدله (50):

بِهِ انجَلَى عن ساكني بسطة  
لِيَلُّ من الظُّلْم بِهَا مُظْلِمٌ  
بِهِ غَدَا الشَّرْعُ بِهَا ظَاهِرًا  
وَالدِّينُ فِي أَرْجَائِهَا قِيمُ  
بِهِ بَدَا الْحَقُّ بِهَا مُشْرِقًا  
وَأَمْرُهُ مُنْعِقَدٌ مُبْرَمٌ

ثُمَّ يعود بعد أبيات إلى مثل هذا قائلاً:  
بِهِ غَدَتْ فِي نِعْمَةٍ بسطة  
بِهَا حَبَّاها البَاسِطُ الْمُنْعِمُ

ويبدو أن الشاعر ضيف صديقه القاضي أثناء توليه قضاء بسطة وقال في ذلك (51 - 52):

تَقْبَلْ فَدْتَكَ نُفُوسُ الْبَشَرْ  
وَيُلْعَفَتْ فِيمَا تَرَوْمُ الْوَطَرْ  
طَعَامٌ مَحِبٌّ مُفَرِّزٌ بِمَا  
لَدَيْكَ مِنَ الْأَدَوَاتِ اسْتَقَرْ

أَتَى مِنْهُ بِالنَّزِيرِ لَا جَاهِلٌ  
بِحَقِّ سِيَادَتِكَ الْمُعْتَبَرِ  
وَلَكُنْ إِلَيْهِ أَنْتَهَى وُسْعُهُ  
وَذَا عِنْدَكُمْ أَمْرٌ قَدْ ظَهَرَ  
وَمَا الْمُنْ يَبْعَثُ مَعَ تَلُوِّهِ  
لِمَجْدِكَ إِلَّا غَدًا يُحْتَقَرُ  
فَعُفُوا فَمِثْلُكُمْ مَنْ عَفَا  
وَعُذْرًا فَمِثْلُكُمْ مَنْ عَذَرَ  
وَقَدْ جَاءَ فِي مَثْلِ سَائِرِ  
طَعَامِ الْأَحِبَّةِ مَا قَدْ حَضَرَ  
وَهَكَذَا يَرِي أَنَّ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى قَلِيلَتَانِ فِي حَقِّهِ.

ولما نقل صديقه من قضاء بسطة، وأصبح قاضي الجماعة في غرناطة كتب إليه الشاعر رسالة يهنته بها وصدرها بقصيدة في الموضوع نفسه، وقد اختتمها بهذا البيت (88):

وَعَجَّلْ سَيِّدِي نَصْرِي فَحَقِّي  
كَمَا تَدْرِي وَتَعْلَمُ وَالسَّلَامُ  
كَمَا خَتَمْ قَصِيدَةً أُخْرَى فِي مَدْحِه بِقُولِه:  
وَمَهْرَهَا اجْعَلْهُ بِلَا مَانِعٍ  
إِنْفَادَ مَا مِنْ قَصْتِي تَعْلَمُ

ولعله يشير بها إلى قصة المرتب المحبوس السالفة. والقصيدة الخامسة يعاتب فيها الشاعر صديقه على بخله بالكتابة إليه وأولها (88):

يَا ابْنَ عَبْدِ الْمَلِيكِ يَا خَيْرَ حِلٍّ  
ذَكْرُهُ مِنْذُ غَابَ عَنِّي شُغْلِي

وآخرها:

## عُد لِرَعْيِ الْوَدَادِ وَشَدُّ بِكْتَبِ حَبْلَ رَعْيِ الْوَدَادِ مِنْكَ بِحَبْلِي

ويبدو أن صديق البسطي هذا الذي سماه بابن مالك تارة وبابن عبد الملك تارة أخرى هو الذي ترجم له أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج وقال: «محمد بن علي بن عبد الملك الأليري الغرناطي شهر بابن مليح، قاضيها (غرناطة)، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم، وكان حياً عام اثنين وثلاثين»<sup>(8)</sup>.

وذكر القلصادي في رحلته أنه لما رجع من الحج إلى بسطة سنة 855هـ أقام بها «برهة من الزمان متأنساً بالشيخ الفقيه الإمام الخطيب سيدى جعفر وكذلك سيدى الفقيه الإمام الصدر الخطيب المقرىء أبي عبد الله محمد بن عبد الملك حفظه الله، وبالفقىه النبىء الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم، وكذلك بغيرهم من الأوداء والأصحاب»<sup>(9)</sup>.

وأرى أن أبي عبد الله محمد بن عبد الملك هذا هو صاحب شاعرنا أما أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم فقد يكون والد الشاعر أو هو نفسه بناء على ما ذكرته في أول هذه الدراسة.

وجاء في المعيار (10: 309) ما نصه: «كان القاضي أبو عبد الله الأليري أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضور غرناطة يغليظ على من فهم منه اللذَّدَ من اليهود...». والخبر هنا يتعلق بالفقىه المذكور أيضاً. ويبدو أنه كذلك هو صاحب شرح البردة الذى توجد منه نسخ مخطوطة في الخزائن المغربية، وفي هذا الشرح شيء من شعره وشعر ابن الخطيب وشعر أبي البركات البلفقي وغيرهما.

- وفي ديوان الشاعر البسطي مدح ثلاثة أعلام من شيوخ الغزاة بمدينة

بسطة وهو أبو عبد الله محمد بن عثمان وأبو الحسين الشريفي وعبد الله بن عمران.

فقد مدح الأول بقصيدة من 56 بيتاً وكلها إشادة بموافقه في الجهاد، ومنها (52 - 54):

يَا صَارَخًا جَعَلَ الصُّرَاخَ شِعَارَهُ  
فِي مُلْتَقَى الْأَقْرَانِ بِالْأَقْرَانِ  
قُلْ لِلْعِدَى جَهْرًا بِأَرْفَعِ مَنْطِقَهِ  
إِنَّ الرَّدَى مِنْ دَارِكُمْ مُتَدَانٍ  
مُذْ أَمْكُمْ شِيَخُ الْغُزَّاهُ مُحَمَّدٌ  
نَجْلُ الْمُجَاهِدِ ذِي التَّقَى عُثْمَانٍ

ومنها:

بُشْرِي لَبَسْطَةَ بِالْهُمَامِ مُحَمَّدٌ  
وَلِأَهْلِهَا قَاصِيهِمُ وَالْدَّانِي  
وَلَهَا الْهَنَاءُ كَمَا الْهَنَاءُ لَهُ بِهَا  
إِذْ حَلَّهَا فِي أَسْعِدِ الْأَزْمَانِ  
يَبْنِي مَنَارَ الْأَمْنِ فِي أَرْجَائِهَا  
بِصَوَارِمِ الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ  
وَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِلْعَاصِي الَّذِي  
تَرَكَ الرَّشَادَ وَدَانَ بِالْعِصْيَانِ  
لَا بُدَّ أَنْ يُلْقَى الَّذِي كَسَبَتْ يَدَا  
هُ مِنَ الْخَنَا وَالْزَّيْغَ وَالْخِذْلَانِ  
وَيُؤْمِنُهُ بِكِتَابٍ مِنْ جُنْدِهِ  
تَذَرُّ الدِّيَارَ بِغَيْرِ مَا سُكَّانٍ  
وَفِيهَا يَقُولُ مَهَدَّدًا أَعْدَاءُ إِلْسَامٍ :

وَاسْتَبِشُرُوا بِحَلُولِ كُلِّ مَصِيبَةٍ  
 مَشْفُوعَةٌ بِالْوَيْلِ وَالْخُسْرَانِ  
 تَأْتِي عَلَيْكُمْ أَجْمَعِينَ بِعَزْمَةٍ  
 مِنْ فَارِسِ الْفُرْسَانِ فِي الْمَيْدَانِ  
 مَنْ لَا يَنْامُ عَنِ الْإِغْارَةِ قَلْبُهُ  
 حَرْزاً إِذَا مَا نَامَ الْعَيْنَانِ  
 حَتَّى يُجَدِّلُكُمْ بِكُلِّ مَهْنِدٍ  
 وَيَرَأْكُمْ صَرْعَى بِكُلِّ مَكَانٍ  
 وَيُعِيدَ ذَلِلَةً عَزَّكُمْ بِهِزَائِمٍ  
 تُفْنِي شِيَوْخَكُمْ مَعَ الشَّبَانِ  
 وَيَحْقِيقَ مَكْرُوكَمْ بِكُمْ فِي عَاجِلٍ  
 تَنْعِي بِهِ الْغَرِبَانَ فِي الْأَوْطَانِ  
 وَيَبْدُو أَنْ شِيخَ الْغَزَّةِ وَقَائِدَ بَسْطَةِ هَذَا مَا هُوَ إِلَّا النَّصْرَى الَّذِي كَانَ  
 يَنْبَزِ بالْأَحْنَفِ . .

وفي المصادر المسيحية معلومات عن هذا القائد النصري ممدوح الشاعر، فهي تذكر أنه كان على رأس الجيش الذي استرجع غرناطة لحكم محمد IX الملقب بالأيسر سنة 1432م وكافأه هذا بتعيينه قائداً على المرية، كما تذكر أنه كان قائداً جيش الأيسر في معركة Higueruela سنة 1432م وأنه ثار عليه في سنة 1445م إذ تحرك من المرية حيث كان قائداً عليها إلى غرناطة فاستولى عليها وظل سلطاناً عليها نحوً من سنة - وهو المعروف بمحمد X الأحنف ELCOJO - ثم ضاق به الغرناطيون فأخرجوه.

ولا تذكر هذه المصادر وجهته بعد ذلك ولكنها تذكر ظهوره في المعارك التي وقعت خلال 1446 - 1447 والتي استرجع فيها المسلمون عدداً من المواقع

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ ابن عثمان الأحنف هذا توفي

- حسب تقديره - خلال الشهور الأولى من سنة 1448<sup>(10)</sup> م. ولكننا نجد رسالة وجهها بوصفة صاحب الأندلس إلى السلطان جقمق صاحب الديار المصرية وببلاد الشام وهي مؤرخة بجمادى الأولى عام 855 هـ - 1451<sup>(11)</sup> م.

هذا هو شيخ الغزا ابن عثمان ممدوح شاعرنا.

ولعل من المناسب هنا أن أثبت نصّ سؤالٍ كان وجهه إلى فقيه البحث الأستاذ لويس سيكو دي لوثينا في موضوع هذه الشخصية التاريخية سنة 1965 وهو: هل في ديوان عبد الكريم القيسي ذكر لشيخ الغزا أبي عبدالله محمد بن عثمان الذي ثار بالمرية على ملك غرناطة، وهذه صورته بخط يده:

*a t-il dans le diwan de  
 'Abd al-Karim al-Qaysi un  
 'ayj al-Surâ' qui s'apelle  
 Abu 'Abd Allah Muhammad  
 ibn 'Abd al-Rahman ?*

- وله في مخاطبة شيخ الغزا بيسطة أبي الحسين الشريف قصيدةتان إحداهما في مدحه، والثانية في الإعراب عن أشواقه إليه، وقد أطال الغزل في الأولى (25 بيتاً) وخرج منه للمدح قاتلاً (54 - 57).

كأن ضياء الشمس من وجنتي أبي الـ

حسين إذا تملئ عليه المدائح

وهو يمدحه بالشرف الثابت الواضح، والعقل الراجح والكرم الفياض، والشجاعة الفائقة، ويقول في ولائه:

تولى على الأجناد شيخاً بيسطةٍ

فأولاً لهم جوداً على الغيث كاسحةٍ

ويخاطبه قائلًا:

حُمِيتَ حِمَانًا مِنْ عَدُوٍّ أَرَادَنَا  
فَلَيْسَ لَنَا فِي ذَا الزَّمَانِ مُكَاشِحٌ

ويقول في وصف شجاعته:

كَأَنَّ النَّصَارَى حِينَ يُلْقَوْنَ خِيلَهُ  
ظَبَاءٌ إِذَا مَا يَمْتَهِنُ الْجَوَارِحُ

ويبدو أن أبي الحسين هذا هو الذي خاطبه الشاعر في مكان آخر  
مرحباً بقدومه على بسطة (73):

عِمَ السُّرُور جَمِيعُ النَّاسِ إِذْ قَدَمَا<sup>١</sup>  
أَبُو الْحُسَيْن الَّذِي فَاقَ الْوَرَى هَمَّا  
فَأَشْرَقَتْ بَسْطَةٌ مِنْ نُورٍ غَرِّهٖ  
كَلِيلَةُ الْبَدْرِ جَلَّ نُورُهَا الظَّلَّمَا  
وَقَرَّتْ الْعَيْنُ إِذْ حَطَّ الرَّكَابَ بِهَا  
يَوْمَ الْخَمِيسِ وَأَضْحَى السَّعْدُ قَدْ لِزَمَا

وللشاعر أيضاً قطعة في مخاطبة ولد أبي الحسين هذا أولها (57):

سَتَبْلُغُ فِي دُنِيَاكَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ  
وَتَسْمُو بِكَ الْعُلَيَاءُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ

ولم نصل بعد البحث إلى شيء حول هذا الشريف أبي الحسين شيخ الغزاة بسطة وليس في شعر البسطي زيادة في التعريف به على ما ذكرنا.

- أما الثالث من شيوخ الغزاة بسطة فهو عبد الله بن عمران، وقد طلب بعض إخوان الشاعر منه أن يقول على لسانه قصيدة في مخاطبة شيخ الغزاة هذا فأنشأ قصيدة مطلعها (89 - 90):

مُحَيَاكَ يا عَبْدَ الإِلَهِ بْنَ عُمَرَانِ  
بِحَبَّكَ مَذْأُوبَصْرَتُ شَخْصَكَ أَغْرَانِي

وفيها يشكو صاحب الشاعر بتأخيره بعد أن كان مقدماً في خدمة  
الشيخ المذكور، وهو يشكُّ تفضيله وجوده الذي صار به في السابق غنياً بين  
الأهل والجيران.

ثم يقول الشاعر على لسان صاحبه:  
فَكَيْفَ يَكُونُ الْآنَ حَظِّيَّ مِنْكُمْ  
بِقُولِيَّةِ مَوْصُوفًاِ بِنَحْسٍ وَخَسْرَانٍ  
وَقَدْ عَلِمْتَ تَلْكَ السِّيَادَةَ أَنَّنِي  
لِخِدْمَتِهَا أَصْبَوْتُ هُوَيَّ مِنْذَ أَزْمَانِ  
وَأَنَّنِي بِذَلِكَ الْجَهَدِ فِيمَا حَصَرْتُهُ  
مِنْ أَعْشَارِهَا وَالْحَزْمُ فِي ذَاكَ مِنْ شَانِي  
فَمُنْوا بِإِحْسَانٍ عَلَى قَدْرِ خِدْمَتِي  
وَخُصُوصَةُ لِي مِنْكُمْ بِفَضْلِ وَرْجَحَانِ

قولية المذكورة هنا حصن من إقليم بسطة (فتح الطيب 4: 66)  
والروض المعطار: (113):

وقد أوردت المدونات المسيحية اسم عبد الله بن عمران هذا كالتالي:

. Abdallah Ambran

ونعرف من هذه المدونات أنه كان قائداً على بسطة خلال  
1455 - 859هـ (1456 - 860هـ) ونعرف منها أيضاً أنه كان شجاعاً قوياً أياً  
ومما ذكرته أنه لما تمت هدنة موقعة بين غرناطة وقشتالة في عهد سعد من  
بني نصر سنة 1455هـ (859م) طالب القشتاليون بعض الحصون التي كانت  
في حوزة المسلمين، واشترط قومس قبره التنازل عن حصن Solera مدعياً  
أن قائداً بسطة عبد الله استولى عليه بعد عقد الهدنة، وتواردت رسائل

القشتاليين على سلطان غرناطة فأكده لهم رغبته في بقاء الصلح وأنه سيبعث تعليماته إلى القائد في شأن التنازل عن الحصن ولكن القائد ابن عمران لم يمثل لذلك ورفض التنازل عن الحصن<sup>(12)</sup>.

ونستفيد من شعر البسطي في شيخوخة الغزاة أنهم كانوا ذوي نفوذ وسلطة يقومون بالجهاد - وهو وظيفتهم الأولى - ويؤدبون العصاة ويجمعون الأعشار من الفلاحين لتمويل الجهاد، ونستفيد منه كذلك أن مشيخة الغزاة ظلت قائمة حتى زوال مملكة غرناطة ولم يutf رسمها كما ذهب إلى ذلك بعضهم أخذًا من قول ابن خلدون: وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه، وصار أمر الغزاة إليه يباشر أحوالهم بنفسه ويعلمهم بنظره ويخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكريمه وعنايته» (العبر 7: 788) وكل ما في الأمر أنها أصبحت في أولاد ملوك غرناطة وأقاربهم، ومن ولديها منهم كبير أولاد محمد الخامس أبو الحاج يوسف وأخوه سعد وغيرهما.

ولكن المغاربة استمروا في التطوع للجهاد بالأندلس وظل الريفيون والغماريون يفدون عليها بنية الرباط وكانت لهم أيام مشهورة ومقامات محمودة.

وقد ذكر المؤرخون المغاربة - ومنهم الناصري في الاستقصا - أن المولى علي الجد الأعلى للأشراف العلميين «دخل عدوة الأندلس برسم الجهاد مراراً وأقام بها مدة طويلة» ولما رجع إلى سجل ماسة بنية التوجه إلى الديار المقدسة «كتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم ويحضرون على الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو وأنها شاغرة من تجمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه وهو مقيم عندهم على أن يبايعوه ويملكونه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعاً وزهداً وعزوفاً عن الدنيا وزهراتها»<sup>(13)</sup>. وقد وقف اليفرني على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة في الموضوع وذكر أسماء أصحابها، وساق قصيدة أبي فارس ابن أبي الربيع الغرناطي في الاستجاد به<sup>(14)</sup>.

وقد كان لعرقلة بعض النصريين للغزاة المجاهدين وضيق بعض الأندلسين بهم وحساسيتهم التقليدية في الخوف الوهمي منهم دور في نهاية الأندلس المفجعة.

- وتسلك في عداد شيوخ الغزاة المذكورين أحد القواد من ممدوحى الشاعر - وهو القائد حامد - ولعله حامد بن محلى البطوى - وقد مدحه الشاعر بقصيدة من أطول قصائده (73 بيتاً) بدأها بلوم نفسه بعد ذهاب قوته وشيب عذاره، وأعلن رغبته في التوبة وزيارة قبر الرسول الكريم، ووصف فيها ركب الحجاج الأندلسي من ذهابه إلى إياه وهذا كله في 27 بيتاً ثم تخلص إلى مدح القائد قائلًا (140 - 143):

وعادوا وقد حازوا من الأجر مثلما

بوادي الأشى منْ أَجْرِه حَارَ حَامِد  
أَجْلُ وَلَاهِ الْوَقْتِ قَدْرًا وَمَنْصَبًا  
وَأَمْجَدُهُمْ مَهْمَا يُعَدُّ الْأَمَاجِد

وقد أطرب في عدّ مآثره في الجهاد والمجد وآثاره في إحياء الدين وحياطته وتعمهده لأهل العلم ورعايته لأولي الأداب ورفقه بالرعاية وإغداقة على الغزاة المجاهدين الوافدين عليه من أنحاء الأرض وإعداده إياهم لغزو الروم وقيادته لهم بنفسه. ونقتطف من هذه القصيدة قوله:

تَولَى فَأَحْيَا لِلْجَهَادِ مَعَالِمًا  
بِأَمْثَالِهَا عَهْدُ الْوَرَى مُتَبَاعِدٌ  
وَقَامَ بِهَا لَا جُبْنُ يُشْنِي عِنَانَهُ  
وَلَا الْخَوْرُ المَذْمُومُ عَنْهُ يُبَاعدُ

وقوله:

لَذَكْ أَتَهُ الرَّوْمُ تَطْلُبُ سَلْمَهُ  
تَرْدَدُهُ لَا تُنْثِنِي وَتَعَاوِدُ

فسوغها منه المراد ولو أبي  
 لباتْ لها رَوْعَ على الحَدَّ زائِدُ  
 أليَّةَ برَّ في اليمين، بمثله  
 تُحاطُ وتُحْمَى منْ عِدَاهَا القواعِدُ

والمراجع القشتالية تسمى القائد حامداً هذا وتنعته بلذِ العداوة  
 للنصارى وشدَّة البأس وصعوبة المراس هو وجنه من غماره. وتذكر مواقفه  
 في الدفاع عن مالقة وبسطة وغيرهما<sup>(15)</sup>، أما المراجع العربية التي نقل  
 عنها المقرى فتشير إلى صاحب وادي آش ولكنها لا تسميه<sup>(16)</sup> ولعله هو حامد  
 هذا.

إن مدح شاعرنا البسطي لشيخ العزة وعدم مدحه لأمراء زمنه من  
 بني نصر - باستثناء ابن عثمان الأحنف - قد يكون فيه دليل على موقف  
 معين، وسيتبين لنا هذا الموقف في فصل آخر، ولعلَّ مما يتصلُّ بمدح  
 هؤلاء العزة المجاهدين - وجُلُّهم من المغاربة - ما ورد في قصيدة له في  
 مدح أهل مالقة، فقد ذكر بالخير فعل أمرائها الأقدمين من بني إشقيقولة في  
 استدعائهم أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ومنابذتهم لأصحابهم  
 وأقاربهم من بني نصر، كما نوه بما ثار السلطان المريني، قال - والضمير في  
 أمرائها يعود على مالقة -:

وأندلس بالحرْمِ منْ أَمْرَائِهَا  
 غداً ناكصاً عنْهَا كفُورٌ وَمُلْحِدُ  
 وهمْ حِفظوا الإِسْلَامَ فيها وإنَّه  
 لبغي عِدَاه كَادَ يطويه مَلْحَدُ  
 وفعُلُّ ابنِ إِشْقِيلُولَةِ في دعائِه  
 أباً يوْسُفَ بِالْحَقِّ وَالصَّدْقِ يَشْهَدُ  
 دُعَاءُ لَنْصُرِ الدِّينِ فيها مُبَادِرًا  
 فلبَّاهُ مِنْهُ ناصِرٌ وَمُؤْيَدُ

وجازَ إِلَيْهَا فِي جُمُوعٍ كثِيرٍ  
 يفوقُ الْحَصْنَى تعدادُهَا إِذْ تُعَدُّ  
 فشَّنَ عَلَى أَعْدَائِهَا كُلَّ غَارَةٍ  
 وكالْيُومِ فِي الْغَارَاتِ أَضْحَى بِهَا الْغُدُّ  
 وَأَمْضَى عَلَى مَنْ أَمَّ مِنْهُمْ هَزَائِمًا  
 وَسَجَّلَ مَا أَمْضَاهُ سِيفُ مَهْنَدُ  
 فَمِنْهُمْ قَتِيلٌ بِالصَّعِيدِ مَجْدُلٌ  
 وَمِنْهُمْ أَسِيرٌ فِي الْقِيُودِ مَصْفَدُ  
 وَلَوْلَا الَّذِي وَافَى بِهِ مِنْ فَعَالَهِ  
 لَمَا كَانَ فِيهَا لِلإِلَهِ مُوَحَّدٌ  
 وَحَسْبُكَ فَخْرًا فِي التَّصَانِيفِ وَارِدًا  
 بِتَقْيِيدِهِ فِيهَا اعْتَنَى مِنْ يُقَيِّدُ

- ونصل الآن إلى علم من أعلام عصر شاعرنا وصديق من أعز أصدقائه الذين خاطبهم كثيراً بشعره وهو الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد الأزرق أو ابن الأزرق، وعندنا في هذا العصر اثنان يعرفان هكذا، وأمرهما يختلط حتى على الحذاق من المتأخرین والمحدثین<sup>(17)</sup>، وذلك لما بينهما من المعاصرة والمشابهة في الاسم ولقب، والواقع أن التفرقة بينهما أمر ميسور، فأخذهما أبو عبد الله محمد الأزرق الوادي آشي الكاتب الشاعر، والثاني أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق الأصبهي المالقي ثم الغرناطي وهو الفقيه شارح الشيخ خليل مؤلف بدائع السلك وغيره من المؤلفات، وقد تأخرت وفاته عن الأول وكان من أصحابه وقد ذكره في كتابه روضة الأعلام وترحم عليه<sup>(18)</sup>.

أما شاعرنا فقد عرف الرجلين معاً ولقب الوادي آشي بالأزرق، ولقب

الآخر بابن الأزرق، وكانت صلته بالأول أكثر من صلته بالثاني وبينهما مخاطبات شعرية حفظ بعضها في ديوان البسطي، وكان هذا متعلقاً بصاحبه مغالياً في الإعجاب ببلاغته يدل على ذلك قوله (60):

قالوا البلاغة خلدت آياتها  
لابن الخطيب ماثراً لم تلتحق  
فأجبتهم إن البلاغة بعده  
آياتها منسوبة للأزرق

وله فيه قصيدة طويلة مطلعها (57):

أشعرُكَ أم عَدَّ على لَبَةِ النَّحْرِ  
جواهِرُهُ أَغْلَى مِنْ الجَوْهِرِ الْبَحْرِيِّ

كلها إعجاب بـشـعـر صـاحـبـه وـبـلـاغـته، وفيـها يـقـولـ:

وِبِالْأَزْرَقِ الْفَتَانِ أَصْبَحْتُ مَغْرِمًا  
أَنْظَمْ فِي أَوْصَافِهِ رَائِقَ الشِّعْرِ  
إِمَامُ أُولَى الْأَدَابِ عِنْدَ اسْتِبَاقِهِمْ  
إِلَى الْغَايَةِ الْقُصُوِّيِّ مِنَ النَّظَمِ وَالشِّرِّ  
وَفَائزُهُمْ فِيمَا جَنَّوْا مِنْ بِلَاغَةٍ  
مَتَّمَّةُ التَّجْوِيدِ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ  
إِذَا اسْتَقَرَّ الْنَّقَادُ فِي الْفَضْلِ مِنْ مَضِي  
فَمَا مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ يُلْفِيهِ مُسْتَقْرِ  
فَقَدْ أَدْرَكَ الْمَاضِينَ مَجْدًا وَسُؤَدَّاً  
وَقَدْ أَعْجَزَ الْآتِينَ فِي آخِرِ الدَّهْرِ

وأبياتها كلها ناطقة بالإعجاب الشديد ببلاغة الأزرق وأدبه، ومثل هذا  
نجد في قصيدة جوابية مطلعها (58) :

يا سائراً للعلى في أرفع الطرق  
فقت الورى بكمال الذات والخلق  
وافي كتابك والإعجاز يصحبه  
فكلاً من رامة في العصر لم يُطِقِ  
فكان روضاً به الأزهار مونقة  
أنوارها تزدري بالبدري في الغسقِ

وقد جمعتهما بسطة تارة ووادي آش تارة أخرى وكانت لهما ذكريات  
أنس يشير إليها البسطي قائلاً (60) :

كَمْلَ الْأَنْسُ لَنَا فِي بَسْطَةٍ  
بَأْبِي عَبْدِ إِلَهِ الْأَزْرَقِ  
وَاجْتَلَيْنَا طَرَفاً مِنْ نَظِمِهِ  
نَحْنُ [مِنْهُ] فِي مَغَانِي الْأَبْرَقِ

ولما انتقل الأزرق إلى غرناطة كتب إلى صديقه البسطي فكان من  
جواب هذا قوله (58) :

ذَكَرْتَنِي يَا أَبَا عَبْدِ إِلَهِ بِهِ  
أَيَّامَ أَنْسٍ بِغَيْرِ الْقُرْبِ لَمْ تَرُقِ  
تَخَالْنِي عَنْدَمَا يَجْرِي تَذَكْرُهَا  
بِالْقَلْبِ ثُكْلَى مِنَ الْأَشْوَاقِ لَمْ تُفْقِ  
فَلَسْتُ وَاللَّهِ أَنْسِي عَهْدَهَا أَبْدَا  
مَا دَامَ فِي جَسْدِي شَيْءٌ مِنَ الرَّمَقِ  
أَمَا الْأَزْرَقُ فَيَعْبُرُ عَنْ تَعْلُقِهِ بِبَسْطَةٍ قَائِلًا عَلَى مَا نُرَجِّحُهُ :

في بسطةٍ حيثُ الأباطِحُ مُشرقةً  
أضحتْ جُفونِي بالمحاسنِ مُعلقةً<sup>(19)</sup>

وهو القائل على الأرجح أيضاً مورياً:  
قلْ لِمَنْ رَامَ النَّوَى عَنْ وَطْنِ  
قَوْلَةً لِيَسَّرْ بِهَا مِنْ حَرَجٍ  
فَرَجَ الْهَمَّ بِسُكْنَى بِسْطَةٍ  
إِنْ فِي بسطةٍ بَابَ الفَرَجِ<sup>(20)</sup>

وكانه خاطب بهما صاحبه البسطي لما ازدحم عليه الهم وقال (152):  
أَيُّهَا الصُّبُّ بِسُكْنَى بِسْطَةٍ  
يَبْتَغِي الْعِزَّ بِهَا وَالشَّرْفَا  
انْصَرَفَ عَنْهَا لِسُكْنَى غَيْرِهَا  
فَكِلا الْأَمْرَيْنِ عَنْهَا انْصَرَفَا

وقد خاطب الشاعر صديقه على طريقته وطريقة شعراء ذلك العصر  
شعر استعمل فيه التورية فمن ذلك قوله مورياً بلقب صاحبه (59):

يَا هائِمًا أَخْفِي الْهُيَامَ وَإِنَّهُ  
بَادِ عَلَيْهِ كَالصَّبَاحِ الْمَشْرِقِ  
إِنْ هِمْتَ بِالظَّرْفِ الْكَحِيلِ وَحْسَنَهِ  
فَأَنَا أَهِيمُ صِبَابَةً بِالْأَزْرَقِ

وقوله مورياً بكتاب البيان للجاحظ (59):  
إِنَّ الْبَيَانَ الْمُسْتَحِيلَ الرُّؤْيَ  
مَمْلُوكٌ فَكِرَ الْأَزْرَقَ الْحَافِظِ  
وَهُوَ الَّذِي أَبْدَى لَنَا طُرْقَهِ  
فَعْنَهُ يُرَوِي لَا عَنِ الْجَاحِظِ

ولما توفي هذا الشاعر الكاتب الأزرق رثاه صاحبه البسطي بقصيدة  
جيدة نسبت منها ما يلي (134 - 132):

قُلْمُ الْبَلَاغَةِ بَعْدَ مَوْتِ الْأَزْرَقِ  
فِي مَأْتِمٍ مِنْ حَزْنِهِ كَالْمُهْرَقِ  
هَذَا لَمَّا يُلْقَى عَبْوَسٌ وَاجِمٌ  
حَزْنًا وَهَذَا كَالْكَثِيبِ الْمُطْرِقِ  
فَكِلَّاهُمَا يَتْجَارَيَانِ مِنَ الْأَسْىِ  
لِلْغَايَةِ الْقُصُوِيِّ الَّتِي لَمْ تُلْحِقْ

وبعد أن يذكر ما رُزِقَ من بلاغة وسحر بيان كما تشهد بذلك قصائده  
التي ترددتها الرواية وكتابته التي أغنت الملوك عن الكتاب يقول متوجهاً عليه:

لَهُفِي عَلَيْهِ لَا أَزَالُ أُعِيَّدُ  
حَتَّىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي أَلْتَقِي  
فِي جَنَّةِ الْخَلِدِ الَّتِي هِيَ مَنْزِلٌ  
لِلْمُؤْمِنِ الْخَاشِيِّ الْمُطْبِعِ الْمُتَقِيِّ  
لَوْ كَانَ يُمْكِنِي الْفَدَاءُ فَدِيهُ  
بِالنَّفْسِ مَحْتَسِبًا فِدَاءَ الْمُشْفَقِ

ثُمَّ يَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ بَعْدَ أَبِيَاتٍ فِي الْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ:  
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي نَفَحَاتُهَا  
فِي الطَّيْبِ فَوْقَ الْمَسِكِ لِلْمُسْتَنْشِقِ  
خُصَّيْهِ مِنْكَ بِزُورَةٍ تَرْضِيَ بِهَا  
مِنْ مَاتَ مِنْ إِخْوَانِهِ أَوْ مِنْ بَقِيَ

وليس في هذه المرثية ومقدمتها ما يشير إلى تاريخ وفاته أو مكانها،  
ومهما يكن فإنها في رثاء الأزرق الكاتب الشاعر. وليس في رثاء ابن

الأزرق الفقيه القاضي المتوفى بالشرق، كما ذهب إلى ذلك صديقنا الدكتور محمود مكي، ونحن نعتمد في هذا على تفرقة صاحب الديوان بينهما كما مر وعلى عدم الإشارة في المرثية إلى القضاء والعلوم والمؤلفات والرحلة إلى الشرق والوفاة به وغير ذلك مما عرف به ابن الأزرق، وقد عرفنا من طريقة الشاعر في المدح والرثاء أنه يعرض لكل ما يتصل بالممدوح.

وفي هذه المرثية إشارة إلى أن المرثي كتب عن الملوك، ويبدو لي أنه صاحب القصيدة السينية في مدح الرئيس أبي يحيى ابن عاصم:  
**خضعت لمعطفه الغصون المُيس**  
**ورَنَا فهَام بمقْلَتِيه النَّرجِس**<sup>(22)</sup>

وهي قصيدة تبرهن على ما قاله البسطي في بلاغته وشعره، وقد شك المقرئ في نسبتها بعد إيرادها قائلاً: «وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة، هل هو قاضي الجماعة بغزّانطة محمد ابن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني...»<sup>(23)</sup>.

ولذا ثبت أنها للأزرق فقد تدل على أنه كان تولى الكتابة في عهد ابن عاصم الممدوح الذي أستند إليه رئاسة الحكومة سنة 856هـ.

لقد ضاعت ترجمة هذا الأزرق الذي ترجم عليه صاحبه ابن الأزرق في كتابه روضة الأعلام ونعته بالكاتب الأربع وأورد نتفاً من شعره الذي كان آية في علو الطبقة كما يبدو مما بقي منه وكما يصرح بذلك الشاعر البسطي، وأنا أذهب إلى أن معظم الشعر المنسوب إلى القاضي ابن الأزرق في نفح الطيب وأزهار الرياض - ومنه تلك التونية المجونة - هو لهذا الشاعر إذ هو بهأشبه ونسبته إليه أليق، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأرضي لابن عاصم لعرفنا من شعره وأخباره ما يزيد على ما عرفناه من ديوان البسطي.

ونقرأ في الديوان في معرض تورية الشاعر بأسماء الكتب ما يلي : (75)

«وقلت أيضاً في مثل ذلك (أي مورياً) :  
مرضت لطول البعد عنِّي سيدتي  
وأصبحت من شوقي إليكُم على شفا  
ولو جدتُم لي بالمنى من كتابكم  
لجدتم على مضناكم منه بالشفا  
وقلت أيضاً (75) :

صلوني بروضِ المحسن منْ  
كتابكم إله معجب  
فإنِّي من الأنسِ في بسطةِ  
فقيرٍ لوصلكَ مستوجبُ

جواب البيتين لصاحبنا أبي عبد الله محمد بن الأزرق:  
فَدَيْتُ قَرِيشَكَ عِقداً بِهِ  
لَا لِئَءَ مِنْهُنَّ يُسْتَغْرِبُ  
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ تِلْكَ الالَّا  
يَتَامَى وَأَنْتَ لَهُنَّ أَبُ

وهذا هو ابن الأزرق الفقيه القاضي المؤلف، والشاعر - فيما أفهم -  
بورى في البيتين الأولين بكتاب «شفاء العليل»، في شرح مختصر خليل»  
ويورى في البيتين الأخيرين بكتابه «روض أو روضة الإعلام»، بمنزلة العربية  
من علوم الإسلام». وقال فيه إنه كتاب عجيب وهذا صحيح.

أما بيتا ابن الأزرق فقد ورى فيما بكتاب اليتيمة للشعالي وأشار إلى  
قول ابن قلاقس :

أَبِيَاتُ أَفْكَارِ الْيَتِيمَةِ  
 أَبْكَأُرُّ أَفْكَارٍ قَدِيمَةَ  
 مَا تَوَا وَعَاشَتْ بَعْدَهُمْ  
 فَلِذَاكَ سُمِّيَتِ الْيَتِيمَةُ

وقد عَنَتْ لِي هَذِهِ مَلْحُوظَاتٍ أَذْكُرُهَا فِيمَا يَلِي :

- 1- زيادة على تفرقة الشاعر بين الرجلين حيث يقول في الأول «الأزرق» وفي الثاني «ابن الأزرق» فإنه يحلّي الأول هكذا: «وقلت مخاطباً الفقيه الكاتب» أو «وقلت في رثاء الكاتب»، بينما اقتصر في تحليه الثاني على كلمة «صاحبنا» ويبدو من التحليه والشعر أن الأول أي الأزرق الوادي آشي كان أكبر منه سنًا ورتبةً وأن الثاني أي ابن الأزرق الأصبهي الغرناطي كان في درجة أقرانه.
- 2- يستفاد من تورية الشاعر بكتاب الشفاء لابن الأزرق أن اسمه شفاء العليل بالعين لا بالغين وهذا يقطع الخلاف الذي أورده المقرى في النفح والأزهار بخصوص اسم الكتاب<sup>(24)</sup>.
- 3- من الغريب أن ابن الأزرق لم يشر في كتابيه «روضة الأعلام» و«شفاء العليل» إلى أبيات صاحبه البسطي في التورية بهما ولم يُجرّ له ذكرًا مع عنايته في الكتاب الأول بسرد الحكايات الأدبية والفوائد المتعلقة ببعض شيوخه وأصحابه.
- 4- جميع الذين «اكتشفوا» ابن الأزرق **بآخرة** وكتبوا عن كتابه «بدائع السلك» لم يتبنّهو إلى «الأزرق» والتفرقة بينه وبين «ابن الأزرق» ووقعوا في خلط شديد، وعلى كل حال فإن ديوان البسطي يلقي بعض الأضواء كما رأينا على هذين العَلَمَيْنَ من أعمال هذا العصر الذي ضاعت جل معالمه. هذا وقد جاء في ثبت البلوي الوادي آشي (ص 184) عند تعداد شيخ والده ما يلي: «ومن شيوخه بيلاه (وادي آش) الأستاذ

الحاج الفقيه الخطيب المتكلم القاضي العدل الصارم الأمضى المدرس المقدس المرحوم أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن قاسم بن خلف الغساني الشهير بالأزرق رحمه». وهو فيما يبدو غير الأزرق الوادي آشي الشاعر.

- وللتذكير بعد هذا بسليل البيت الملاقي النبي القاضي الخطيب أبي عمرو ابن منظور الذي يشتمل الديوان على ما يفيد من أخباره وأحواله، فقد لقيه الشاعر في بسطة وسافر للقاءه في مالقة وكانت بين الرجلين مكتبات، وأول ما نجده من شعر الشاعر فيه قصيدة يهشه فيها بقضاء الجماعة في غرناطة ويقول في أولها (65 - 66) :

بأيمِنِ وقتِ وأسعدِ ساعِه  
وليتُمْ فزِّنُتُمْ قَضَاءَ الجَمَاعَةِ  
ولحِّنْتُمْ بِغَرْنَاتَةِ بَذْرَ سَعِدٍ  
جَلَا العَدْلُ فِيهَا وَأَبْدَى شُعَاعَةَ  
وَسُكَّانُهَا اغْتَبَطُوا مِنْكُمْ  
بِأَفْضَلِ مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ جَمَاعَةِ

ويبدو أن الشاعر بعث بالقصيدة من بسطة فهو يقول:  
فَكُمْ مِنْ سُرُورٍ لَقِينَا غَدَاةَ  
الْحَدِيثَ . بِذَاكَ الْبَشِيرُ أَشَاعَةَ  
وَلَوْ كَتُمْ حَاضِرِينَ رَأَيْتَمْ  
بَدَارَ الْوَرَى يَقْصِدُونَ سَمَاعَةَ

وقد أشار في هذه القصيدة بشيء من المدح إلى سلطان غرناطة فقال:

وَفَرِّضَ عَلَيْنَا لِمَوْلَى رَآكَ  
أَهْلًا لَهَا إِنْ شَكَرْنَا اصْطِنَاعَةَ

فَقَدْ قَلَّدَ الْقُوْسَ بِارِيَهَا  
وَأَضْفَى عَلَى الدِّينِ مِنْكُمْ شِرَاعَهُ

وينبغي أن يكون هذا السلطان هو الأمير سعد المستعين بالله .  
والبسطي يمدح القاضي بالعلم والعدل ويشير إلى بيته ومن أنج  
من الأعلام فيقول :

وَبِيَتِكُمْ فَخْرٌ ذُو الْحَجَى  
غَدَا مُعْظِمًا بُعْدَهُ وَاتْسَاعَهُ  
وَأَعْلَامُهُ كُلُّ طَالِبٍ عِلْمٍ  
بِهِمْ فِي الْوَرَى كُمْ أَشَاعَ اِنْتِفَاعَهُ

وقد رجعنا إلى المصادر لمعرفة تاريخ ولايته قضاء الجماعة  
فوجדنا في نيل الابتهاج أنه «كان قاضياً بغرناطة سنة أربع وستين  
وثمانمائة»<sup>(25)</sup> كما وقفتنا في كتاب «وثائق غرناطية» على إعلامه وتوقيعه  
على رسمين مؤرخين بعام خمسة وستين وثمانمائة<sup>(26)</sup>. ويبدو أنه مكث  
مدة طويلة على رأس قضاء الجماعة فقد لقيه بها الرحالة المصري  
عبد الباسط سنة 870 هـ وأثنى عليه<sup>(27)</sup>.

أما ابن جماعة الذي لمزه الشاعر فهو الوارد في حكاية ذكرها  
أحمد بابا والمقربي وهي أنه لما صرف الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن  
رئاسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها وولي مكانه أبو عبد الله  
الشريان لقي بعض رؤوساء الدولة ابن جماعة يوماً فقال له إن السر الذي  
عهدناه في الحضرة قد غاب عنها بغيتك، فقال له: وكيف لا وقد تركتم  
الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرر»<sup>(28)</sup>. ولكن الشاعر البسطي  
حسب قوله كان يرى فيه غير ما رأى في نفسه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توقيع القاضي ابن منظور على رسم مؤرخ في فاتح عام 865هـ وصيغته: أعلم باكتفائه محمد بن محمد بن منظور القيسي وفقه الله تعالى ولطف به.  
عن وثائق عربية غرناطية.

ومن جهلت نفسه قدره

## رأى غيره منه مالا يرى

وفي الديوان أبيات أخرى في تهنة ابن منظور بالقضاء قدم لها هكذا: «وقلت في صدر رسالة (143):

لِلَّهِ نُعْمَى أَتَى مِنْهَا الْبَشِيرُ بِمَا  
 عَمَ السَّرُورُ بِهِ وَالْأَنْسُ وَالْفَرَحُ  
 وَافَتْ عَلَى طُولِ مَطْلٍ وَامْتَدَادِ مَدَىٰ  
 لِأَهْلِ بَسْطَةٍ إِسْعَافًا بِمَا افْتَرَحُوا  
 وَهِيَ الْقَضَا لَابْنِ مَنْظُورٍ أَقِيمَ بِهِ  
 فَالْعَدْلُ مَعْتَمِدٌ وَالْجَوْرُ مَطْرَحٌ»

فهل هي كالقصيدة السابقة في تهنته المذكور بقضاء الجماعة بغرنطة أم أنها في تهنته بقضاء بسطة؟ مهما يكن الأمر فالنصان يعبران عن ابتهاج أهل بسطة لما وصل إليهم البشير بخبر توليه القضاء، وفي النص الأخير أن هذه الولاية كانت باقتراح من أهل بسطة وترضية لرغبتهم وإسعافاً لطلبيهم. وقد يكون في ذلك أيضاً إشارة إلى نفوذ

الحزب الذي كانت تؤيده بسطة في هذه الحقبة.

وقد عاش ابن منظور إلى ما بعد سنة 887 هـ وعاصر الأحداث النازلة بالأندلس في ذلك التاريخ، وكانت له مواقف في الدفاع عن مالقة، ومن ذلك ما يذكره البسطي في ديوانه قال: «وقلت أيضًا مخاطبًا القاضي الخطيب أبا عمرو ابن منظور لما ورد بسطة ووادي آش يطلب من أهلهما إعانة بلده مالقة بما تيسر من المال والطعام لِمَا صَحَّ من خروج طاغية قشتالة لحصارها، وعمل قصيدتين محرّضاً بهما على ذلك وكتبهما وكتبت بعدهما أبياتاً» ثم ساق هذه الأبيات أو القصيدة ومطلعها (60):

أزعيمَ آدَابِ وعَدْلٍ فِي الْقَضَا  
قاضيَ الْهَوَى بُثُوبِ حَبَّكَ قَدْ قَضَى

وقد أشار بعد مدحه إلى قصيدته الحماسيتين وأطراهما وقال إنه أثني فيهما على وادي الأشى وبسطة:  
وكساهما بُرْد الفخار محَبَّراً  
ومفَوْفَأً ومذهباً ومفضضاً

ليس في كلام البسطي السابق أو قصيده ما يستشف منه تاريخ خروج طاغية قشتالة لحصار مالقة المذكور هنا، ويبدو أنه الخروج الذي كان في سنة 888<sup>(29)</sup>هـ وخبره مشرح في نبذة العصر، ونقول هذا لأن الوادي آشي يذكر في ثبته أن ابن منظور توفي «سنة ثمان أو تسع وثمانين وثمان مائة ودفن خارج باب إلبيررة»<sup>(30)</sup> كما يفهم من القصيدة المذكورة أن الشاعر قالها في كبيرة:

أَذْكَرْتَنِي زَمَنَ الْقَرِيضِ وَأَنْسِهِ  
وَالَّدَّهُرُ ثُوبَ الْأَنْسِ عَنْهُ قَدْ نَضَأَ

ويفهم من شكر ابن منظور لأهل بسطة ووادي آش المشار إليه في القصيدة السابقة أنهم استجابوا لدعونه وأمدوه بما تيسر لهم من المال والطعام

لإعانة إخوانهم في مقالة خصوصاً بعد تحريضه إياهم هو والشاعر البسطي .  
ولما عزم على الرحيل إلى مالقة بعد ذلك خاطبه الشاعر قائلاً :  
. (61)

كيف مقامي بعدكم سيد  
والقلب مني معكم في ارتحال  
وحالي للبين قد حوت  
مالي بعد بين والله حال  
والموت عندي بعدكم حاصل  
والعيش قطعاً من قبيل المحال  
فلتحفظوا يا سيدي عهداً  
فعهذا نحْفظه لا نزال  
بلغتم المأمول من قصداً  
في وقينا الحاضر أو في المال  
ورجا منه أن يتفضل بمكتابته فقال مورياً بكتاب اليتيمة (61):  
تفضل يا ابن منظوري بكتب  
يكون لداء شوقي كالتميمة  
فإن الكتب للكتاب در  
وكتب علايكم منه اليتيمة  
وخاطبه بعد أن عاد من سفره هذا وحلّ بمقالقة قائلاً (61):  
هنيئاً بها داراً حلّتم بربتها  
على عزة كالبدر حلّ بأسعد  
وإلا حلول البرء في الجسم والضنى  
أنت مع طبيب السقم منكم لموعده

وفي الديوان أيضاً قصيدة مشفوعة برسالة في تهنة أبي عمرو ابن منظور بتوليه ديوان الإنشاء ورئاسة كتاب الحضرة، وهذه وظيفة سامية ولها من قضاة هذا العصر أبو يحيى ابن عاصم وأبو عبد الله الشران وابن منظور هذا وغيرهم، ولا نعرف متى ولـي ابن منظور هذه الخطة الرفيعة، ويدو أن هذه الولاية كانت في الفترة الأخيرة من مملكة غرناطة ومهما يكن الأمر فقد أطرب الشاعر في مدح صاحبه بهذه القصيدة التي مطلعها (84) :

ما للرياضِ أنيقةَ الأثوابِ

مانوسةَ الأرجاءِ والأبوابِ

وبعد أبيات في معنى احتفال الطبيعة وابتهاجها بهذه البشري يقول في سبب ذلك :

ما ذاكَ إِلَّا لِلسَّرُورِ بِنَعْمَةِ

مِنْ مُنْعِمٍ مُتَفَضِّلٍ وَهَابِ

بِولَايَةِ الْقَاضِيِّ ابْنِ مَنْظُورٍ أَبِيِّ

عَمْرٍو رَئِاسَةَ جُمْلَةِ الْكُتَابِ

ومن هذا وغيره في القصيدة نفهم أنه ولـي هذه الخطة بعد القضاء، والشاعر يعتبر هذا ترقية له ويقول :

فِي حَقِّ أَنْ يُدْعَى الرَّئِيسُ وَيَرْتَقِي

حَتَّى يَنَالَ مَرَاتِبَ الْحَجَابِ

ومرتبة الحاجب في الأندلس هي أعلى المراتب كما هو معلوم. ولقد أطرب الشاعر في وصف بلاغة الممدوح وكتابته وغير ذلك من أدواته كما أثني على سلفه وأهل بيته الذين ألف فيهم كتاب «الروض المنظور في أوصاف بنـي منظور»<sup>(31)</sup>. ومما قاله في وصف بلاغته:

فَمِنْ أَبْنُ عَاصِمٍ أَوْ مِنْ أَبْنُ خَطِيبِهَا

وَمِنْ الرَّئِيسِ فَتَى بَنِيِ الْجِيَابِ

وَمَنِ ابْنُ عَمَّارٍ أَوْ ابْنُ خِصَالٍ  
وَمَنِ الْعَرَاقُ وَمَا الرَّئِيسُ الصَّابِي

ولا تقلّ الرسالة - وهي الوحيدة في الديوان - عن القصيدة من حيث تعداد أوصاف الممدوح وإظهار السرور بولايته، ويستوقفنا فيها قوله: «فَلَلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى إِسْدَاءِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِرِبِّكُتُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَرْجُو مِنْهُ سَبْحَانَهُ رَفْعُ هَذِهِ الشَّدَّةِ الْعَظِيمَةِ النَّازِلَةِ بِهَذَا الْوَطَنِ الْغَرِيبِ، الْأَخْذَةِ بِمَخْنَقِ الْبَعِيدِ مِنْ أَهْلِهِ وَالْقَرِيبِ، فَهِيَ مَقْدِمَةً لِلصَّالِحِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُنْتَجَةً، وَلِنُفُوسِ الْأُولَائِينَ يَلْفَاضُهُ النَّعْمَاءُ مَبْهَجَةً، وَلِمَحْذُورِ غَلَاءِ الْأَسْعَارِ وَطَلْبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَفَّارِ مَزْعِجَةً»<sup>(32)</sup>. وفي هذه الفقر ما يدلّ على الفترة التي أنشئت فيها هذه الرسالة كما أنها تكشف عن مبلغ صلة الشاعر بابن منظور وتعلقه بأديبه. وما حلاه به من حلٍ وأصفاه عليه من نعوت في القصيدة والرسالة المذكورتين نجد مثله عند الوادي آشى في ثبته، قال: «وَمِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قاضِي الجَمَاعَةِ وَخَطِيبُ مِنْبَرِي الْحَضْرَةِ وَرَئِيسُ الْكِتَابِ صاحِبُ الْقَلْمَ الْأَعْلَى إِلَيْهِ الْإِمامُ الْأَسْتَاذُ الْعَلَامُ الْخَطِيبُ الْمُصْقِعُ الْمُتَكَلِّمُ الرَّاوِيَةُ الْمُقْرِئُ الْمَدْرَسُ الْعَالَمُ الْعُلَمَاءُ إِلَامُ الْمَشَاوِرِ الْكَبِيرُ الْخَطِيرُ الْمَقْدِسُ الْمَرْحُومُ أَبُو عُمَرٍو مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاضِيِّ الْعَدْلِ إِلَامُ الْرَّاوِيَةِ الْحَسِيبُ الْأَصْبَيلُ الْمَقْدِسُ الْمَرْحُومُ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَنْظُورِ الْقَبِيْسِيِّ الْمَالَقِيِّ، بَيْتُهُ بَيْتُ عِلْمٍ وَبَنَاهُهُ وَأَصْالَتُهُ مَشْهُورَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ»<sup>(33)</sup>.

ويخبرنا الشاعر في مكان آخر أنه ورد على ابن منظور مرة بمقالة وخطابه بقصيدة مطلعها (83) :

مَالِيْ أَسْتَرْ وَجْدًا غَيْرُ مَسْتَورٍ

وَأَكْتَمَ الْحَبَّ فِي حَلٌّ وَتَسْبِيرٍ

ولعله قالها فيه لما كان قاضياً بمقالة، ويدرك في قصيدة أخرى أنساها في هذه المناسبة أيضاً أن الباعث على توجهه إلى مالقة هو مشاهدة هذه المدينة الجميلة وزيارة عالمها الكبير ابن منظور، وقد شكا

من التفريط في إنزاله منزلًا يليق به فقال مخاطبًا «فخر القضاة» كما نعته (83 - 84) :

ما ذا ترى في واردي من بسطة  
بلقاء مثلك تنقضي آماله  
أضحت بفندقٍ<sup>(34)</sup> ابن سالم نازلاً  
مع منزلي لا يرتضى إنزاله  
وافي يشاهد حسن مالقة التي  
رسم الجمال بها انجلی استقلاله  
ويزور منكم عالماً شهدت له  
بالعلم إعلاناً به أعماله  
فلقد سمعنا والعيان محقق  
أن ابن منظور يعز مثاله

ويبدو أن هذا الشعر في ابن منظور مما قاله فيه في بداية صلته به، وللشاعر قصيدة طويلة يظهر أنه قالها قبل زيارته لمالقة هذه، وهو يذكر أنه أنشأها «جواباً عن كتاب وصل للمرة مستفتحاً بقصيدة طويلة في الروي والعرض» ومطلعها (123 - 126) :

أفيكم على وجدي معين ومنجد  
فوجدي بكم دهري مغير ومنجد  
وفيها يخاطب الأحباب ب Malone :  
أحبابنا من أهل مالقة التي  
محاسنها شتى إذا ما تعدد

ويعبر عن رجائه في زيارة مالقة وسكنها:  
فإنما لرجو عندكم جمع شملنا  
ببلدكم فهو الشتى المبدع

ونقصدُ منها بالزيارة حضرة  
بزورتها حرّ الضلوع نبرد

ويقولُ في مخاسن هذه المدينة وما ثرها وشهرتها بالتين الذي كان يوسرُ  
منها إلى البلدان:

مدينة أعلام كبارٍ أفضال  
بآثارِهم كتبُ التواريخت شهد  
ومنبت ما قد أقسم الله باسمه  
وسورته في الذكر تتلّى وتُسردُ

ويسترسلُ في وصف مصانعها وقصورها التي تقيد الأ بصار ومحرثها الذي  
هو جنة الدنيا ومسجدها الجامع الذي ما مثله مسجد وصلاحاتها وعلمائها  
وعلى رأسهم أبو عمرو ابن منظور قاضي البلد وإمامه وخطيبه كما يصف دار  
الصنعة التي اشتهرت بها، وي مدح ساحلها ومتنزهاتها وطيب هوانها الذي ينفي  
الكسل والتبلد، ويشيد بفرسانها وحاتتها وما ثرهم التي دونها التاريخ، ثم يصف  
قلعتيها ومبنياتها والفالك الذاهبة والأية، ويختم بذكر تجارها الأجواد ومدح  
منهم صديقاً له اسمه عبد العزيز لعله هو الذي كتب بالقصيدة التي أجابه  
عنها بقصيده هذه، وأجدني مدفوعاً إلى اقتطاف قول البسطي في وصف دار  
الصناعة بالثقة:

وحيت بها ريح الصبا دار صنعة  
بأكلنافها شتى المحسن تحشد  
بناءً بديع الشكل سامي إلى السما  
قواعدَ بالأرض تبني وتعقدُ  
لحسن حناءً بأعلاه منظر  
يروق محياه العيون ومشهدُ

بِهَا تَمَّ مِنْ مَبْنَاهُ أَعْجَبْ هِيَكِلٌ  
 يُشِيرُ إِلَى عِظَمِ الْفَخَارِ وَيُرِشدُ  
 أَعْدَادَ لِإِنْشَاءِ الْأَسْاطِيلِ عَدَدًا  
 لِغَزْوِ الْعِدَى فِي الْبَحْرِ أَحْكَمَ صَنْعَةً  
 وَأَبْدَاعَ مَبْنَاهُ الْبَدِيعَ الْمُشَيدُ

وَقُولُهُ فِي وَصْفِ قَلْعَتِي مَالَقَةَ :  
 وَلَلَّهِ فِيهَا قَلْعَتَانِ تَجْلَتَا  
 بَنَاؤُهُمَا رَاقِ الْعَيْوَنَ مَشَيدُ  
 حَكْتُ شُرُفَاتُ السَّوْرِ مِنْ قَلْعَتِيْهِمَا  
 ثُغُورَ الْغَوَانِيِ الدُّرُّ فِيهَا مَنْضَدُ  
 عَلْتُ مِنْهَا الْأَبْرَاجُ فِي حَالٍ قَرْبَهَا  
 عُلُوًّا وَقَرْبًا مِثْلُهُ لَيْسَ يَعْهَدُ

إن هذه القصيدة في وصف مالقة تذكرنا بكلام ابن الخطيب والفقير  
 عمر الملاقي في وصف مالقة<sup>(35)</sup>، ولم يكن هذا الكلام غائباً عن البسطي حين  
 نظم هذه القصيدة.

وقد ختم الشاعر قصيده هذه مفتخرًا بنظمه وملمحاً إلى قصده في  
 سكنى مالقة إذ يقول لصاحب إبراهيم التاجر المذكور:

وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا أَنْ أَمْهَدَ حُبَّهُ  
 عَسَى غَرْضِي أَلْقَى وَمَا أَنَا أَقْصِدُ

ولكن هذا القصد لم يتحقق وظل الشاعر في بسطة يخاصم أهلها  
 ويشكوا أحوالها، وهو يخبرنا أنه كتب إلى صديقه عبد العزيز التاجر رسالة  
 افتحها بهذين البيتين (139):

إِلَى النَّاهِي بِالْفَقِهِ وَقُلْبِي  
لَهُ مُشَوِّي أخِي عَبْدِ الْعَزِيزِ  
أَجَلَّ أخِي مُجِيرٌ مَنْ يُواخِي  
مَنْ الْجُلَّ وَبِالْحُسْنَى مُجِيرٌ

وما قاله مرة «مخاطباً الرئيس القاضي الماجد أبو عمرو بن منظور في شأن الأحباس» (91):

يَا أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْمَأْمُولُ جَانِبُهِ  
لِحْفَظِ الْأَحْبَاسِ مِنْ عَادٍ وَمُفْتَرِسٍ  
اللَّهُ فِيهَا فَقَدْ ضَاعَتْ وَقَدْ خَرَبَتْ  
وَأَصْبَحَتْ فِي عِدَادِ الْأَرْبَعِ الدَّرَسِ  
وَلِلْمَسَاجِدِ يَسِيرِي أَمْرُ ضَيْعَتِهَا  
إِنْ حَقُّهَا دُونَ أَحْبَاسِ الْبَلَادِ نُسِيَ  
وَقَدْ أَتَكَ بِمَا تَلَقَاهُ شَاكِيَّةً  
مَعْ أَنَّهَا وُصُفتْ بِالْعَيْ وَالْخَرَسِ  
وَمُشْرِفًا وَشَهِيدَيْنِ انْظَرَنَّ لَهَا  
وَنَاظِرًا طَاهِرَ الْأَعْرَاضِ مِنْ دَنَسِ  
لَا زَالَ جَانِبُ ذَاكَ الْمَجْدِ مُرْتَفِعًا  
مُبْلِغُ الْقَصْدِ مِنْهُ كُلُّ مُلْتَمِسٍ

وسنعود فيما بعد إلى مواقف شاعرنا الفقيه البسطي في الدفاع عن الأحباس والشكوى من الإهمال الذي أصابها في تلك الأيام المحلولكة.

- ومن أعلام العصر الذين عرفتهم الشاعر الفقيه وذكرهم في ديوانه أبو عبد الله محمد الجعده، وقد خاطبه الشاعر مهنتاً بتوليه القضاء والخطابة في البيازين بغرناطة قال (120):

يا سليل القضاة من آل جعدي  
 مُتَهَى الْعِلْمِ وَالذِّكَا وَالنَّجَابَةِ  
 شرفُ الْبَيَازِينَ زادَ ظُهُورًا  
 مَذْ وَلِيْتُمْ قَضَاءَهَا وَالْخَطَابَةِ  
 وَسَتَسْمُو بِكَ الْمَرَاتِبُ حَتَّىٰ  
 تَنْتَهِي رَفْعَةً لَنِيلِ الْحِجَابَةِ  
 فَهَنِئًا بِمَا وَلِيْتُمْ هَنِيَّا  
 يَشْمَلُ الْأَهْلَ كَلَّهُمْ وَالْقَرَابَةِ

ويفهم من هذا أن ريض البيازين - وهو الحبي الشعبي في غرناطة -  
 أصبح له قاضيه الخاص به، بل إن هذا الربيض اتفصل في سنة 891 عن  
 غرناطة «فتعصب أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن سعد (الزغل) على أهل  
 البيازين وتعصب أهل البيازين مع أميرهم محمد بن علي (بوعبدل) ووقع  
 الحرب والقتال بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضًا»<sup>(36)</sup>،  
 ولا نعرف الموقف الذي كان للفقيه الجعدهال من هذه الأحداث ولكننا نعرف  
 من فتوى واردة في المعيار أنه كان مع فقهاء الأندلس الذين أفتوا بثبوت بيعة  
 أبي الحسن وبطلان بيعة ولده محمد (بوعبدل)، وقد حل في هذه الفتوى  
 المؤرخة «في أواسط شهر رمضان المظمم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» بالسيد  
 المفتى<sup>(37)</sup>.

وثمة قطعة أخرى خاطبه بها الشاعر لما ولـي قضاء بسطة، وهي (120):  
 دُرَّةُ الْفَضْلِ لِدِيْنَا وَبِعَقْدِ الْمَجْدِ وَسُطْهَةُ  
 كُلُّ مُغْرِيٍّ بِهِوَاكُمْ مِنْ مُنَاهَ نَالَ قِسْطَهَ  
 يَوْمَ عُذْتُمْ لِلْقَضَاءِ مَرَّةً أُخْرَى بِبَسْطَهَ

ويلاحظ أن البسطي لم يسمه وإنما مهد للقطعة الأولى بقوله:  
 «وقلت أيضًا مخاطبًا بعض القضاة» وللثانية بقوله: «وقلت أيضًا مخاطبًا

القاضي المذكور» ولكن اسمه مستفاد من القطعة الأولى، ويفهم من البيت الأخير في القطعة الثانية أن الجعداله تولى قضاء بسطة مرتين على الأقل، وقد وجדنا في مجموع «وثائق غرناطية» رسمأ فيه إعلام بشبنته لما كان قاضياً بمدينة بسطة، وهو «بتاريخ الثامن والعشرين لذى الحجة متم عام تسعين وثمانمائة»<sup>(38)</sup> ويخبرنا أحد البلوي الوادي آشى الذي أقام بغرنطة «عامي ثمانية وتسعة وثمانين وثمان مائة» أنه كان يدرس كتاب الجمل على شيخه الجعداله «وعاق عن التمام سفره أبقاء الله إلى بسطة»<sup>(39)</sup> وقال في ترجمة الجابري الزليجي: «ولما سافر شيخنا أبو عبد الله (الجعداله) إلى بسطة انتقلت إلى القراءة على شيخنا هذا»<sup>(40)</sup>. ويدرك أنه لما عاد الجعداله من بسطة خلال التاريخ إلى غرناطة قرأ عليه بالمدرسة التصرية. وقد توفي الجعداله بغزة متوجهاً إلى الحج عام 897هـ<sup>(41)</sup>.

الحمد لله والصلوة والسلام على محمد بن عبد الله  
 مَا حَكَمَ بِهِ مَحْلُّ الْبَنَةِ الْكَلَبِ الْأَدَمِ الْمُلَائِكَةِ  
 أَحْمَلَ بِهِ بَعْدَ اللَّهِ تَغْرِيْرَ وَإِيمَانَ السَّيِّدِ لِاسْتِخْلَافِ الْعِلْمِ  
 كَلَفَهُ بِهِ الْمُسْتَنْجِدُ وَهُوَ مَرْكَبُ الدِّيَمَةِ وَالْتَّوْقِيقِ  
 وَسَدَّ بِهِ أَوْضَاعَ حَسْرِيقِ الْأَفْرَادِ وَكَاهْلَاتِ وَالْمُعْدَثِ كَجَعِ  
 وَكَبَّ مَكْبِيرِ اللَّهِ حَمْزَةِ الْحَمْزَةِ الْمُسْمَى بِالْجَعْرِ الْمُوَعِدِ  
 حَلَمِيَّ اللَّهِ وَمَدْلِيلِيَّ سَلَمِيَّ رَسُولِيَّ الْمُنْذَرِ كَفَيْهِ دِيَمَيْ اللَّهِ الْمَكْلِيَّ

خط القاضي الجعداله (عن ثبت الوادي آشى البلوي).

- ومن هؤلاء الأعلام الفقيه الشیخ أبو الحسن علی بن داود الوادی آشی والد صاحب الثبت المعروف<sup>(42)</sup>، وفي دیوان شاعرنا قصيدة يدور موضوعها حول موقف إصلاحی هذا الشیخ، وهي تذكر أنه قدم بلد بسطة في أعقاب فتنة خطیرة نشببت بين أهلها أطال الشاعر في وصف أهواها وأضرارها فننجح في إعادة الأمان إليها وأفلح في إصلاح ذات البین بين أهلها، وكان له من الفعل الجميل ما حمده له الناس وشكروا صنيعه فيه، ولستنا نعرف هل كان هذا الموقف تطوعاً منه أم أنه قام به بتکلیف من السلطان، ويمكن أن يكون هذا الموقف الإصلاحی في أثناء تویه خطة القضاء بسطة وهذا ما لم يرد في ترجمته، والشاعر الفقيه ينعت الرجل بالعلم والصلاح ويدکر أن آثاره وفضائله سارت مسیر الشمس ويقول إنه مفخر وادي آش كما تشير القصيدة إلى أن مقامه في بسطة كان قصيراً، ويبدو - إذا صح ما افترضناه - أنه اعتذر عن قضاء بسطة بعد مدة قصيرة - كما تورع عن قضاء غراناطة بعد نحو شهر حسبما جاء في ترجمته، وثبتت القصيدة المذکورة فيما يلي نظراً لفائتها ولكونها مخطوطة (128 - 129) :

الحسن ملزم که دمازه کاسعار شرک لله وسنه که ونفعه  
 بصر کعنی صحیح وکتب بحکای احمد عما احمد عبد الرحمن  
 البلوی و فیصله اللہ ولهم به حامل السنه و مصلحته علی نیس  
 محمد صلی اللہ علیہ وسلم

خط أبي الحسن البلوي الوادي آشی (مخطوط ثبت الوادي آشی في الأسكندرية).

مَحْلُ الْعِلْمُ حَقًا وَالصَّالِحُ  
 وَأَعْلَى مَنْ تَحْلَى بِالسَّمَاحِ  
 وَمَنْ أَصْحَّ لَهُ ذَاتٌ تَنَادِي  
 بِخُسْنِ الْبَشَرِ حَيًّا عَلَى الْفَلَاحِ  
 وَمَنْ سَبَقَ الْأَمْاجَدَ إِذْ تَجَارَوْا  
 وَرَامُوا السَّبَقَ بِالْمَجْدِ الْصُّرَاجِ  
 وَمَنْ آتَاهُ فِي الْفَضْلِ سَارَتْ  
 مَسِيرَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ الْلَّيْلَ  
 قَدِيمُتُمْ بِسَطَةً وَالْأَمْنُ عَنْهَا  
 لَفْتَتِهَا الْعَظِيمَةُ دُوِ اِنْتَزَاحِ  
 بِأَفْقَدِهِ لِمَا نَخْشَى مِرَاضِ  
 وَنِيَّاتِ لِمَا نَرْجُو صِحَّاحِ  
 وَلَيْسَ بِهَا سِوَى ضَرْبٍ وَطَعْنِ  
 بِمَغْهُودِ الصَّوَارِمِ وَالرَّمَاحِ  
 وَحَرْبٍ صَعْبَةٍ دَارَتْ رَحَامَاهَا  
 عَلَى الْأَرْوَاحِ بِالْحَيْنِ الْمُتَاحِ  
 وَقَدْ صَمَّتْ بِهَا الْآذَانَ سَعِيًّا  
 لِقَعْقَعَةِ السَّلَاحِ وَالصَّيَاحِ  
 وَرَدَتْ أَعْيَنَ الْبَصَرِاءِ تَعْمَمِي  
 لِسْفَكِ دَمٍ وَمَالِ مُسْتَباحِ  
 وَدِينِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ مَا لَا  
 خَفَاءَ بِهِ لِدِينِ الْحَقِّ مَاحِ  
 وَمَا مَنَّا سِوَى سَكَرَانِ هَمَّ  
 وَغَمَّ، لَيْسَ مِنْ سَكِيرٍ بِصَاحِ

عليل القلب مسلوب اصطبأ  
 مريض الفكر مكسور الجناح  
 فداوينتم بها العلل اللواقي  
 قد اتضحت بها أي اتضاح  
 ونزلتم منزلاً في الحال فيها  
 مقاصدكم وفرزتم بالنجاح  
 وأصلحتم فساداً كان أعياناً  
 فعاد بها الفساد إلى الصلاح  
 وصالحتم بها بين الأعادي  
 فعادوا صالحين بلا اصطلاح  
 وجئتم من جيل الفعل فيها  
 بكل منى رجونا واقتراح  
 فشكراً صنيعكم فرض علينا  
 كشكراً الغيث مغرباً البطاح  
 ولكن ساءنا عجل ارتحال  
 رأينا العذر عنه ذا انطراح  
 ومغنى سرنا بكم مساءً  
 أساء بينكم عند الصباح  
 قصدناه بأفلاة إليكم  
 على طول النوى ذات ارتياح  
 فألفينا مهجوراً خلاءً  
 لفرقـة تلـكم الفـرـر المـلاحـ  
 فـعـذـنا مـنـهـ والأـحـشـاءـ جـمـرـ  
 وـدـمـعـ العـيـنـ هـامـ ذو اـنسـيـاحـ

أبا الحسن بن داود عليه  
 وحيـد زمانه الحـسن المـناحي  
 ومـفـخر وادـيـاش عـلـى سـواـها  
 بـنـشـرـ الـعـلـمـ مـنـ شـتـىـ النـوـاحـيـ  
 إـلـيـكـ بـعـثـتـ مـنـ نـظـميـ بـعـقـدـ  
 لـجـيدـ جـلـالـكـ العـالـيـ مـبـاحـ  
 عـقـودـ الدـرـ يـفـضـحـ حـينـ يـجـلـ  
 بـتـرـتـيـبـ وـأـلـفـاظـ فـصـاحـ  
 فـخـذـهـ كـمـ اـقـضـاءـ الـحـبـ وـاسـمـخـ  
 فـأـئـتـمـ قـدـ عـرـفـتـمـ بـالـسـمـاحـ  
 فـمـثـلـيـ مـاـ عـلـيـهـ فـيـ نـظـامـ  
 نـعـيـتـ بـهـ إـلـيـكـمـ مـنـ جـنـاحـ  
 بـقـيـتـ كـمـ تـحـبـ قـرـيرـ عـيـنـ  
 وـبـالـمـأـمـولـ صـدـرـكـ ذـوـ اـنـشـراـحـ

ومن هذه القصيدة تبدو مكانة الرجل الذي كان من أعيان الأندلس في  
 هذه الفترة، ويؤكد ذلك أنه كان ثالث الخمسة عشر الذين أفتوا بتأكيد بيعة  
 السلطان أبي الحسن النصري وعدم شرعية بيعة ابنه أبي عبد الله<sup>(43)</sup>.  
 - ومن فضلاء عصره من أهل المرية الفقيه أبو جعفر أحمد بن القصار،  
 وقد رأينا ما سلف أنه كان ذات مرة في المرية فلعله عرف هذا الشيخ بها،  
 وهو يخبرنا أنه كتب إليه رسالة وخطابه في صدرها بآيات مستعيراً منه كتاب  
 تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ومورياً بكلمة القصار<sup>(67)</sup>:

يا سـيـداـ مـقـدارـهـ مـاـ مـثـلـهـ  
 مـنـ بـيـنـ أـقـدـارـ الـوـرـىـ مـقـدارـ  
 وـمعـظـمـاـ عـكـفـتـ عـلـىـ تـعـظـيمـهـ  
 لـجـلـالـهـ وـجـمـالـهـ الـأـبـصـارـ

ثوبٍ من اللّغةِ التي أحتاجُها  
 عندي لِنَصْ كُمالٍ استقرَّا  
 وعليكم تكميله بصحاحكم  
 نَصْ الثياب يُزيله القصار  
 فتفضّلوا منه على بنعمةٍ  
 تُسرِي لِكُم بثنائهما أشعار

وعدت هذا الشيخ من أهل المربية لأنني وجدت القلصادي يذكره في رحلته عند الحديث عن وصوله للمرية عائداً من الحج عام 855هـ ويقول: «ووجدت بها (أي بالمرية) أكثر أصحابنا كالشيخ بركة الوقت الفقيه الإمام العلام المقرئ المدرس الخطيب سيدى و محل ودى واعتقادى أبو جعفر أحمد بن القصار حفظه الله»<sup>(44)</sup>. وجعله أحمد بابا غرناطياً ونقل كلاماً لابن الأزرق الفقيه في التعريف به<sup>(45)</sup> وقد وقفت على ذكر محمد بن أحمد القصار من عدول بسطة في سنة 890هـ (وثائق غرناطية: 92) ولعله ولد المذكور.

- ونجد في الديوان بيّن يهْنَء بها القاضي الشريفي وقد صدر بها رسالة إلى المذكور وهي<sup>(46)</sup> (134):

يقلُّ بشارةً لسرورِ نفسِي  
 تليدُ المالِ عَنِّي والطريقُ  
 غَدَاءَ أَتَ البشيرُ يقولُ جهراً  
 أُعيَدُ إلى القضايا القاضي الشريفيُّ

وفي مجموع «وثائق غرناطية»<sup>(46)</sup> رسوم يعلم بثبوتها وهي مؤرخة بعام 858هـ ومن هذا نعرف تاريخ هذه التهنة، وقد اجتمع بهذه الرحالة المصري عبد الباطن في مالقة سنة 870هـ وقال إنه كان قاضي الجماعة بغرناطة<sup>(47)</sup>.

كما عده البلوي الوادي آشي في شيخ والده (الثبت: 189 - 191).

- وفي الديوان أيضاً بيتان يورّي فيهما باسم الفقيه أبي الحسن علي بن عتيق وهما (152):

شُغِّفْتُ بِهِ عَزًّا عَتِيقًا جَوَادُه  
يُسَابِقُ بِالْمَيْدَانِ كُلَّ فَرِيقٍ  
عَجِبْتُ لَهُ يُعْزِى لَهُ السَّبْقُ فِي الْمَدَى  
وَلَا عَجَبٌ أَنْ يُسْبِقَ ابْنُ عَتِيقٍ

وقد وصف هذا الشيخ في ثبت الوادي آشي بأنه «الإمام الخطيب المقرئ العلامة أبو الحسن علي بن عتيق بن العز»<sup>(48)</sup> وذكر أنه كان عمدة في القراءات.

- ومن قضاة العصر الذي خاطبهم الشاعر بشعره القاضي ابن أبي البقاء، والبسطاني يشكوا من مبلغ قليل من المال وجهه القاضي إليه مع أحد أعوانه، فأخذ العون ببعضه، ووجد الشاعر فيها وصل إليه نقداً زائداً، كما يشير إلى إيثار القاضي أحد منافسي الشاعر وتخصيصه بالحظ الأوفر من العطاء (79):

أَجُورًا وَمِنْ تَلْقَائِكُمْ يُطْلَبُ الْعَدْلُ  
وَيُلْتَمِسُ الْإِحْسَانُ وَالْجُودُ وَالْفَضْلُ  
وَظُلْمًا وَحَاشَا مَجْدَكُمْ أَنْ يَحْرَكُمْ  
إِلَيْهِ جَهُولٌ لَمْ يَزَلْ طَبْعَهُ الْجَهَلُ  
بِذَلِكُمْ فَأَكْثَرْتُمْ لَهُ عِنْدَ بِذَلِكُمْ  
وَصِبَّتُ الْفَتَنَ فِي النَّاسِ يَنْشُرُهُ الْبَذْلُ  
وَأَعْلَيْتُمْ مَقْدَارَهُ بِفَعَالِكُمْ  
وَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ يَعْلُو  
وَخَلَقْتُمُونِي يَا أُولَى الْفَضْلِ وَالنَّدَى  
وَحَظَّيْتُ كَمَا تَدْرُونَ مِنْ بِذَلِكُمْ قُلْ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَدِي الْخُبْرُ زَائِفٌ  
 لِكَانَ لَهُ مِنْ مَهْجِتِي جَانِبُ سَهْلٌ  
 وَلِي تُهْمَةُ الْعَوْنَى فِي أَخْذِ بَعْضِهِ  
 وَتَغْرِيْهُ مَا إِنَّ لَهُ غَيْرُكُمْ أَهْلُ  
 وَمَا حَظِّهِ إِلَّا يَسِّرُ لِنَصِيفِ  
 وَفِي خُلَّةِ الْإِنْصَافِ لَيْسَ لَكُمْ مِثْلُ

وَلَمْ نَقْفُ عَلَى تَرْجِمَةِ ابْنِ أَبِي الْبَقَاءِ هَذَا الَّذِي رَبِّاهَا كَانَ قَاضِيًّا فِي بَسْطَةِ  
 وَلَعَلَّهُ مِنْ وَلَدِ الْقَاضِيِّ أَبِي الْبَقَاءِ خَالِدِ الْبَلْوَى.

- وَمِنْ هُؤُلَاءِ الْقَضَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُمْ خَبْرًا فِيهَا رَجَعْنَا إِلَيْهِ  
 مِنَ الْمَصَادِرِ الْكَاتِبُ الْقَاضِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَعْنَى<sup>(49)</sup>، وَقَدْ مَدَحَهُ  
 الشَّاعِرُ بِقُصْدِيَّةٍ مَطْلُوعَهَا (97) :

يَا عَلَمَ الْوَقْتِ فِي الْقُضَايَا  
 عِلْمًا وَدِينًا وَفَضْلَ ذَاتِ

وَنَرِى الشَّاعِرَ فِي آخِرِ هَذِهِ الْقُصْدِيَّةِ يَقْدِمُ طَعَامًا إِلَى هَذَا الْقَاضِيِّ الْمُعِينِ  
 بِبَسْطَةِ فِي الْعَالَبِ مُثْلًا صَنَعَ مَعَ الْقَاضِيِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ مَالِكَ، وَهُوَ  
 يَسْتَعْدِيهِ عَلَى خَصْوَمِهِ مِنَ الْعَدُولِ عَلَى مَا يَظْهَرُ وَيَطْلُبُ حَمَائِتَهُ، قَالَ (98) :

خَذْ سَيِّدِي النَّرْزَ مِنْ طَعَامِي  
 صُحْبَةَ نَظَمِي إِلَيْكَ يَا تِي

فَقَدْرُكَ الْفَخْمُ لَيْسَ يُلْفِيَ  
 مُثْلِي هَنَا مَالَهُ يَوَاقِي

وَلَوْ وَهَبْتُ الْغَدَاءَ نَفْسِي  
 قَلْتُ لَكَ النَّفْسُ فِي الْهِبَاتِ

فَاقْبَلْتُهُ مِنِّي قَبْوَلَ فَضْلِ  
 رَغْمًا عَلَى الْأَنْفِ مِنْ عِدَاتِي

واصدَعْ صِفَةَ الْجَمِيعِ مِنْهُمْ  
 بِفَعْلِكَ<sup>(٢)</sup> صَدَعُهُمْ صَفَاتِي  
 وَكُنْ لِرَاجِيكَ خَيْرَ حَامِ  
 فَأَنْتَ مِنْ أَفْضَلِ الْحُمَّاءِ  
 وَلِتَلْقَهُمْ مُقْدِمًا مُعَدًا  
 بِالْتُّرْسِ وَالسِيفِ وَالْقَنَاةِ

- ومن فضلاء بلده بسطة أبو بكر ابن لبوا وقد أجباه الشاعر على  
 قصيدة تلقاها منه بقصيدة طويلة مطلعها (115 - 118):

حَلَّتْ بَعْدَ حَجْبِ حُسْنَهَا لِلنَّوَاطِرِ  
 فَأَصْبَحَ مَشْغُوفًا بِهَا كُلُّ نَاظِرٍ

وبعد أبيات في وصف القصيدة يقول:  
 أَتَتْ مِنْ وَحِيدِ الْعَصْرِ نَجْلَابِنَ لَبَوَةِ  
 أَبِي بَكْرِ الْأَرْضِي سَلِيلَ الْأَكَابِرِ

ثم يمدح شعره وكتابته ويذكر أنه من بيت علم ويصف طريقته في  
 الوعظ والتذكرة فيقول:

وَوَعْظٌ وَتَذَكِيرٌ إِذَا مَا جَلَّهُمَا  
 فَلِيَسْ سِوَى هَامٍ مِنَ الدَّمْعِ هَامِرٌ  
 لِعَمْرِي لَقَدْ أَحْيَا بِمَا اخْتَارَ مِنْهُمَا  
 لِإِلْقَائِهِ لِلخُلُقِ مَوْقِعَ الْخَوَاطِرِ  
 فَكُمْ مَذْنِبٌ مَا جَنِي مَتْرُوحٌ  
 لِتَأْثِيرِ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ زَوَاجِرٍ  
 وَكُمْ بَاذِلٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ جَهَدَهُ  
 يَرْوُحُ وَيَغْدُو بَيْنَ تَالٍ وَذَاكِرٍ

تلطفَ في استعطافِهِمْ دونَ هدْيِهِمْ  
 بناءً من الوعظِ البليغِ وزاجر  
 وقصدٍ جميلٍ لا خفاءَ بحسينِهِ  
 وصدقِ رجاءٍ في صفاءِ السرائر  
 إذا المرءُ في تذكاريَ كانَ صادقاً  
 تأثيراً إعجاباً بهِ كُلُّ حاضرٍ

ولعلَ صاحبهِ أبا بكرٍ هذا هو المعنىَ بهذهِينَ الـبيتينِ الـواردينِ بعدَ  
 القصيدةِ المذكورةِ (118):

سحرتَ أبا بكرٍ حبيبيَ مهجنِي  
 بنوعِ من الشِّعرِ الشَّرِيفِ غريبٍ  
 فأصبحتُ أروي عنكَ منهُ قصائداً  
 هيَ السُّحرُ لكنْ مِنْ نظامِ حبيبٍ

وإنما اعتبرتَ هذا الرجلَ من أهلِ بسطةِ لآني وقفتَ في «وثائقِ غرناطية»  
 على رسم يشير إلى دار ابن لبوا بالرحبةِ من داخلِ بسطة، والرسم مكتوبُ في  
 الخامسِ والعشرينِ لـشعبانِ من سنةِ اثنتينِ وأربعينِ وثمانِمائةَ (80).

- وثمةَ أعلاماً ذكرهم ولم نقف على تراجمهم أو شيءٍ من أخبارهم في  
 المصادر الموجودة، ومنهم قاضي بسطة ابن الأحوال الصبي الذي هجاه الشاعر  
 كثيراً، وابن مفضل قاضي بسطة، وقد انتقده الشاعر ثم رثاه بعد موته،  
 وسنعرضُ لهذا الشعر في فصل قادم، ومنهم أحمد بن القاضي الذي يقولُ فيه  
 (81)

لِلْفَضْلِ أَقْوَامُ أَقَامُوا رَسْمَهُ  
 مِنْهُمْ حَقِيقَاً أَحْمَدُ بْنُ الْقَاضِي  
 لَكَنَّهُ عِنْدِي الْمَقْدَمُ وَحْدَهُ  
 فِي ذَا الزَّمَانِ وَفِي الزَّمَانِ الْمَاضِي

وقد يكون أحمد بن القاضي المذكور هو الذي تحدث عنه أحمد بابا في نيل الابتهاج بقوله (159): «وتوفى أخوه الفقيه الحاج الخطيب الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي هو سنة سبع وستين وثمانمائة» أو لعله القاضي الشريف أبو العباس أحمد الذي تقدم ذكره.

- وأبو الحسن الرندي الذي يذكره مستعملًا الجناس في هذين البيتين :

إِذَا مَا قَضَيْبَ الْبَانِ مَالَتْ بِهِ الصَّبَا  
وَأَفْصَحَ طِيرُ الْأَنْسِ فِي غُصْنِ الرَّنْدِ  
يُهِيجِنِي شَوْقِي وَيَجِدُنِي الْهَوَى  
إِلَى الطَّالِبِ الْأَرْكَى أَبِي الْحَسِنِ الرَّنْدِي

والشاعر الفقيه يستعمل كلمة الطالب وهي في استعمال الأندلسين المتأخرین والمغاربة مرادفة لكلمة الفقيه.

ويقول في شخص آخر يدعى ابن الأمين الشطيني (80):

إِيَّاكَ أَنْ تَجْهَلَ يَا مَصَاحِبِي  
قَدْرَ الْفَقِيهِ ابْنِ الْأَمِينِ الشَّطَنِيِّ  
فَإِنِّي وَاللَّهِ أَرْجُوُهُ بَأْنَ  
يَكُونَ أَسْتَاذًا لِهَذَا الْوَطَنِ

ويبدو أن المذكور منسوب إلى حصن الشطينين، وفي نبذة العصر ذكر سقوطه وخروجه من يد المسلمين سنة 879هـ<sup>(81)</sup>.

وكذلك الإخوة بنو أيوب من برشانة الذين زارهم الشاعر أو كتب إليهم قصيده التي مطلعها: (131 - 132) :

لَلَّهِ مِنْ بَرْشَانَةَ بَلْدُ  
بِالْحَسِنِ فِي الْبُلْدَانِ مُنْفَرِدٌ

وبعد أن امتحن طبيعتها الجميلة قال مختلصاً إلى مدح أصحابها بني  
أيوب :

وَهُوَى الْدِيَارِ مِنْ أَجْلِ سَاكِنِهَا  
لَا يُتَرَى فِي شَأنِهِ أَحَدٌ  
لَا سِيمَا إِنْ كَانَ مِثْلَ بَنِي  
أَيُوبَ فِي الْفَضْلِ الَّذِي اعْتَمَدُوا  
فَهُمُ ثَلَاثَةُ إِخْرَوْهُ وُصِفُوا  
بِنَاقِبٍ مَا إِنْ هَا عَدَّ  
فَخَطَّبُوهُمْ وَالْقَاضِي مَا لَهُمَا  
كَوْزِيرُهُمْ نِدٌ إِذَا انتَقَدُوا  
هَذَا مَوَاعِظُهُ بِلَاغْتُهَا  
عَنْهَا اسْتِبَانَ الْغَيُّ وَالرَّشْدُ  
وَلَذَا إِذَا أَحْكَامُهُ اتَّضَحَتْ  
عَدْلُ بَهِ الْحَكَامُ مَا عَهَدُوا  
وَمَحْلُّ هَذَا مِنْ كَفَائِتِهِ  
مِنْ دُونِهِ الْمِيزَانُ وَالْأَسَدُ  
وَرَدُوا مَوَارِدَ مَجِدهِمْ نَسَقاً  
فَرَوَوْا مِنَ الْمَجْدِ الَّذِي وَرَدُوا

وفي هذا شبه تعريف بهؤلاء الإخوة الأعلام الذين كان أحدهم وزيراً  
والثاني قاضياً والثالث خطيباً إلا أن الشاعر لم يذكر أسماءهم . ولم أقف على  
شيء يتصل بهم .

- كما ذكر آخرين من أهل المعرفة يدعيان بابني القفال أحدهما أبو علي  
حسن بن القفال والثاني أخيه حسين ، وقد اشتهرتا في وقتها بحسن الخط ،

ولأبي علي منها مؤلف في الأمثال العامية، وهذا ما استفدناه من قول  
البسطي<sup>(81)</sup>:

إِنْ أَبْنَى الْقَفَالِ فِي عَصْرِنَا<sup>١</sup>  
كَلَاهُمَا فِي خَطْهِ مُحَسِّنٌ  
لَكُنْ حَسِينٌ مِنْهُمَا خَطْهُ  
أَشْكَالُهُ فِي وَضْعِهَا أَحْسَنُ  
وقوله وقد كتبه على ظهر الأمثال العامية لأبي علي القفال (106):  
لِلَّهِ دَرَ عَلَيْهِ إِنَّهُ  
فِي أَنْسِهِ أَذْكَى بَنِي الْقَفَالِ  
وَلَهُ انتهَى الظَّرْفُ الَّذِي مَا مَثَلُهُ  
فِي ذَا الزَّمَانِ وَلَا الزَّمَانِ الْخَالِيِّ  
دَلَّتْ عَلَيْهِ دَلَائِلٌ لَا تَحْتَفِنِي  
مِنْهَا الْمُجِيءُ بِهِذِهِ الْأَمْثَالِ  
فَلَقَدْ أَتَى مِنْهَا بِمَا رَاقَ النَّهْيِ  
وَقَضَى لَهُ فِي النَّاسِ بِالْإِجْلَالِ  
حَفْظَ إِلَلَهِ مِنَ الْمَكَارِهِ ذَاتَهُ  
وَحْبَاءُ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ

وإن هذا الوصف أو التقرير لكتاب الأمثال الأندلسية هذا يجعلنا  
ن تتطلع إلى ظهوره ونرجو عدم فقدانه إذ لا شك أنه يضيف - لو وجد - ثروة  
في تراث الأمثال الأندلسية التي دونها الزجاجي القرطبي وابن عاصم الغرناطي .  
- وكما مدح البسطي ابن القفال بحسن الخط فقد مدح خطاطاً آخر  
اسمه عبد الملك وعبر عن إعجابه بخطه في قصيدة أولها (66):

هَكَذَا يُعْتَنِي بِكُتُبِ الْعُلُومِ  
فِي حَدِيثِ الزَّمَانِ أَوْ فِي الْقَدِيمِ

وَتُحْلِي الْمَهَارِقُ الْبَيْضُ مِنْهَا  
بِحُلَّ خَطٌّ فَاقَ وَشَيْ رَقِيمٍ

وهو يصف جمال هذا الخط وينتُ صاحبه بالإجاده والاختراع ثم  
يسميه قائلًا :

مَا كَعْبَدِ الْمَلِيكِ كَاتِبُ خَطٌّ  
بَارِعُ النَّوْعِ فِي الْخُطُوطِ قَدِيمٍ  
فَاقَ خَطٌّ ابْنِ مُقْلَةً وَابْنِ بَاقِ  
وَابْنِ جَبِيرٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْوِ  
مَا تَبَدِّي لِنَاظِرِ الْعَيْنِ حَرْفٌ  
مِنْهُ إِلَّا دَعَا لَهُ بِالنَّعِيمِ

ويقول إنه نسخ الكثير من المصاحف والكتب بخطه :

كُمْ كِتَابٌ وَمَصْحَفٌ كَفَهُ خَطْتُ  
لَهُ تَبْغِي رِضَى إِلَهِ الْعَظِيمِ

ويشير الشاعر إلى نسخة بخط المذكور من رسالة ابن أبي زيد القيررواني لعلها كانت في حوزته، ولا نعرف الآن شيئاً عن هذا الخطاط، وربما ضاع ما خطه بيمنيه في تلك الأيام العصيبة. أما ابن باق وابن جبير فلعلهما من الخطاطين الأندلسين.

- وثمة في الديوان شخص يدعى أبا الرضى وقد مدحه بالكرم مرتين،  
وذلك في قوله (78) :

لأَبِ الرَّضِىِّ فِي الْفَضْلِ فَضْلُ ظَاهِرٍ  
مَا نَالَهُ الْجَمُّ الْفَضَائِلُ حَاتِمٌ  
خَتَمَ إِلَهُ بِفَضْلِهِ فِي عَصْرِنَا  
أَهْلُ الْفَضَائِلِ فَهُوَ فِيهِ الْخَاتِمُ

قوله : (79) :

صَرَبُوا بِحَاتِمٍ طَبِيعَةً أَمْثَالَهُمْ  
فِي الْجُودِ لَا فَاقَ فِيهِ مَنْ مَضَى  
تَالَّهُ لَوْ بَلَغُوا إِلَى أَزْمَانِنَا  
لَمْ يَصْرِبُوا مُثْلًا بَغْيَرِ أَبِي الرَّضِيِّ

ويبدو أن الشاعر مدح في القولين «القائد أبو الرضى بن دعمون» من قواد غرناطة في هذه الحقبة، وقد ورد ذكر ابنته «المصونة فاطمة بنت القائد أبي الرضى بن دعمون» في رسم بيع مؤرخ في ربيع الأول عام تسعمائة. (وثائق عربية غرناطية : 141).

وله قصيدة ذكر أنها قالها معرضاً يخاطب فيها شاعراً من أهل بسطة اسمه مفضل ، وهو يقول في أولها (47) :

مَا زَلْتَ تَحْرُزُ حَصْلَ السَّبْقِ فِي الْأَدْبِ  
حَتَّى أَتَيْتَ مِنَ الْإِحْسَانِ بِالْعَجَبِ  
فَكَلَّا أَنْظَهَرَ التَّسْلِيمَ مُعْتَرِفًا  
بِالْعَجَزِ عَنْ نِيلِ مَا قَدْ نَلْتَ مِنْ رُتبِ

وبعد أن مدح في الظاهر شعره ونشره وعنائه بالبديع ويدرك تصدر الناس له وفضيلهم إياه يقول :

فَدُمْ لِبَسْطَةَ تَكْسُوهَا بِدَائِعُكُمْ  
مِنَ الْمَفَارِخِ مَا يَقْنَى عَلَى الْحِقَبِ

ويختتم القصيدة بهذا البيت :

قَلْنَا مَفْضَلُ أَعْلَى الْخُلُقِ مِنْزَلَةً  
وَعُلُوُّهُ وَاضِحٌ مِنْ حُرْفَةِ الْأَدْبِ

وهذا كله لا يحمل على المدح لأن الشاعر قصد فيه إلى التعریض بهذا الشاعر الذي أصابته حرقـة الأدب.

وقد وقف شاعرنا الفقيه «على بيـن من نظم شاعر إليه انتهـى فيـها استفاضـت التخرـج» فقال:

ولـا بـدا لي مـنهـما ما رـأيـته  
[ مـن الصـعـف ] . . . . .  
سـأـلـت خـليلـي ما الجـزـاء عـلـيـهـما  
فـقـالـ الجـزا صـفـع الـقـفا أو يـذـبـح

وبـيدـو أنهـما فيـ مـفـضـلـ المـذـكـورـ.

- ومن فقهاء العصر الذين كاتبـهم الشاعـر وكتابـوه أبو عبد الله التلمـسـاني والشاعـر يـصـفـه بـوحـيدـ العـصـرـ وأنـهـ يـزـرـيـ فيـ الفـروعـ بـأـحمدـ وـفيـ الشـعـرـ بـحسـانـ وأنـهـ أـحـرـزـ فيـ السـيـاسـةـ ماـ لـمـ يـحـرـزـهـ بـنـوـ سـاسـانـ، وـكـلـ هـذـاـ مـاـ جـلـبـتـهـ قـافـيـةـ  
الـنـونـ، وـيـقـولـ (64 - 65) :

فـأـصـبـحـتـ فـرـداـ لـاـ يـرـىـ لـكـ مشـبـهـ  
بـأنـدـلـسـ حـتـىـ لـأـقـصـيـ خـرـاسـانـ  
فـإـنـ قـيلـ مـنـ هـذـاـ الذـيـ بـانـ فـضـلـهـ  
أـقـولـ أـبـوـ عـبـدـ إـلـهـ التـلـمـسـانـيـ  
سـبـيلـ الـقـضـاءـ الـمـطـغـرـيـيـنـ رـفـعـةـ  
فـدـعـ ذـكـرـ لـخـمـ أوـ جـذـامـ وـغـسـانـ  
حـفـظـتـ لـهـ وـدـاـ تـقـادـمـ عـهـدـهـ  
تـرـىـ أـحـفـظـ الـوـدـ الـقـدـيمـ وـيـنسـانـيـ  
وـأـكـسـوـهـ ثـوـبـ الـمـدـحـ مـاـ عـشـتـ ضـافـيـاـ  
كـمـ أـنـهـ ثـوـبـ الـمـدـائـحـ أـكـسـانـيـ

ولا نعرف على وجه التحقيق من هو هذا العالم التلمساني، فقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني الكفييف (824 - 901هـ). وقد أطال الوادي آشي صاحب الشبت في ترجمته، وقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق الحفيد (766 - 842هـ) الذي أخذ عنه القلصادي معاصر الشاعر وترجم له في رحلته (96 - 98). وقد يكون أحد هؤلاء الشرفاء الحسنيين التلمسانيين الذين منهم القاضي الشريف المتقدم.

وكلمة المطغرين الواردة في الأبيات نسبة إلى مطغرة تلمسان .  
- ونشير كذلك إلى أحد أصحابه محمد اللحياني الذي ارتجل في رثائه عندما بلغه موته هذه القطعة :

صَبْرِي لَمُوتِ مُحَمَّدِ اللَّحِيَانِ  
مَتَعْذِرٌ إِدْرَاكُهُ أَعْيَانِ  
قَدْ خَانَنِي جَلَدِي وَأَسْلَمَنِي العَزَا  
لَعْظِيمٌ مَا أَلْقَى مِنَ الْأَسْجَانِ  
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ يَوْمِ وَفَاتِهِ  
دَمْعِي يَصُوبُ دَمًا مِنَ الْأَجْفَانِ  
حَتَّى نَعَى النَّاعِي بِصَحَّةِ مَوْتِهِ  
فَجَرَى بِصَفْحِ الْخَدَّ كَالْعَقِيَانِ

- ولا ننسى في الأخير الإشارة إلى من سماه بالقائد الفنشي وقد عبر عن إعجابه بجماله وأدبه في قصيدة أو لها:

رَعَى اللَّهُ - مَا دَارَ الزَّمَانُ - عَشِيشَةً  
تَحَلَّتْ بِمَرَأِي وَجْهٍ قَائِدَنَا الفَنَشِي

وَآخِرَهَا :  
سَمِعْتُ بِهِ يَوْمًا فَلِمَ رَأَيْتُهُ  
رَأَيْتُ مَحِيًّا الشَّمْسَ بَيْنَ الْوَرَى يَمْشِي

وبعد فهؤلاء هم الأعلام الذين وجدنا لهم ذكرًا في ديوان الشاعر، وقد بذلنا ما في وسعنا من أجل معرفتهم ومعرفة شاعرنا من خلاهم.

ولعلنا نستغرب في الأخير عدم تسميته أو إشارته إلى بعض الأعلام البسطويين وغيرهم من ذكروا في رحلة القلصادي وبرنامج المخاري وبرنامج المتوري وثبت الوادي آثبي، كما نستغرب سكوت هذه المصادر عن ذكر صاحبنا.

## الحواشي

- (1) على هذه المصادر اعتمد كل من الفقيه لويس سيكودي لوثينا في كتابه: محمد IX سلطان غرناطة ص.ص. 56، 135، 137، 145، 158، 183، 185، 188، 189، 206، 214، 222، 224، 225. وكذلك الدكتورة راشيل أريبي في أطروحتها: إسبانيا المسلمة في عصر النصريين ص.ص. 132، 142. وللفقيه لويس سيكودي مقالة حول أسريتي ابن عبد البر وابن كماشة.
- (2) نيل الابتهاج: .313
- (3) المصدر نفسه.
- (4) ديوان البسطي: 31-32. والقصيدة مؤلفة من تسعه عشر بيتاً بعدد أوائل الاسم المذكور، ومن أشهر نماذج هذا الضرب من الشعر أبيات المعتمد في اسم اعتماد الرميكية، انظر الحلة السيراء 2: 41 تحقيق د. حسين مؤنس.
- (5) مظهر النور الباسمر في أمداح الملك الناصر، السفر الثاني مخطوط الغزانة العامة بالرباط رقم 23 ج.
- (6) انظر ديوانه ومقدمته للأستاذ عبد الله كتون.
- (7) انظر المعيار المغرب 11: 149.
- (7) وقعت على قصيدة في الشكوى مما ذكر تسب لأبي محمد الأشبيلي أثبها فيما يلي:
- اعْبُرْ عَمَا كُنْتُ فِي الرِّسْمِ أَكُنْ  
بَدُوتْ وَقِنْمَا كُنْتُ أَغْرَفُ حَاضِرًا  
وَسُكْنَى الْبَرَادِي لَا يَحْلُّ وَيَحْرُمُ  
نَكْلَفُتْ سَكَنَاهَا وَكَانَ ضَرُورَةً  
ثَوْتُ بِهَا مَا بَيْنَ قَوْمٍ بَيْوَنْهُمْ  
حُفَّةٌ عَسْرَةٌ لَا يَحْلُّ جَوَارِهِمْ  
حَقِيقَةٌ عَلَى مَنْ كَانَ مُشَوَّهَ بَيْنَهُمْ  
خِيَارِهِمُ الْأَشْرَارُ مِنْهُمْ فَإِنْ يَكُنْ  
ذُلْلُتْ عَلَيْهِمْ خَيْبَ اللَّهُ سَعِيهِمْ  
فَلَا عَالَمُ مِنْهُمْ وَلَا مُتَعَلَّمٌ  
وَمَكْسِبُهُمْ أَكْلُ حَرَامٌ وَمَغْنِمٌ

يَرْوِضُهُمْ سُوْطٌ وسْجَنٌ وَمَغْرِمٌ  
وَإِنْ قَلْتَ كَفَّارٌ فَقُولُكَ أَقْوَمُ  
فَقُلْ إِمَامٌ مِنْهُمْ الْيَوْمَ يَسْلُمُ  
إِذَا مَا دَعَا لِلخَيْرِ عَنْ قَصْدِهِ عَمُوا  
صَبَّى بِزَرَّاً وَشَيْخَ مَقْدَمٍ  
وَيُعْجِبُهُمْ مِنْهَا الَّذِي يَتَهَمِّمُ  
وَوَلَى عَلَيْهِمْ مَنْ يَجُوزُ وَيَظْلِمُ  
فَمَهْمَا رَأَوْا أَهْلَ الصَّلَبِ تَسْمُوا  
دَجَاجٌ وَبَيْضٌ وَالْمَدَامُ الْمُحْرَمُ  
بَامِرِ النِّسَاءِ الْعَاطِرَاتِ تَهَمُّمُ  
عَلَى أَنَّتِي مِنْهُمْ لَيْمَ وَشَامٌ  
وَإِنْ جَاءَ زَفَّانٌ يُغَزِّ وَيُكْرَمُ  
رُكُوبُ الْمَنَاهِي فَهُنَّ إِنَّمَةٌ  
فَهُنُّ فِي ضَلَالٍ غَافِلُونَ وَنُسُمٌ  
وَفِي أَجْرَةِ الشَّرَاطِ يَقْبَلُونَ وَيَصْمُمُوا  
وَمَا خَلَقْتَ إِلَيْهِمْ جَهَنَّمَ  
وَأَكْبَرُهُمْ سَنَّا مَسِيَّةً وَمُجْرِمٌ  
فَوَيْلٌ لَهُمْ مَا جَنَّةٌ إِنْ أَحْرَمُوا  
وَلَكُنْ رَبُّ الْعَرْشِ يَعْنُو وَيَرْحَمُ  
خَطَابٌ صَحِيحٌ وَالْمُسْوَقُ يَقْهُمُ

(خ. ع. ر. رقم 1725 د) وأغلب ظني أنها قصيدة الأليري التي أشار إليها البسطي.

(3) كذا في الأصل.

(4) في الأصل: فالقرى.

(8) نيل الابتهاج: 291 وانظر شرح التحفة لابن عاصم مخطوط.

(9) رحلة القلصادي: 162.

(10) اعتمدنا في كتابة هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور المنشور في مجلة الأندرس لسنة 1963 ص. ص. 332 - 333 وانظر أطروحة السيدة راشيل ارييه ص 138 وكتاب محمد IX للفقيد لويس سيكودي لوثينا، (الحاشية رقم 3 والحاشية رقم 192). ومقالته عن عائلة محمد X الأخفق ملك غرباطة المنشورة في مجلة الأندرس سنة 1946.

(11) انظر نص الرسالة في كتاب المماليك والفنين للدكتور أحمد دراج ص 181 وما بعدها نقلًا عن مخطوط المكتبة الوطنية بياريis رقم 4440.

(12) اعتمدنا في هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور السابق.

(13) الاستقصاء ج 7، ص 7، وما بعدها والدرر البهية: 84 - 100، ونزهة الحادي: 241 ط. فاس.

(14) نزهة الحادي: 241 وما بعدها.

- (15) انظر ذيل رواية آخر بنى سراج لشكيب أرسلان: 262، 271، 273، 277، 279، 283.
- (16) نفح الطيب 4: 521 تحقيق د. إحسان عباس.
- (17) انظر نفح الطيب 6: 152.
- (18) روضة الأعلام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) ونفح الطيب 2: 701 تحقيق الدكتور إحسان عباس.
- (19) رحلة القلصادي: 93 ونفح الطيب 6: 447.
- (20) رحلة القلصادي: 94 ونفح الطيب 6: 447.
- (21) مجلة العربي الكوريتية. العدد 107.
- (22) انظرها في نفح الطيب 6: 151 - 153.
- (23) نفح الطيب 6: 152.
- (24) نفح الطيب 2: 701.
- (25) نيل الابتهاج: 323 وانظر ترجمة ابن منظور هذا كذلك في ثبت الوادي آشي: 204 - 505، 216 - 215 وبعض فتاويه في المعيار.
- (26) وثائق عربية غناظية: 34 - 31.
- (27) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 314.
- (28) نيل الابتهاج: 312 وابن جماعة الغناظي غير القاضي بدر الدين ابن جماعة المصري.
- (29) نبذة العصر: 378 ذيل آخر بنى سراج.
- (30) ثبت الوادي آشي: 216.
- (31) المرقبة العليا: 154.
- (32) ديوان البسطي: 87.
- (33) ثبت الوادي آشي: 216.
- (34) في الأصل: فتدوق، وهو تحريف.
- (35) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب.
- (36) نبذة العصر: 386 (ذيل رواية آخر بنى سراج) ونفح الطيب 4: 517 وما بعدها.
- (37) المعيار المغرب 11: 149.
- (38) وثائق عربية غناظية 99.
- وذكر لويس سيكوك في المقدمة أنه من قضاة العصر الذين لم يرد ذكرهم في معاجم الرجال (ص 12) مع أنه مترجم في الثبت والنيل، وانظر بعض فتاوى الجعدهلة في المعيار 5: 35، 36، 37.
- (39) ثبت الوادي آشي: 196.
- (40) المصدر نفسه: 207.
- (41) المصدر نفسه: 206 وانظر نيل الابتهاج: 325.
- (42) انظر التعريف به ومصادر ترجمته في مقدمة ثبت ولده الذي حققه زميلنا الدكتور عبد الله العمراوي.
- (43) المعيار المغرب 11: 149 نشر وزارة الأوقاف المغربية. وقد وقفت بعد أن انتهيت من تحرير

- هذا على بحث قيم لصديقي ضون فرناندو دي لاكرانخا في الأندلس (1971) درس فيه هذه الفتوى وعرف بأعلامها.
- (44) رحلة القلصادي : 161 - 162 .
- (45) نيل الابتهاج : 76 .
- (46) وثائق غرناطية : 12 ، 16 ، 17 .
- (47) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 311 وهذا نص كلام عبد الباسط : «وفيه (يعني في ربيع الثاني من سنة 870) في يوم الجمعة عشرين دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس واجتمعنا بها بالشيخ العالم العلامة الإمام الهمام سيدى أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني شيخ الأندلس وعالمها وقاضي الجماعة بغرناطة كان بل عالم المغرب في وقته فأنس بنا وسمعننا الكثير من فوائده وستأنى ترجمته إن شاء الله».
- (48) ثبت الوادي آشي : 204 وانظر أيضاً ص 216 .
- (49) ورد في وثائق عربية غرناطية ذكر الشيخ المكرم أبي جعفر أحمد بن محمد المعنى من أعيان مدينة بسطة ولعله ذا صلة بهذا القاضي مذدوج البسطي . انظر الصفحات 77 ، 84 ، 93 ، 94 . وقد يكون من أسلاف أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الشهير بمعن الأندلسي صاحب الزاوية المعروفة بفاس .
- (50) وثائق عربية غرناطية : 10 .
- (51) نبذة العصر : 380 في ذيل رواية آخر بنى سراج .

## غيّرتَهُ عَلَى الدِّينِ وَالوَطْنِ

لم تكن مشكلات شاعرنا المادية ومتابعه اليومية التي عرفنا شيئاً منها في الفصل السابق لتجعله بعيداً عن التفكير في واقع بلده والنظر في أحواله ومتابعة أحدهائه وتوقع مآلاته، ومع أنه لم يكن من ذوي العبيبات الكبيرة إلا أنه ربما كان أوعى من بعض هؤلاء، وإذا استثنينا ما كتبه أبو يحيى ابن عاصم الغرناطي في كتابه «جنة الرضى» فإننا لا نجد - فيما وصل إلينا - مثيلاً لما سجله في شعره هذا الشاعر الفقيه المتواضع، وديوانه من حيث القيمة التاريخية والاجتماعية أهمّ من «جنة الرضى» نفسه.

لقد عاش الشاعر في عصر انهيار الدولة النصرية ولعله أدرك نهايتها وهو إن لم يذكر في شعره من أولئك النصريين المتنازعين على الملك إلا محمد الأحنف بن عثمان فإنه عرف عدداً من رجالات الدولة في هذه الحقبة المضطربة ولا سيما بعض الذين كان لهم أثر مذكور في تدبير أمور الدولة ومحاولة رفع الخرق الذي كان يتسع يوماً بعد يوم.

وقد رأينا مما سبق كيف مدح في ابن عبد البر والقائد حامد وشيوخ

الغزا ابن عثمان وابن عمران وأبي الحسين الشريف حياطتهم للأندلس وحمايتهم للإسلام فيها وذلك بجهادهم وحسن تدبيرهم، وشعره في ذلك مطبوع بطابع الغيرة على الدين والوطن والكراهية لأعداء الإسلام الذين اكتوی ب النار الأسر وقيوده عندهم .

وتبدو غيرته الدينية وحماسته الوطنية في هذه الأشعار التي قالها في المناسبات الأليمة، فقد كان كلّما سقط ثغر من الثغور رثاه وبكاه بالدم لا بالدموع، ورفع صوته عالياً بالترقير والتوبیخ لأولئك الذين فرطوا في البلد وتهاونوا في الدفاع عنه، وتسببوا في ضياعه بسلوكهم سبيل الخلاف، وسيرهم على نهج الشتات لا بل باعوه بيعة وكسٍ، «وشروه يثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين».

ونجد هذا كله في شعره الذي قاله عندما أخذ جبل الفتح (جبل طارق) وأرشدونه وبلغن وحصن اللقون وفيما رثى به شهداء كائنة لورقة وفيما قاله عند زحف النصارى على مالقة وبسطة .

وهو لم يكتف بالرثاء والبكاء ولكنه كان يسهم في جمع المال والطعام للمجاهدين والمحاصرين .

وكان يقول الشعر لتحريض الناس على ذلك، ولعل خطبه في الجامع الأعظم لم تخلُ من حث على الجهاد .

كما أنَّ له شعراً كثيراً انتقد فيه سوء الأحوال بيده بسطة والأندلس عامة وصور فيه انحلال المؤسسات الدينية والاجتماعية، وهو من قبيل شعر النقد السياسي والاجتماعي الذي عرفته الأندلس منذ عهد الأمويين وفي عهد الطوائف واليهود التي تلتها .

عاصر الشاعر ذلك الصراع المزمن بينبني نصر على عرش غرناطة ورأى ما كان يجره التحزب لأولئك المتصارعين من انتهاب للأنفس والأموال، وخراب للأوطان، «مع ما في ذلك من توهين المسلمين وإطماء

العدو الكافر في استئصال بيضتهم واستباحة حريمهم»<sup>(1)</sup>.

وقد تكرر أمام عينيه مشهد ملك يخلع وملك يباع وتفرق الرعية بين هذا وذاك وما ينشأ عن ذلك من فتنه، فقال (140):

مَنْ سَعَىٰ فِي عَزْلٍ وَالِ  
وَابْتَغَىٰ تَقْدِيمَ وَالِ  
بَانِتَهَابِ النَّفْسِ وَالْمَا  
لِ اجْتِرَاءٍ لَا يُبَالِي  
فِي حَقٍّ مِثْلُ هَذَا  
نَبْذُهُ فِي كُلِّ حَالٍ  
وَاغْتِنَامُ الْبُعْدِ مِنْهُ  
فَهُوَ يَدْعُو لِلضَّالِّ

وقد عبر عن هذا المعنى بلهجته أشد عنفاً وأكثر نقداً في قصيدة التي قالها: «عندما أخذ العدو حصن أرشدونة» كما سرى بعد قليل.

وإذا أردنا أن نتبع شعره في الأحداث التي أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة حسب الترتيب التاريخي فسنجد أول شعر له في ذلك هو ما أنسده «يوم وصول الخبر بأن العدو الكافر استولى على حصن اللقون من حصنون وادي آش أعادها الله بتاريخ يوم الجمعة الثالث والعشرين الذي قعدة عام ستة وثلاثين وثمانمائة»<sup>(2)</sup>:

يَا أَهْلَ وَادِي الْأَشِ لَادِرْ دَرْكُم  
وَلَا بِرْحَتِمْ لَقِيَ لِلْكَرْبِ وَالْكَمْدِ  
ضَيَعْتُمْ سَفَهًا حَصَنَ اللَّقُونِ وَلَمْ  
تَرَاقِبُوا فِيهِ حَقَ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ  
حَتَّىٰ حَوَاهُ الْعِدَا غَدْرًا وَصَارَ لَهُمْ  
لَغَزْوُكُمْ عُمَدَةً مِنْ أَفْضَلِ الْعُمَدِ

فاستَشْعِرُوا - إِذْ أَضْعَتُمْ فِيهِ حَزَمَكُمْ  
وَالْجِدَّ - قَرْبَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ وَالْأَمْدِ

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر يحمل أهل وادي آش مسؤولية سقوط هذا الحصن «الستراتيجي» ويقول إن استيلاء العدو عليه كانت نتيجة التفريط والتهاون من جهة الغدر والخداع من جهة ثانية.

وقد كان الاستيلاء على حصن اللقون Alicun خلال الحملة التي قادها القائد القشتالي جومث دي ريبيرا Gomez de Ribera في صيف سنة 1433هـ.

ويبدو أن المسلمين استرجعوا هذا الحصن ثم أخذ منهم مرة ثانية وربما بصفة نهائية سنة 867هـ.

وهذا ما ورد في رسالة صاحب الأندلس سعد المستعين بالله إلى السلطان خشقدم المؤرخة في جمادى الأولى سنة ثمانية وستين وثمانمائة أثناء الكلام على أحداث السنة السابقة على هذا التاريخ :

«وفي العام المذكور استولى العدو أيضاً على حصن اللقون من حصون المسلمين: حصن عينه لأرض الكافرين راعية، وأذنه لسماع أخبارهم واعية، وإليه كان يركن من شن الغارة على أرض الكفر، وبه كان يعتصم من تخلص من أيدي المشركين من الناب والظفر، ضاعف قوة المشركين، وأمن طرق الأعداء السالكين»<sup>(3)</sup>.

ونلاحظ أن تقدير أهمية هذا الحصن في الرسالة مماثل لما جاء في أبيات شاعرنا البسطي. كما أن مجرد الإخبار به في هذه الرسالة الملكية يشعر بالخطب النازل بال المسلمين يومئذ إذ كان فقده مؤذناً «بقرب انقضاء الوقت والأمد» كما يقول شاعرنا.

وهذا الإزدواج الذي رأيناه في تاريخ سقوط اللقون نجده في سقوط

جبل الفتح أو جبل طارق، فالشاعر يقول مباشرة بعد القطعة السابقة ما يلي : «وقلت عندما وصل خبر أخذ جبل الفتح في التاريخ المذكور»

أَوَارِيُّ أَوَارِيُّ الْقَلْبِ مَعِ شَدَّةِ اللَّفْحِ  
فِتْبَدِيهِ عَيْنُ دَمْعَهَا دَائِمُ السَّفْحِ  
وَأَخْفِيَ الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسْى  
وَظَاهِرُ حَالِي الدَّهْرِ يُؤَذِّنُ بِالصَّفْحِ  
وَأَبْدِي مِنَ التَّقْطِيبِ لِلْفَتْحِ حَالَةً  
تَسْوُءُ صَدِيقِي فِي مَسَاءٍ وَفِي صُبْحٍ  
وَقَائِلَةٌ مَالِيٌّ أَرَاكَ مُفَطِّبًا  
كَانَكَ - لِلتَّقْطِيبِ - هُدَّدْتَ بِالذِّبْحِ  
وَعَهْدِي - وَلَا أَخْفِيَ - صَفَاتُ عِرْفَتُهَا  
تَسْرُّ بِمَا تُبَدِّي مِنَ الْبِشَرِ وَالسَّمْحِ  
فَقُلْتُ دُعِينِي: الْحُزْنُ فَرَضٌ عَلَى الْوَرَى  
أَمَا قَدْ حَوَى أَعْدَاؤُنَا جَبَلَ الْفَتْحِ  
حَرَامٌ عَلَيْنَا الْبِشَرُ وَالسَّمْحُ بَعْدَهُ  
وَفِي الْقَلْبِ مِنْ آلَمِهِ أَعْظَمُ الْجُرْحِ  
عَسَى مَنْ قَضَى فِيهِ بِأَخْذٍ يُعِيَّدُهُ  
وَيُدْهَبُ مَا أَشْكُوهُ مِنْ شَدَّةِ الْقَرْحِ  
فَمِنْهُ تَعَالَى نَرْتُجِي الْخَيْرَ كُلَّهُ  
وَمَا زَالَ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالْمَنَّ وَالْمَنْعِ

إن حسرة الشاعر باللغة وحزنه شديد ومن يقرأ هذه الأبيات يظن أن الشاعر يبكي مصيبة خاصة به وليس عامة بال المسلمين ، وهو يرى أن الحزن يجب أن يكون فرضاً على جميع الناس بعد سقوط جبل الفتح وذلك لأن

هذا الجبل كان يمثل صلة الوصل مع أهل المغرب الذين اعتادوا أن بهمـا  
لنجدـة إخوانـهم، وقد أنسـد ابن الخطـبـ في معيـار الاختـيـارـ في آخرـ حـديـثـهـ  
عن جـبلـ الفـتحـ بيـتـينـ يـشـيرـانـ إلىـ المعـنىـ الـذـيـ ذـكـرـتـهـ،ـ وهـمـاـ:

هـوـ الـبـابـ إـنـ كـانـ التـزاـورـ وـالـلـقـيـاـ  
وـغـوـثـ وـغـيـثـ لـلـصـرـيـخـ وـلـلـسـقـيـاـ  
فـإـنـ تـطـرـقـ الـأـيـامـ فـيـهـ بـحـادـثـ  
وـأـعـزـ بـهـ،ـ قـلـنـاـ:ـ السـلـامـ عـلـىـ الدـنـيـاـ

في جميع الأحوال ومـهماـ تـكـنـ الـظـرـوفـ لـقـدـ كـانـ سـقـوطـ حـصـنـ  
الـلـقـونـ فيـ أـقـصـيـ الشـرـقـ وـجـبـلـ طـارـقـ فيـ أـقـصـيـ الغـربـ سـنـةـ 836ـ (1433ـ)  
حـسـبـ ماـ فيـ دـيـوـانـ الـبـسـطـيـ بـدـاـيـةـ لـعـمـلـيـاتـ صـعـبـةـ مـنـ الـكـرـ وـالـفـرـ وـالـأـخـذـ  
وـالـرـدـ،ـ وـكـمـ اـسـتـرـدـ الـمـسـلـمـوـنـ حـصـنـ الـلـقـونـ لـمـدـةـ يـسـيـرـةـ فـقـدـ اـسـتـجـابـ اللهـ  
تعـالـىـ رـجـاءـ الشـاعـرــ فـيـماـ يـدـوــ وـاسـتـعـيـدـ جـبـلـ الفـتحـ.

إـلـأـ أـنـ الـمـسـيـحـيـيـنـ مـاـ لـبـثـوـ أـنـ أـخـذـوـ بـصـفـةـ نـهـائـيـةـ سـنـةـ 867ـ (1462ـ)  
حـسـبـماـ جـاءـ فـيـ الرـسـالـةـ الـمـلـكـيـةـ الـنـصـرـيـةـ السـالـفـةـ الـتـيـ نـقـرـأـ فـيـهاـ مـاـ يـلـيـ:  
«وـهـذـاـ العـدـوـ الـمـشـتـرـكـ صـاحـبـ قـشـتـالـةــ قـصـمـهـ اللـهــ فـيـ كـلـ عـامـ يـهـجـمـ  
عـلـىـ بـلـدـنـاـ وـثـغـورـنـاـ،ـ وـيـجـدـدـ فـيـ كـلـ سـاعـةـ وـلـحظـةـ أـشـجـانـ قـلـوبـنـاـ وـصـدـورـنـاـ،ـ  
تـمـلـكـ فـيـ الـعـامـ الـفـارـطـ مـدـيـنـةـ جـبـلـ الفـتحـ مـنـ بـلـدـنـاـ،ـ وـهـوـ مـحـلـ الفـتحـ  
الـأـوـلـ،ـ وـالـمـعـقـلـ الـذـيـ عـلـيـهـ الـاعـتـمـادـ وـالـمـعـوـلـ،ـ أـزـالـ عـنـهـ كـلـمـةـ الـإـسـلـامـ،ـ  
وـعـمـرـ مـآـذـنـهـ بـالـنـوـاقـيسـ وـمـسـاجـدـهـ بـالـأـصـنـامـ،ـ وـمـلـأـهـ بـقـوـمـ يـعـبـدـوـنـ أـوـشـانـهـمـ،ـ  
وـيـحـكـمـوـنـ أـصـنـامـهـمـ وـيـجـدـوـنـ فـيـ مـعـ السـاعـاتـ كـفـرـهـمـ وـطـغـيـانـهـمـ،ـ أـصـيـبـ  
مـنـهـمـ الـمـسـلـمـوـنـ بـالـمـصـيـبـةـ الـعـظـيـمـةـ،ـ وـالـفـجـيـعـةـ الـمـقـعـدـةـ الـمـقـيـمـةـ،ـ مـلـأـتـ  
الـقـلـوبـ تـفـطـرـأـ،ـ وـالـنـفـوـسـ تـفـكـرـأـ»<sup>(4)</sup>.

وتـذـكـرـ بـعـضـ الرـوـاـيـاتـ الـمـسـيـحـيـةـ أـنـهـ فـيـ 16ـ غـشتـ مـنـ سـنـةـ 1462ـ

استولى دوق مدينة شذونة خوان دي قزمان وكانت أركش على جبل طارق بسبب خيانة أحد المرتدين<sup>(5)</sup>.

- وفي يوم الجمعة 25 صفر سنة 856 (17 مارس 1452م) وقعت كاثنة لورقة التي كسر فيها جيش المسلمين واستشهد فيها نخبة من قادتهم، وكانت هذه الواقعة في بسيط Alporchones بين جيش أهل مرسية يتزعمهم قائدتهم Pedro Fajardo وجيش من المسلمين تحت إمرة القائد ابن عبد البر كان معظمهم من أهل غمارة، وقد ورد في مدونة جوان 11 أنه استشهد في هذه الكاثنة 14 قائداً وعدداً منهم تسعه، وهم ابن عزيز قائد بسطة، وأخوه أبو القاسم قائد محلة غرناطة، والعباس بن علي بن حميد قائد بيرة، وقواد بش البيضاء وبlesh الشقراء والمريبة وأرك وشوجر وقولر وقد كانت الفجيعة في مصرع هؤلاء الأبطال كبيرة ومصاب الأندلس فيهم عظيماً، وقد رثاهم الشاعر وأشار إلى مواقفهم السابقة في الجهاد، ونكاياتهم الماضية في أعدائهم وذكر أن مصرعهم كان في يوم العروبة وهو يوم الجمعة من التاريخ المذكور،

أما القائد ابن عبد البر فقد سبقت الإشارة إلى مصيره على يد محمد الأيسير، وثمة رواية أخرى لخَصَّها الأمير شكيب أرسلان من تاريخ مرسية لضون فليكس فقال: «وفي الفصل السادس والعشرين يذكر واقعة يقال لها واقعة البورشونيس ففي سنة 1452 زحف من غرناطة جيش عظيم تحت قيادة محمد - كذا - بن عبد البر الذي كان وزيراً لملك غرناطة محمد بن عثمان فدخلوا أرض مرسية والتقاهم المسيحيون في مكان يعرف بالبورشونيس وبعد قتال شديد انهزم المسلمون وسقط كثير من قوادهم قتلى ونجا ابن عبد البر ومعه ثلاثة من جنوده، فلما وصل بين يدي مولاه وقص عليه الفاجعة وذكر له أسماء الذين فقدوا في المعركة استعظم الخسارة وقال لابن عبد البر: أما وقد جبنت عن الموت في ميدان الحرب ولم تمت كما مات أولئك الأبطال

فَسْتَمُوتْ مَوْتَةً شَنِيعَةً كَمَا يَمُوتُ الْأَنْذَالُ وَأَمْرٌ بِقَطْعِ رَأْسِهِ» (الحلل  
السندسية: 3 : 445).

وهذه مرثية شاعرنا البسطي في شهداء كائنة لورقة<sup>(6)</sup> (68) :

لِمُصَابِ أَنْدَلُسٍ تَصُوبُ الْأَدْمَعُ  
وَلِمَا جَرَى فِيهَا تَذُوبُ الْأَضْلُعُ  
فَلَهَا مَعَ الْأَعْدَاءِ حَالٌ تُفْرَزُ  
تَقْضِي بِحَسْرَةٍ مِنْ يَرِى أَوْ يَسْمَعُ  
وَتَكَادُ مَهْجَتُهُ لَهُ تَتَصَدَّعُ  
جَارُ الزَّمَانِ عَلَى جَمِيعِ جَهَاتِهَا  
فَأَبَاخَ حُرْمَةً أَهْلَهَا لَعْدَاتِهَا  
أَتَرِى إِلَّا هُنَّ يُقْيِلُهَا عَثَرَاتِهَا  
وَيُزَيِّلُ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ غَمَرَاتِهَا  
بِذُنُونِ نَصْرٍ بِالْفُتوحِ مُشَفَّعٌ  
فَلَقَدْ أَحَالَ عَدُوَّهَا أَحْوَالَهَا  
وَمِنَ الْخَطُوبِ أَذَاقَهَا أَهْوَالَهَا  
وَأَفَاضَ فِي أَقْطَالِهَا إِذْلَالَهَا  
لَمَّا أَبَادَ بِلُورَقَةٍ أَبْطَالَهَا  
يَوْمَ الْعَرْوَةِ كَانَ فِيهِ الْمَصْرَعُ  
ذَهَبَ الْجَمِيعُ مُجَاهِدِينَ كَمَا ابْتَغُوا  
وَحَوْوا هُنَاكَ مِنَ الشَّهَادَةِ مَا حَوْوا  
مَاذَا نَكَوا أَعْدَاءُهُمْ مَاذَا نَكَوا  
وَلَرُبُّمَا مِنْهُمْ أَسَارَى مَا افْتَدُوا  
كَمْ أَمْرَضُوا مِنْ خَاطِرٍ كَمْ أَوْجَعُوا

ولأن هذه الملحمة كانت في 17 مارس - يوم القديس سان باترييس - فقد اعتبر هذا حامي مدينة مرسيية منذ ذلك التاريخ، والاسبان ينتعون قائدتهم في هذه المعركة بالشجاع Fajardo Elbravo وقد كتبوا فيه الكثير وخصوصه بعضهم بالتأليف كما أنهم تغنو بنصرهم هذا وما يزالون يحتفلون بذكراه في مرسيّة.

ويذكّرنا هذا التخيّس بتخيّس يوسف الثالث الذي نظمه عند حصار القشتاليين مدينة انتقيرة سنة 1410م وهو الحصار الذي انتهى باستيلائهم عليها، وأوله :

خَلِيلِيْ مَهْلًا فَالزَّمَانُ كَمَا تَدْرِي  
وَلَا بُدَّ مِنْ يُسْرٍ عَلَى أَثْرِ الْعُسْرِ  
فَمَهْمَا دَهَا صَحُوْ فَلَا بُدَّ مِنْ قَطْرٍ  
وَمَهْمَا دَجَا خَطْبٌ فَلَا بُدَّ مِنْ فَجْرٍ  
وَاللَّطَافُ صُنْعُ اللَّهِ رَائِعُ الْبَشَرِ

وهو أطول من تخيّس شاعرنا وأجدد نظماً ولكنّه دونه حماسة وأقل منه أثراً، وتكمّن قيمتهما معاً في تسجيل حادثتين من حوادث تاريخ مملكة غرناطة الأخير الذي فقدت روایته العربية ولا يعرف منه اليوم إلا ما يوجد في المصادر المسيحية.

- وقعت - بعد هذه الحوادث - كارثة أرشدونة فهزّت الشاعر هزاً يجعلته يفكّر في مصير الأندلسيين المظلوم وينحو منحى الشاعر الزاهد ابن العسال وغيره، بل إنه أربى على من سبقه بتحليل الأحوال وذكر الأسباب ومنها اختلاف كلمة المسلمين، وتنازع رؤوسائهم على الملك، وتهافتهم على أكل أموال الناس بالباطل، وانعدام العدل الذي هو أساس العمران، وإهمال الدين ومؤسساته. وقد تميز الشاعر أيضاً برفع النداء للسماع النائمين وتنبيه الغافلين، وأضع القصيدة بين يدي القارئ ليحكم من خلالها على مستوى الوعي لدى هذا الشاعر المغمور (118) :

مَخَايِلُ هَذَا الْحَالِ تُؤْذِنُ بِالْهُلُكِ  
 وَتَقْضِي لَنَا بِالذَّلِّ وَالْعِزَّ لِلشَّرِّ  
 وَإِنَّ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ بِاسْرِهَا  
 بِذَا الْقُطْرِ يَحْوِيهَا الْعُدُوُّ بِلَا شَكَّ  
 وَيَقْسِمُ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ أَهْلَهَا  
 فَمَا عَنْ كِلا الْأَمْرَيْنِ شَخْصٌ بِمُنْفَكٍ  
 فَمَنْ قَسْمُهُ الْقَتْلُ اسْتَرَاحَ مِنِ الْعَنا  
 وَمَنْ سَهْمُهُ الْأَسْرُ اسْتَمَرَ بِلَا فَكَّ  
 وَقَدْ رَفَعَ إِلِّاْشْكَالَ أَخْدُ أَرْشَدَوَنَةَ  
 وَتَصْبِيرُهَا مُلْكًا لَهُ أَعْظَمُ الْمُلُكِ  
 وَمِنْ قَبْلِهَا حِصْنَ الْلَّقُونِ اسْتَبَاحَهُ  
 وَمِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ أَنْتَقَى دُرَّةَ السَّلْكِ  
 وَنَحْنُ عَلَى نَهْجِ الشَّتَاتِ مَسِيرُنَا  
 لِإِدْرَاكِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ أَوِ الْمُلُكِ  
 وَهِيَهَاتِ مِنْ إِدْرَاكِ حَقِّ بِيَاطِلِ  
 وَغِشٌّ وَتَدْلِيسٌ وَبِهَتَانٍ أَوْ إِفْكٍ  
 وَفِي ذَاكَ مَا نَأْبَاهُ مِنْ هَذِهِ حُرْمَةِ  
 لَنَا وَدِمَاءِ لَيْسَ تَخْلُو مِنَ السَّفْكِ  
 وَعَيْشٌ إِذَا مَا الْعَقْلُ رَامَهُ رَاعَهُ  
 لِكَوْنِ مُعَانِيهِ مِنِ الضَّيقِ فِي ضَنكِ  
 رَضِينَا بِهَذَا مَذْهَبًا دُونَ غَيْرِنَا  
 وَلَمْ يَأْنِ مِنْ كَفٍّ وَلَمْ يَأْنِ مِنْ تَرْكٍ  
 فَوَا أَسْفَا لِلَّذِينَ أَهْمَلُ حَقُّهُ  
 وَقَوْبَلَ مِنْهُ السَّتْرُ بِالْكَشْفِ وَالْهَتْكِ

وَهَدَتْ مَبَانِيهِ وَدُكَّتْ سَفَاهَةً  
 فَسَاءَتْ بِمَا تُبَدِّي مِنَ الْهَدَى وَالدَّكَّ  
 أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَاهْجُرُوا النَّوْمَ إِنَّهُ  
 حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَا أَقُولُ وَمَا أَحْكَى  
 وَمِنْ كَانَ فِيمَا قَدْ مَضِيَ الدَّمْعُ بَاكِيًّا  
 فَفَرَّضُ عَلَيْهِ باقِي الدَّمِ أَنْ يَبْكِي

لم يذكر الشاعر في تقديمته للقصيدة تاريخ هذه الكارثة، ولكنه ذكر في صلب القصيدة - كما رأينا - أنها وقعت بعد أخذ حصن اللقون وجبل طارق، وهنا نرجع أيضاً إلى الرسالة التصرية مصدرنا العربي الثاني في هذه الواقعة فتجدها تقول:

«والآن (1868هـ) استولى العدو على حصن أرجدونة، المعقل الذي شهاب عزازته متائق، وكفَّ منعه بالسماء متعلق، ينظر أرض العدى عن كثب، ويلاحظ العدو إذا وثب، ويحدّر من مكائده، وينذر من مراصده، فوهت القوى، وترادفت البلوى، وعظمت الشكوى، وضاق المجال، ومنت الآمال، وأعزز الاحتياط، فيما الله ويا للمسلمين»<sup>(7)</sup>. ولأهمية هذا المعقل كان أهل الخير في غرناطة يحبسون على أهله ما ينتفعون به فإذا ويتقوون به على الدفاع (وثائق عربية غرناطية: 13).

وللشاعر قطعة فريدة قالها عندما «أُرجِفَ إثر أخذ جبل الفتح واللقون أن العدو - دمره الله - غدر ثغر بلش» وهي (135):

«جَبَلُ الْفَتْحِ» بِيعَ بِالْغَربِ بِخَسَأَ  
 وَتَلَاهُ فِي الْبَيْعِ بِالشَّرْقِ «بِلَسْ»  
 وَ«الْلَقُون» اسْتَبَيَّحَ بِالْجَوْفِ غَدَرًا  
 حِينَ فِيهِ بِوَاجِبِ الْحِفْظِ دُلْسْ

فَأَمِيرُ الْجَزِيرَةِ الْيَوْمَ مِنْهَا  
 فِي الْجِهَاتِ الْثَلَاثِ وَاللَّهُ مُفْلِسٌ  
 يَا مُرِيدَ الْجُلوسِ فِيهَا اخْتِيَارًا  
 أَرْتَحِلْ عَنْهَا وَالْتَّمَسْ أَيْنَ تَجْلِسْ

وهذا من أقوى ما يقرأ في شعر النقد السياسي ومن أشد لهجة، ففي النماذج السابقة كان الشاعر يعرض ولا يصرح ويكتفي ولا يسمى. أما في هذه القطعة فهو يُسخر من أمير الأندلس المتهاون في الدفاع عن حوزة البلاد، ويشير بأصابع الاتهام بأن الحصون المذكورة وقع بيعها والتخلي عنها للعدو.

ولا بد أن هذا الشعر الانتقادي كان يسير في الناس وبلغ إلى مسامع أولي الأمر، ومثل هذا الانتقاد يعرض صاحبه للمتابعة.

ومن الأمثلة الطريفة في هذا الباب أن الكاتب الفازازي صور الحال بالأندلس في آخر أيام الموحدين بها في قطعة يقول فيها:

الرَّوْمُ تَضَرِبُ فِي الْبَلَادِ وَتَغْنِمُ  
 وَالْجَوْرُ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ وَالْمَغْرِمُ  
 وَالْمَالُ يَوْرَدُ كُلُّهُ قَشْتَالَةُ  
 وَالْجَنْدُ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّةُ تُسْلَمُ  
 وَذُوو التَّعِينِ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلِمٌ  
 إِلَّا مُعِينٌ فِي الْفَسَادِ مُسْلِمٌ  
 أَسْفِي عَلَى تِلْكَ الْبَلَادِ وَأَهْلِهَا  
 اللَّهُ يَلْطُفُ بِالْجَمِيعِ وَيَرْحُمُ

ولما وجدت رقعتها في جيبي يوم موته رُفعت إلى السلطان فلما قرأها قال بعد ما بكى: صدق رحمه الله، ولو كان حياً ضربت عنقه!<sup>(8)</sup>.

وما أشبه قطعة شاعرنا البسطي في مبناها ومعناها بقول أحد معاصرى الفازاري المذكور:

بِوْقَعَةِ عَفْصٍ وَطَلْمَاطَةٍ  
تَكَامَلَ إِقْبَالُ أَيَّامِنَا  
فِي الْغَرْبِ تِلْكَ وِبِالشَّرْقِ ذِي  
أَنَاحَا عَلَى شُمَّ أَعْلَامِنَا  
وَفِي وَسْطِ الْأَرْضِ قِيجَاطَةٌ  
وَلَوْشَةٌ خَفَّا بِأَحْلَامِنَا  
وَلَيْسَ الصَّلِيبُ يُرَى قَانِعًا  
بِغَيْرِ تَوَاتِرٍ إِغْدَامِنَا  
وَسِيدُنَا نَاظِرٌ فِي الْجَوَازِ  
يَرُومُ النَّجَاهَ بِإِسْلَامِنَا<sup>(9)</sup>

و «السيد» الذي ذكر الشاعر المجهول أنه ترك الأندلس وجاز إلى العدوة هو أبو العلاء الملقب فيما بعد بالمؤمن وقد أنسد أمام هذه الحال قول الشاعر:

إِنَّ الطَّبِيبَ إِذَا تَعَارَضَ عَنْهُ  
مَرْضَانَ مُخْتَلِفَانَ دَاوِيَ الْأَخْطَرَ<sup>(10)</sup>

والمرض الأخطر كان معالجة الفتنة الناشبة بال المغرب يومئذ.

ونلاحظ بهذه المناسبة أن معظم الشعر الذي قيل في النكبات الأندلسية مجهول القائل، ولعل ذلك لما تضمنه من نقد لاذع وتنقير شديد وفضح لأسباب الهزائم، ومن شأن هذا أن يعرض صاحبه للتعقب والمتابعة كما قلنا ولستنا نعرف هل حصل شيء من هذا لشاعرنا.

أما أمير الجزيرة خلال التاريخ الذي ذكره الشاعر فربما قصد به

محمد IX الأيسر فهو الذي كان يومئذ على كرسى غرناطة للمرة الثالثة، وقد «اختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقادات مصر» كما لخص الأمير شكيب أرسلان عن بعض المصادر المسيحية.

ولا ندري هل كان الشاعر يصدر في نقه المذكور عن غيرته فقط أم أنه كان يعبر عن رأي حزب معين، ذلك أن ديوانه - كما عرفنا - يكشف عن صلته الخاصة بمحمد بن عثمان رجل الدولة القوي يومئذ وقد كان - كما ذكرنا - يتولى قيادة الجيش في بسطة ثم في المرية، ولا بد أنه كان يحدث نفسه بالملك، وفي القصيدة التي مدحه بها شاعرنا ما يشي بشيء من ذلك، قال:

وَمَقَدِّمَاتٍ قَدْ أَفَدْنَ نَائِجاً  
أَبْهَى مِنِ الْإِنْتَاجِ فِي الْبُرْهَانِ  
تُبْدِي الْمُنْيَ لِعْقُولِنَا بِمَقَاسِ  
سَهُلْتُ عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ  
وَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِلْعَاصِي الَّذِي  
تَرَكَ الرِّشَادَ وَدَانَ بِالْعِصْيَانِ  
لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الَّذِي كَسَبَتْ يَدَا  
هُ مِنَ الْخَنَا وَالْزَّيْغِ وَالْخِذْلَانِ  
وَيَؤْمِمُهُ بِكَتَابٍ مِنْ جُنْدِهِ  
تَذَرُّ الدِّيَارَ بِغَيْرِ مَا سُكَانِ  
وَالنَّصْرُ وَالْتَّأْيِدُ قَدْ حَفَّا بِهِ  
فَهُمَا لَهُ مِنْ أَسْعَدِ الْإِخْرَانِ  
لَا يَقْطَعُانِ مَدَى الْحَيَاةِ إِخْاءً  
حَتَّى يَحُلَّ مَنَازِلَ الرَّضْوَانِ

ويمكن أن نسر المقدمات والنتائج التي لمع إليها الشاعر بضعف الأيسر واحتلال أمره وصعود نجم محمد بن عثمان بحكم الشعبية التي كان يحظى بها وهالة البطولة التي كانت له مما يسر له اقتحام غرناطة وخلع الأيسر عمّه وحبسه في سجن القصبة وإعلان نفسه ملكاً وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة 849هـ (1445م) وهو محمد X من هؤلاء المحمديين النصريين، ولقبه الناس بالأحنف أو الأعرج Elcojo وكان من أمره ما ذكرته المدونات المسيحية.

ويهمّنا من هذا كله أنه كان النصري الوحيد الذي مدحه الشاعر ووصل حبله به عند ما كان يتولى مشيخة الغزاة في بسطة، ولا نعرف بعد ذلك هل استمرت صلته به وهل كان لها انعكاس ما على حياته؛ وأغلبظن أن شاعرنا مدحه إعجاباً ببطوله وشجاعته واعترافاً بغزوه وجهاده.

ولا شك أن شاعرنا البسطي قال شعراً آخر في انتقاد الأحوال السياسية بالأندلس في عصره لم يودعه ديوانه. ومما بقي منه قوله ينتقد أهل بلده بسطة ويشير إلى تبدل الحال في بلد غليرة بعد استيلاء القشتاليين عليها سنة 1436م، حيث غدا هؤلاء أصحاب الشأن فيها وصار أهلها من المدجنين (93) :

قالوا غدا البراني في غليرة  
في الوقت صدر صدورها الأعيانِ  
فأحببُهم لا تنكروا في بسطةٍ  
ما زال صدر صدورها البراني

وبناءً لذلك فقد رفع أهل بسطة نازلة إلى الفقهاء يستفتونهم في حكم التعامل مع جيرانهم أهل غليرة «لكونهم تحت قهر الطاغية» فأفتي بعضهم بالمنع وأفتي البعض الآخر بالإباحة، والقضية مبسوطة في كتاب المعيار<sup>(11)</sup>.

ويبقى بعد هذا من الشعر اللاحق بموضوعنا قطعة وقصيدة، فاما القطعة فيقول الشاعر إنه نظمها وجعلها في صدر رسالة، وقد ضاعت الرسالة وبقيت القطعة وهي تصف إحدى تلك الغارات التي أصبح المسيحيون يشنونها على حدود بسطة، يرّوّعون بها الناس ويحرقون زروعهم ويقتلون ويسبّون من يجدونه في طريقهم (93 - 94) :

مصابٌ عظيمٌ دُهمنا به  
بهذى الديار وَخَطْبٌ طَرَقْ  
هَجَرْنَا المضاجعَ مِنْ أَجْلِهِ  
وَأَجْفَانُنَا اكْتَحَلتْ بِالْأَرْقْ  
ولَمْ يَيْقَ [فيما] نراه امرؤ  
بِذَا الْقُطْرِ إِلَّا اعْتَرَاهُ الْفَرَقْ  
لِهَذَا الْعَدُوِ الَّذِي أَمَنَّا  
وَحَرَقَ الزَّرْعَ فِي أَرْضِنَا فَاحْتَرَقْ [كذا]  
وَحَازَّ مِنَ السَّبْيِ فَوقَ الْمُنْيِ  
وَكَمْ مُسْلِمٌ دَمَهُ قَدْ هَرَقْ  
وَمَا خَرَقَ الْيَوْمَ فِي بَسْطَةِ  
بِغَرْنَاطَةِ مِثْلَهُ مَا خَرَقْ

ومثل هذا الذي وصفه شاعرنا البسطي وصفه الشاعر الغرناطي الذي قال «لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة»:

بِالْطَّبْلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَبِالنَّفِيرِ نُرَاءُ  
وَلَيْسَ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَذَاكَ إِلَّا الْقِرَاءُ  
يَا رَبَّ جَبَرَكَ يَرْجُو مِنْ هِيَضَّ مِنْهُ الْذَّرَاءُ  
لَا تَسْلِبَنِي صَبْرًا مِنْهُ لِقَلْبِي ادْرَاءُ<sup>(12)</sup>

وأما القصيدة فلا نعرف مناسبتها ولا تاريخها ولكن يبدو من فحواها أنها قيلت إثر هجوم كبير قام به النصارى على بسطة وحشدوا له الكثير من العدة والعدد وتأهبوا له بالوسائل والمكاييد، وكان من لطف الله أن لم يبلغوا مرادهم فخاب مسعاهم وتخاذلت جموعهم وردوا على أعقابهم خاسرين.

وقد بدأ الشاعر قصيده بالابتهاج والتسلل، ثم وصف كرب المسلمين عندما رأوا حشود عدوهم وما اعترى الناس من فزع كما وصف صدق المدافعة وبسالة المقاومة، قال (99)

يا مَنْ إِذَا يُدْعى يَجِيبُ تفْضُلا  
وإِذَا لَهُ يُشْكى يَحْنُّ وَيُغْطِفُ  
يا مَنْ إِذَا الْأَزْمَاتُ عَمَّتْ لَمْ يَزُلْ  
بِالْخَلْقِ يَرْفُقُ بِالْجَمِيعِ وَيَلْطُفُ  
يا مَنْ إِذَا الْكُرُبَاتُ حَلَّتْ لَمْ يَزُلْ  
يَكْفِي الْكُرُوبُ الْحَادِثَاتِ وَيَكْشِفُ  
أَنْتَ الَّذِي تُرْجِي لِكُلِّ عَظِيمٍ  
حَلَّتْ بِنَا مِنْ أَجْلِهَا تَخْوُفٌ  
أَنْتَ الَّذِي تُلْفِي لِكُلِّ مُلْمِمٍ  
تَنْفِي الَّذِي مِنْهَا أَلَمٌ وَتَصْرِفُ  
[أَحْوَالُنَا] بِيَلَادِنَا حَالَتْ لِمَا  
نَلْقَاهُ مِنْ خَطْ الْعِدَاةِ وَنَأَلَفُ  
فَقْلُونُنَا لِلْخَوْفِ جَمْ خَفْقُهَا  
وَجُفُونُنَا لِلَّدْمَعِ مَا إِنْ تَسْطِرُ  
عَزَّمُوا عَلَى إِجْلَائِنَا عَنْ أَرْضِنَا  
مِنْ بَعْدِمَا مَا اجْتَمَعُوا لَنَا وَتَأَلَّفُوا

وَاتَّوْا بُكْلَ مَكِيدَةٍ قَدْ أَرْهَفْت  
 آرَاؤُهَا فِي أَهْبَةٍ لَا تَوَصَّفُ  
 وَتَطَلَّعُوا فِرَقًا لِهِنْمِ مَعَالِمِ  
 لِلَّذِينَ شِيدَ بِنَوَاهَا وَاسْتَشَرَفُوا  
 لَمْ يَبْقَ رُمْحٌ عَنْهُمْ إِلَّا أَتَوْا  
 قَصْدًا بِهِ لِجَهَادِنَا أَوْ مُرْهَفُ  
 فَالْمُرْهَفَاتُ تَفَلَّتْ وَتَحَطَّمْتُ  
 وَغَدَتْ رِمَاحُ جَمِيعِهِمْ تَتَصَصُّفُ  
 لَمَّا دَنَوا زَحَفُوا لَنَا بِجَمِيعِهِمْ  
 فَتَخَادَلُوا فَكَانُوهُمْ لَمْ يَزْحَفُوا  
 رَامُوا النُّهُوضَ حَمِيمًا فَتَقْهَرُوا  
 نُكْسًا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَتَوَقَّفُوا  
 وَأَبَى إِلَهٌ سِوَى حِيَاطَنَا فَلَمْ  
 يُلْغِيْهُمْ غَرَضًا إِلَيْهِ تَشَوَّفُوا  
 صَنَعٌ عَجِيبٌ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ  
 مَا زَالَ بِالنُّعْمَى لَنَا يَتَعَرَّفُ  
 وَلَئِنْ أَبَا حُوا الْيَوْمَ مِنَا حُرْمَةً  
 فَغَدَادًا نُدَالُ مِنَ الْجَمِيعِ وَنُنْصَفُ  
 وَعْدًا مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ مُحَقَّقًا  
 وَاللَّهُ قَطْعًا وَعْدَهُ لَا يُخْلِفُ

وإذا كنا رأينا الشاعر متشائماً في بعض الأشعار السابقة فإنه في آخر  
 هذه القصيدة يبدو متفائلاً طامعاً في وعد الله الكريم بنصرة من ينصره.

وهكذا أيضاً نجد معاصره ابن عاصم أبا يحيى يقول «عند نزول طاغية

النصارى بمرج غرناطة» من قصيدة:

رُوِيَّدَكَ فارقَ لِلْطَّائِفِ مَوْضِعًا  
وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يُتَوَقَّعُ  
وَصَبَرًا إِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةٌ  
وَيَا فُوزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجُعُ  
وَبِتْ وَاثِقًا بِاللَّطْفِ مِنْ خَيْرٍ رَاحِمٍ  
فَأَلْطَافُهُ مِنْ لَمْحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ  
وَإِنْ جَاءَ خَطْبٌ فَانْتَظِرْ فَرْجًا لَهُ  
فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي غِدٍ عَنْكَ يُرْفَعُ  
وَكُنْ راجِعًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ  
فَلِيَسْ لَنَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ مَرْجِعٌ<sup>(13)</sup>

وبعد فهذا هو الموجود من شعر شاعرنا البسطي في تسجيل بعض الأحداث التي عاصرها، فهل قال في غيرها كسقوط الحامة التي استشهد فيها كثير من أهل بسطة سنة 887هـ وسقوط لوشه سنة 891هـ وسقوط بسطة بعد صمود واستبسال، وسقوط غرناطة في آخر الأمر؟ أم أنه لجا إلى الصمت في آخر عمره كما قد يفهم من قوله:

تَفَكَّرْ مِنَ الْعُمُرِ فِيمَا مَضَى  
وَلَا تَرُكَ الْفِكْرَ فِيمَا بَقَى  
وَأَدَّ الْحَقُوقَ لِأَصْحَابِهَا  
وَمِنْهَا السُّكُوتُ عَنِ الْمُطْبَقِ

أم أن ظروف الشيخوخة والمرض والمحنة قعدت به عن متابعة التطور الأخير من مأساة الفردوس المفقود؟.

---

## الحواشي

---

- (1) المعيار المعرّب ج 11 ص 149.
- (2) ديوان البسطي : 113 - 114 .
- (3) المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري تأليف الدكتور أحمد دراج ص 197 .
- (4) المصدر نفسه .
- (5) أطروحة السيدة أرييه ص 144 .
- (6) انظر تفصيل ما ذكرته في بحث خوان توريس فونتس المنشور في مجلة الأندلس سنة 1962 هـ .
- (7) المماليك والفرنج : 197 .
- (8) نفح الطيب : 4: 467 .
- (9) الروض المعطار : 415 تحقيق د. إحسان عباس .
- (10) المصدر نفسه ص 355 .
- (11) المعيار المعرّب 2: 142 - 158 .
- (12) نفح الطيب : 4: 550 .
- (13) نفح الطيب 2: 704 .

## حاله الخطة الدينية والاجتماعية في عصره

ننتقل بعد هذا إلى قسم آخر نستعرض فيه وصف الشاعر الفقيه أحوال الخُطط الدينية والمؤسسات الاجتماعية ونقده للقائمين عليها وذلك من خلال معايشته لواقع الحال في بلده بسطة ولعل حالها ينطبق على عموم المدن والقرى التابعة لمملكة غرناطة.

ولقد رأينا كيف أنشد القلصادي - عند الإشارة إلى ما أصبحت عليه حال الخُطط الدينية - قول الشاعر:

لقد هزَّلتْ حتى بدا من هُزَالها  
كلاها وحتى سامها كل مُفليسِ

وكنا ننتظر من ابن الأزرق معاصر شاعرنا أيضاً ومؤلف «بدائع السلك» الذي حاذى فيه مقدمة ابن خلدون أن يشير إلى أحوال هذه الخُطط على عهده في مملكة غرناطة فلم نجد عنده شيئاً من ذلك ورأينا مكتفياً بتلخيص أقوال السابقين، ومن هنا يبدو الفرق بين بعض أعلام هذا العصر

الذين وصلتنا مؤلفاتهم خالية من أي إشارة إلى كوارث عصرهم وأحوال بلدهم، وبين هذا الفقيه الشاعر المتواضع الذي ضن عليه المؤرخون بكلمات تحفظ اسمه وعمله من النسيان.

لقد كان شاعرنا القيسي صاحب حس نفدي نادر، ونعته بعض معاصريه - كما جاء في شعره - بأنه «داهية دهباء» ووصفه بعض خصومه بسبب طول لسانه بأنه «شيطان».

وكان أيضاً على مستوى جيد من العلم والمعرفة بالمسائل والوعي بالأمور وسرى كيف أن فقهه ومعرفته بأحكام الخطط الشرعية أهلة لنقد ما أصابها من اعوجاج في وقته، ونحن إذا كنا لا نبرئ، بعض نقه من حساسيات المعاصرة وردود الفعل الشخصية فإننا مع ذلك نلمس كثيراً من الصدق والغيرة في جل ما قاله.

إن خطة القضاء «من أعظم الخطط قدرأ وأجلها خطراً» كما يقول القاضي الأندلسي ابن سهل<sup>(1)</sup> وقد رأينا مما سبق ابتهاج الشاعر بإسناد هذه الخطة إلى ذوي الكفاءة والعدل، وعرفنا أمداحه في القضاة الكبار من أمثال ابن عاصم وابن منظور والجعداله وأبي حامد ابن الحسن وغيرهم ممن ولوا قضاء بسطة وقضاء الجماعة بغرناطة.

ولكن خطة القضاء كانت تسند أحياناً لغير أهلها، وقد انتقد شاعرنا بعض هؤلاء واتهمهم بالجهل والارتشاء والجور والتعسف في الأحكام. قال في أحد القضاة المرتدين بسطة واصفاً إياه باللب وهو الذئب في لهجة الأندلسيين (104):

أي لُبٌّ بِسْطَةٍ فَدْ تَضَى  
لرَعَايَا بِهَايِمٍ فِي مَفَازَهِ

منع الجائز المُباح رباء  
 والحرام المحظور شرعاً أجازه  
 ومضى حكمه بذلك مضاء  
 ليس منه في نفسه من حزارة  
 واستوت عنده الحقيقة جهلاً  
 مع ما أحكم الكتاب مجازة  
 يرتشي دائماً وينبئ المرش  
 عند لقياه هشه واهتزازه  
 همه في سؤاله من يلاقي  
 هل سمعتم في يومنا من جنائزه  
 أو رأيتم مخبراً عن مريض  
 لمنايا معدداً جهازه  
 كل ميت ببساطه فهو يحوي  
 ما انتقام طول الحياة وحازه  
 لم يزل معروفاً بذا مذ تقضي  
 وبه قدماً مازه من مازه  
 أخلف الله مالاً ابتز ظلماً  
 لمن ابتز واستباح ابتزازه  
 وأنال القضاء بالعزل عنه  
 عن قريب كramaً وعزازه

وقال معرضاً ببعض القضاة المرتshin (92):

يا أهل بسطة دعوة من مشق  
 لـو فيكم لدعائـه من يسمـع

إِنَّ الْقَضَاءَ وَظِيفَةُ دِينِيَّةٌ  
 مَا قَطُّ قَامَ بِحَقِّهَا مَنْ يَطْمَعُ  
 وَأَرَى الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِمَضْرُكِمْ  
 قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بِالْقَضَاءِ وَيَجْمَعُ  
 وَالْحَنْشُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ  
 لَسَاوَهُ مُبْتَلِعٌ إِذَا مَا يَلْمَعُ  
 وَإِذَا الْفَتَى لِقَضَائِهِ لَمْ يَفْتَرِ  
 - قَالَ الرَّسُولُ - فَسَارِقٌ لَا يَقْطُعُ

وقال يعرض بعض القضاة ويتهمه بالجور والحكم بما يخالف الشرع

: (105)

رَبُّ الشَّرِيكَيْنِ فِي التَّقْسِيْطِ بَيْنَهُمَا  
 بِقَدْرِ مَا لِهِمَا أُوْ نَسْبَةُ الْعَمَلِ  
 وَفِي الْغَنَائِمِ حُكْمُ الشَّرْعِ مُتَضَعِّ  
 فِي قِسْمَةِ الْفَارِسِ الْمَعْلُومِ وَالرَّجُلِ  
 فَقُلْ لِقَاضٍ أَتَتْ بِالْعَكْسِ قَسْمَتُهُ  
 فِي ذَاكَ مَعَ عِلْمِهِ بِالْجُورِ وَالزَّلَلِ  
 رُوَيْدَكَ أَقِسْمٌ بِمَا قَدْ شَتَّ مُجْتَرِنًا  
 فَأَنْتَ حَقًّا بِمَرْأَى قَاسِمِ الدَّوْلَ  
 وَاللَّهِ مَا جَارَ قاضٍ فِي حُكْمَتِهِ  
 فَفَارَّ مِنْ دَوْلَةٍ بِالسُّؤُلِ وَالْأَمْلِ  
 بَلْ بَيْنَمَا الْعَيْنُ تَسْتَحْلِيهِ مُتَصَفًا  
 بِالْجُورِ إِلَّا وَأَضْحَى شَرْ مُنْزَلِ

وقد تفنن الشاعر في التعريض بقاضيين سماهما، ولكن لا نعرف

عنهمَا شِيئاً، وَهُمَا ابْنُ الْأَحْوَلِ الْفَضِّيِّ وَابْنُ مَفْضُلٍ وَجُلُّ تَعْرِيْضِهِ بِهِمَا يَتَّالِفُ  
مِنْ بَيْتَيْنِ إِلَّا أَنْ كُلُّ بَيْتَيْنِ يَعْدُلَانِ - فِي حَرَارَةِ لَذِعَهُمَا - قَصِيدَةٌ كَامِلَةٌ،  
وَالْقَيْسِيُّ فِي تَفْوِيقِهِ فِي نَظَمِ الْبَيْتَيْنِ قَرِيبٌ مِنْ مُنْصُورِ الْفَقِيهِ الَّذِي كَانَ يَرْمِعُ  
بِالزَّوْجِ وَرَبِّمَا هَجَّا بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ.

وَمِمَّا قَالَهُ فِي الْقَاضِيِّ ابْنِ الْأَحْوَلِ الْفَضِّيِّ (122):

حَالُ ابْنِ الْأَحْوَلِ فِي التَّرْخَصِ مُعْجَبٌ

مَا دُمْ شَرِيعًا عَدَهُ كَمْبَاحِهِ  
ثَمَرُ الْحَدَائِقِ مُنْدُ حَلَّ بِسْطَهُ  
يَبْتَاعُ جَهْلًا قَبْلَ بَدْءِ صَلَاحِهِ

وَهُوَ يُشِيرُ هُنَا إِلَى مَسَأَةٍ فَقِيهِيَّةٍ مُعْرُوفَةٍ فِي بَابِ الْبَيْعِ، وَقَدْ لَخَصَّ  
الْمُسْوَقِيُّ كَلَامَ خَلِيلٍ فِيهَا قَالَ (3: 152): «وَحَاقَّلَ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنَّفُ أَنَّ  
الثَّمَارَ أَيِّ الْفَوَاكِهِ وَالْحَبْوَبِ وَالْبَقْوَلِ لَا يَصْحَّ بِيَعْهَا إِلَّا إِذَا بَدَأَ صَلَاحَهَا أَوْ  
بِيَعْتَ مَعَ أَصْلَهَا أَوْ أَلْحَقَتْ بِأَصْلَهَا الْمَبِيعَ أَوْلَأَ أَوْ بِيَعْتَ عَلَى الْجَدَّ بِقَرْبِ إِنْ  
نَفَعَ وَاحْتَاجَ لَهُ وَلَمْ يَكُثِرْ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ تَخَلَّفَ شَرْطُ مِنْ هَذِهِ الْمُثَلَّةِ  
مِنْ بَيْعِهِ عَلَى الْجَدَّ كَمَا يَمْنَعُ بَيْعَهِ عَلَى التَّبَقْيَةِ أَوِ الإِطْلَاقِ» وَقَالَ فِيهِ  
(136):

عَدَدُ الطَّوَالِقِ أَنْ يَحْضُنَ حَرَائِرًا  
جَعَلَ ابْنُ الْأَحْوَلَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا  
فَنَكَاحُهُنَّ زِنًا عَلَيْهِ وَزْرَهُ  
لَعْظِيمٌ مَا بِالْجَهْلِ مِنْهُ أَبَا حَا

وَمِمَّا خَرَجَ فِي هَذَا الْقَاضِيِّ عَنِ الْمَذَهَبِ الْمُشَهُورِ وَحَكِيمٌ فِيهِ بِالْقَوْلِ  
الشَّاذُ هَذِهِ النَّازِلَةُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الشَّاعِرُ (134):

إِذَا طَلَقَ الْمُرْتَدُ قَبْلَ ارِتِدَادِهِ  
وَعَادَ إِلَى إِسْلَامِ عَادَ طَلَاقُهُ

ولم يرَضِ ابنُ الأحْوَلِ العَوْدَ مَذْهَبًا  
عَلَى أَصْلِهِ إِذْ بِالشَّذوذِ اعْتَلَاقُهُ

وقد أفتى الفقيه القاضي ابن سراج الغناطي معاصر الشاعر بمثل هذا في نازلة مشابهة، جاء في المعيار (3: 250): «وسائل (أي ابن سراج) عن رجل تنصّر وتزوج في أرض العدو نصرانية وأقام معها سنتين ثم عاد إلى الإسلام وأسلم وأسلمت هي معه في زمان واحد وخرجًا إلى بلاد المسلمين : هل يُقرآن على نكاحهما أو يفسخ بطلاق وبعد ذلك يشتان عقداً آخر...».

فأجاب: تصفحت السؤال أعلاه والجواب أن المرتد لا يقر على نكاحه في حال ردته على المشهور وهو مذهب المدونة، وقال ابن الماجشون إنه يُقر، وذهب إليه ابن حبيب، والمشهور المعول عليه هو الأول، فيفسخ النكاح المسؤول عنه بطلاق، وتتربيص المرأة حتى يمضي لها ثلاثة أطهار ويردها الزوج إن أحب...».

هذا يشعرنا أن الارتداد عن الإسلام والتنصر خوفاً أو طمعاً أصبح من مشكلات هذه الحقبة الأخيرة من مملكة غرناطة، وهذا ما تشير إليه المراجع المسيحية وكتب النوازل الفقهية، ومما يدل على ذلك أيضاً قول محمد العربي العقيلي معاصر القيسى في منتصر ظفر به المسلمين:

ألا رب مغرورٍ تنصرَ ضلَّةً  
فحاقَ به شؤمُ الضلالِ وشرُّهُ

فإن يرتفعْ عندَ النصارى بالابتدا  
فكُمْ عنَّا من حرفِ حَبْلٍ يَجْرِهُ

ومن تعريض شاعرنا بأحكام ابن الأحول وادعائه التقدم في الفقه:  
:(135 - 134)

ما لابن الأحول والغرور بوصفه  
في الفقه بالتفضيل والتقديم  
ولزوجة قد حرمته رد الذي  
رأي القرآن اختار بالتحريم

وقال فيه أيضاً (136):  
قالت وقد ملكت بلا عوض  
قلبي أترجو رد مني  
قلت البيوع وإن مكاييسة  
ردت لدى الضبي بالغبن

والإشارة هنا إلى مسألة فقهية وهي أن البيع إذا وقع على وجه  
المكاييسة فلا رد بالغبن فيه (ح. الدسوقي 3: 121).

والضبي هو ابن الأحول المذكور وقد ورث باسمه في هذين البيتين:

: (136)  
عاب الكراهة لابن أخوه لهم  
من لم يميّزه من الصحب  
قلتُ الرسول أنت مُسَطَّرة  
أخباره بكراهةِ الضبّ

والشاعر يشير إلى الأحاديث النبوية الواردة في كراهة الضب وكراهة  
أكله. انظر الموطأ للإمام مالك.

وله في التعريض به أيضاً، قال: ولها حكاية (136):

نَفَدَ ابْنُ الْأَحْوَلِ مَا رَأَهُ شِيخُنَا  
 مُسْتَعْمِلاً وَمُتَمِّماً عَقْدَ الْهَبَةِ  
 سُحْقاً لَهُ، فَنَكَاحٌ بُنْتِ رَبِيعَةِ  
 بَعْدَ الدُخُولِ بِالْأَمْ أَضْحَى مَذْهَبَةً  
 وَشَعَنْ عَلَيْهِ مَرَةً ثَانِيَةً فِي بَيْتِنَا لَمْ يَسْمَهُ فِيهِمَا فَقَالَ (76) :  
 قَدْ اسْتَوَى فِي بَسْطَةِ جَاهِلٍ  
 فَقَدْمُ مَعِ الْجَبَرِ الْذِي الْلَّبِيبِ  
 مُذْ صَارَ قَاضِيَهَا يَرَى جَائِزًا  
 فِي شَرِيعَهِ نَكَاحٌ بُنْتِ الرَّبِيعَ

وهذه المسألة التي صور فيها شاعرنا جهل هذا القاضي تدل على حذقه للفقه، وأطلاعه على النوازل، وهي مذكورة في مسائل ابن رشد ونقلها صاحب المعيار، فقد سئل ابن رشد عن حفيدة الزوجة من ابنتها أو ابنتهما هل تحل لمن كان زوجاً للزوجة المذكورة أم لا إن ماتت عنه أو طلقها؟ فأجاب بأن قال: إذا دخل بها فلا تحل له بناتها ولا بنت بناتها ولا بنات بنيها وإن سفلن لأنهن بمنزلة الربائب.. فهن عليه حرام، وهذا مما لا اختلاف فيه<sup>(2)</sup>.

ولشاعرنا في هذا القاضي قطعة تتسم بالعنف وتصور غضبه عليه وهي : (138)

قَالُوا ابْنُ الْأَحْيَوْلِ فِي الْفُضُولِ بِيَسْطَةِ  
 لِرَذَالَةِ فِيهِ تَقْدِمَ نَاسَةُ  
 فَأَجْبَتُهُمْ سُحْقاً لَهُ لِفُضُولِهِ  
 ضَرَبَ ابْنَ غَادِرَ مِنْذُ عَامِ رَاسَةُ  
 وَالآنْ أَفْرَطَ فَهُوَ مُحْتَاجٌ لِمَنْ  
 لِلَّدَّيْنِ يَكْسِرُ غَيْرَةً أَصْرَاسَةُ

ويذيقه كأس الردى أدبًا له  
إذ لم يذق فيما تقدم كاسه  
وصلاحه متغّرٌ لفساده  
كلٌّ غداً منه يُحتم ياسه

وقد وقفت على اسم محمد بن غادر من أعيان هذا الوقت في رسم مؤرخ بعام 900هـ يتعلّق بيته عائشة بنت محمد بن غادر فلعله هو الوارد في البيت الثاني من هذه القطعة (وثائق عربية غرناطية : 142).

ولا شك أن شاعرنا ظل يرشق هذا القاضي بسهام تعريضه ويتناوله بهجائه إلى أن عزل عن القضاء، فلما عُزل قال فيه (104) :

عزّلوا ابن الأحول عن وظيف قضائه  
لَمَا أتى بالجُورِ في الأحكامِ  
وأبْوَا شهادَتَه لجرْحِتِه التي  
ثَبَّتْ بموجها لدى الحَكَامِ

ولعل ابن الأحول هذا هو الذي وصف الشاعر بأنه شيطان فقال يرد عليه (77) :

زَعَمْتَ وَقَدْ أخطأتَ فيما زعمتَه  
بأنِي شَيْطَانٌ ولستُ بِشَيْطَانٍ  
ولكنَّمَا الشَّيْطَانُ أنتَ حَقِيقَةٌ  
لَخُبُثَكَ إِذْ ترمي سِواكَ بِنُقْصَانٍ  
وَفِيكَ صفاتٌ في الشَّيَاطِينِ الْفِيْتِ  
أشَاعَ بِهَا إِقْرَارَهُ كُلَّ إِنْسَانٍ  
وَفِي الْحَوْلِ الْبَادِي بِعِينِكَ شاهدٌ  
يَبْيَنْ صَدْقَيِ الْيَوْمِ أَوْضَعُ تَبْيَانٍ

وثمة قاض آخر ولع الشاعر بالتعريض به والسخرية منه بما لا يقل عن قوله في ابن الأحول وذلك هو ابن مفضل الذي كان قاضياً في بسطة.

ولم نجد له ترجمة في المصادر المعروفة وفي مجموع «واثائق غرناطية» عقد زواج مؤرخ بسنة 842 (1438هـ) فيه ذكر لعائشة بنت أبي عبد الله محمد بن مفضل، ويخبرنا العقد أن أبو إسحاق إبراهيم ولد عائشة بنت أبي عبد الله ابن مفضل من زوجها أحمد المعروف بالحكيم تزوج فاطمة بنت أبي الحسن علي بن موسى اللخمي القرباقي البسطي كبير علماء بسطة في هذه الحقبة (ت 844هـ)<sup>(3)</sup>.

ونظن أن ابن مفضل هذا هو الذي قال فيه شاعرنا (81):

تبأ لقاضي بسطة ابن مفضل  
تبأ له فيه يروح ويغتدي  
فلقد أتى من حكمه بعجائب  
أمثالها في عصرنا لم تُعهد  
فالسجن عند سواه معروف المحل  
وعنده فالسجن جوف المسجد  
ويرى النكاح بلا صداق جائزًا  
رأي الغوي الجاهلي المُلحد  
ويغير الأحكام عما أصلت  
تغيير جبارٍ عنيدٍ معتدي

وشهر به بمثل تشهيره بابن الأحول في مسألة المبتوطة أي المطلقة بالثلاث فقال:

أمبتوطة تهوى الرجوع لزوجها  
عليك بقاضي بسطة ابن مفضل

تجدُّ قاضياً ذا مذهبٍ غير ضيقٍ  
يجيزُ بلا تقوٰي نكاحَ المُحلّ

والمحلل هو الزوج الذي طلق زوجته بالثلاث يتفق مع رجل يعقد عليها ولا يطأها كي تحل له، وهذا رأي لسعيد بن المسيب أخذ به بعض المتساهلين الذين خرجو عن مذهب مالك وقالوا إن لفظ النكاح في قوله تعالى: «فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره» مطلق على مجرد العقد، وللمازري إملاء في هذه المسألة نقله صاحب المعيار<sup>(4)</sup>، وقد وجدها في القرن السابع قاضي سلا ينتقد أحد المفتين لكونه أفتى بتحليل المبتوطة<sup>(5)</sup>.

وقال في غرض التعريض بالمذكور عندما كان نائباً عن القاضي أبي حامد ابن الحسن (29، 81) :

عَجَباً لِقاضٍ حُكْمُهُ  
أَمْضَى مِنِ السُّمْرِ الرَّقَاقِ  
جَازَتْ شَهَادَاتُ النِّسَاءِ  
إِلَيْهِ حَتَّى فِي الطَّلاقِ

وهو هنا يشير إلى مسألة فقهية وهي شهادات النساء وهي إنما تجوز عند ابن القاسم في مواضع محددة وبشرط شهادتهن مع رجل إلا فيما يرجع إلى العيض والحمل وشبه ذلك من أحوال المرأة فشهادة امرأتين تقوم مقام امرأتين .

ولعله يسخر من تحريفه في صحيح مسلم وعدم إحكامه لرسم المصحف في هذين البيتين المحرفين في الأصل (82) :

إِنْ شَئْتَ خَرْقاً ثَابَتَا مِنْ «مُسْلِمٍ»

أَوْ مُضْخَفًا كَسَفَ الْمُؤْلَفَ أَحْرُفَةً

فَانْظُرْ كِتَابَ الشَّاهِدِ ابْنِ مَفْضِلٍ

فِيهِ هَدِيَّةٌ بِدَائِعٍ مُسْتَطْرَفَةٍ

وكلمة الشَّاهد في البيت معناها العدل والمُوثق، ويبدو أنه قالهما فيه عندما كان المذكور شاهداً أَي عدلاً.

إن ما وصفه الشاعر من حال هذين القاضيين وما ذكره من أحکامهما سلب خطة القضاء في مدينة بسطة وغيرها ما كان لها من هيبة وجلالة والسبب هو تولية من ليس أهلاً لهذه الخطة، ولهذا نجد الشاعر يخاطب بعض أولي الأمر في هذا الشأن قائلاً (101):

تعطفُ على الأحكامِ واستبقَ رسمها  
بإنقاذهما ممنْ بها اليوم يلعبُ  
فقد سُلِّبتُ في بسْطَةِ أصلَ وَضَعِها  
بتقديمِ مَنْ لواهُ لِمْ تَكُ تُسلِّبُ

ويقول (97):

إِنْ لَمْ تُغَيِّرْ مُنْكِرًا فِينَا، فَشَا  
حَتَّىٰ [يَعْمَ] بِمَشْرِقٍ وَبِمَغْرِبٍ  
أَفْتَى لَدِينَا أَحْمَدُ بْنُ رُقَيَّةَ  
وَوَلَّى الْقَضَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَغْرِبِيِّ  
وَتَحَدَّثَ السُّمَّارُ مِنْ أَخْبَارِنَا  
بِالْمُضْحِكِ الْمُسْتَبْدِرِ الْمُسْتَغْرِبِ

ولا نعرف من هو القاضي محمد بن المغربي، أما أحمد بن رقية فقد تكون له علاقة بابراهيم بن موسى بن رقية أحد المفتين الوارد ذكرهم في المعيار (4: 492).

ومن الغريب حقاً أن نجد شاعرنا بعد هذا كله يرثي ابن مفضل بقصيدتين توجّع لفقدته فيهما، وترحم عليه، وقال إنه كان يُحْكِم عقد الشروط، ويَسِيرُ في أحکامه على نهج الصواب، ويجري في قضايه على وفق الشريعة ويقول في إحدى القصائد (112):

فمضى وكان مصلياً  
 يبكي بدموع دونه  
 وإذا تحدث عنده  
 يرجو بما يأتي به  
 يا رب أمن خوفه

وإذا صح أن ذاك المهجو هو هذا المرثي، والغالب أنه هو، فقد يكون حاله صلح فيما بعد، وتم الصفاء بين شاعرنا وابن مفضل قبل مماته.

وكانت خطة العدالة والتوثيق - حسب الشاعر - أسوأ حالاً من خطة القضاء وقد اشتغل هو نفسه بخطة العدالة وكان فيها من الحذاق المبرزين ولكنه عزل عنها مرة بتواطؤ من بعض خصومه ومنافسيه في الصنعة وهو ينعت هؤلاء بالجهل ويقول فيهم (139) :

تعاطى خطة التوثيق من لا  
 لفريط الجهل رسم الخط يعرف  
 فكيف لشئيه إنشاء رسم  
 بتوكيل امرئٍ وعليه مشرف

وقال في المعنى نفسه (139) :

تحكم في التوثيق قوم بجهلهم  
 إلى أن آتوا فيه بما ليس يُعرف  
 وأعجب ما جاءوا به في عقودهم  
 وكيل عليه في الوكالة مشرف

وهذا الصنف من العدول لجهلهم، وضعف شخصيتهم معروفوون بتملق القضاة وتقبل الإهانة منهم بينما العدول المبرزون - وكان الشاعر

منهم - لا يرضون بذلك، وهذا ما عبر عنه الشاعر في قوله مخاطباً بعض القضاة (113) :

بَذِلُ النصيحةِ واجبٌ لَكَ سَيِّدي  
فَاصْحُ فعْنَكَ نصيحتي لَمْ أخْزُنِ  
إِنَ الْعُدُولَ مِنَ الشَّهُودِ يَسُوءُهُمْ  
جَعْلُ الْمُبَرَّزِ مِنْهُمْ كَالْمُخْزَنِي

والمحزني في استعمالنا هو العون، ويقول مخاطباً بعضهم (113) :  
رأيت عظيمةً أشفقتُ منها

وَشِيمَةُ سَيِّدي دَفْعُ الْعَظَائِمِ  
عَدُولَكَ فِي حَوَانِتِهِمْ قَعُودٌ  
وَغَيْرُ الْعَدْلِ بِالتَّحْلِيفِ قَائِمٌ

وخاطب بعض القضاة الذي حاز مستحقات له لدى شخص يدعى

ابن عجيب (77) :

أَيُّهَا الْقاضِي الْمُنْتَقِي مِنْ أَنَاسٍ  
لَيْسَ فِيهِمْ سَوَاءٌ مِنْ نَجِيبٍ  
مَا الَّذِي غَرَّ ذَلِكَ الْمَجْدَ حَتَّى  
حَازَ مَا كَانَ لِي لَدَى ابْنِ عَجِيبٍ

وقد وقفنا في وثائق عربية غرناتية (77)، على ذكر «المرحوم أحمد بن عجيب» من أعيان بسطة وذلك في رسم مؤرخ في صفر عام 880 فلعله المذكور في آخر البيتين.

ويقول في مخاطبة قاضٍ آخر (121) :  
بِرَغْبِيِ عُدُولِ الْوَقْتِ غَيْرًا وَمَسْهَدًا  
تَحْلُّ مِنَ الْفَرْدَوْسِ أَعْلَى الْأَرَائِكِ

وقد ساءُهُمْ أَن يُحْرِمُوا كُلَّ فَائِدٍ  
لديكَ اغتَدَى حَتَّى حضور التَّرَائِكِ

والترائك في استعمال عدولنا هي التركات . وحسب الشاعر فقد انتهى الحال بخطة التوثيق إلى التعطيل ، وله قصيدة طويلة تقع في 42 بيتاً قالها «ما وقع تعطيل التوثيق ببساطة» وهذه القصيدة كالمريمية بدأها الشاعر بقوله : (94)

ما للدموع بصفح الخد تطرد  
للبلاوع بنار الوجد تتقد

ويقول :

خطبُ الْمَ فلْمْ يَسْطُعْ تَحْمِلَهُ  
لفرط وطأته قلبُ ولا خلدُ  
تصدَعْتْ كِبِدُ الدِّينِ الْحَنِيفِ لَهُ  
فالدِّينُ لَيْسَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ كِبِدُ

ثم يصف تألم الناس في بسطة لتعطيل التوثيق الذي كان روح الحياة الدينية وشعار الإسلام فيها ، تحفظ به المعاملات وتصان معه الحقوق ، والشاعر يشير إلى فقيهين تواطئا مع حاكم على هذا الأمر الخطير :

إِلَّا فَقِيهَيْنِ لَا كَانَا وَلَا وُجِدُوا  
فِي النَّاسِ ، لَمْ يَجِدَا مِثْلَ الَّذِي وَجَدُوا  
وَأَنْهَرَا لَا عَقْدَ السَّوَءِ ذَمَّتْهُ  
مَعَ عَاصِدٍ لَهُمَا يَا بَئْسَ مَا اعْتَضَدُوا

كما يشير إلى ترويع المؤثرين وتخويفهم ويتساءل عن سبب إهمال التوثيق وتعطيله ومما تسأله عنه قوله :

تُرَاهُمْ قَصْدُوا تُشْرِيفَ رُتْبَتِهِ  
 بِذَكِّ وَاللَّهِ مَا تَشْرِيفَهُ قَصْدُوا  
 تُرَاهُمْ اعْتَمَدُوا إِصْلَاحَ فَاسِدِهِ  
 بَلِ الْفَسَادُ بِمَا قَدْ أَصْلَحُوا اعْتَمَدُوا

ثُمَّ يَعُودُ فِي هُؤُلَاءِ الَّذِينَ عَطَلُوا التَّوْثِيقَ :  
 خَلَوْا صَرِيحَ كِتَابَ اللَّهِ وَاسْتَنَدُوا  
 لِبَاطِلٍ بِشَسَنَةِ مَا عَمِدَّا لَهُ اسْتَنَدُوا  
 خَانُوا الشَّرِيعَةَ بِالْفَعْلِ الَّذِي فَعَلُوا  
 يَا لَيْتَ شِعْرِيَ هَلْ مِنْهُمْ لَهَا قَوْدٌ  
 لَقَدْ أَتَوْا مُنْكَرًا يَبْقَى الْحَدِيثُ بِهِ  
 يُرَوَى وَيُسَنَّ عَنْهُمْ مَا بَقَى الْأَبْدُ  
 فَدَعْهُمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ سَفَهًا  
 فَدَعْهُمُ إِنْهُمْ يَلْقَوْنَ مَا وَعَدُوا  
 وَكُلُّ مَا عَقَدُوا يَنْحَلُّ مِبْرَمَهُ  
 إِذَا انْقَضَ وَقْتُهُ يَنْحَلُّ مَا عَقَدُوا

ويفهم من البيت الأخير أن هذا التعطيل ربما رفع وعاد التوثيق من جديد إلى بسطة، ولا نعرف شيئاً عن هذه الحادثة التي دونها الشاعر، وربما كانت في عهد بعض الجبابرة ذوي النفوذ في بسطة، فقد ذكر القلصادي في رحلته أن أبا الحسن اللخمي شيخ الجماعة في هذه المدينة «خرج من بسطة بسبب بعض الجبابرة في وقته إلى برشانة من وادي المنصورة وذلك ليلة الجمعة لأربعين يوماً من جمادى الأولى ستة سبع وثلاثين وثمانمائة». ووافق يوم الجمعة المذكور الثامن من ينير (1434)، وأقام بها نحو العشرة أشهر ثم عاد إلى بسطة إلى أن توفي بها في زمن الوباء عاشر يوم من صفر عام أربعة وأربعين وثمانمائة»<sup>(6)</sup>.

ويبدو أن الأمر فيما سماه شاعرنا الفقيه «تعطيل التوثيق» يتعلق بتغيير في مسitrته أو إصلاح لها كما سماه القائمون به حسبما ورد في بيت سابق، وهذا التغيير بادٍ في الوثائق التي كتبت فيما بعد منتصف القرن التاسع حتى سقوط غرناطة، وقد تنبه لهذا الأستاذ لويس سيكودي لوثينا وقال: «إن الوثائق الغرناطية التي أشرها الآن والتي تصل تواريختها إلى تاريخ سقوط غرناطة تتضمن صيغًا مخالفة لتلك التي نجدها في مجموعة ابن سلمون الذي يدخل في عداد فقهاء غرناطة ويتبع طريقتها في تحرير الشروط». ولاحظ أن تلك الوثائق «تتضمن تعبيرًا غريبًا خارجًا عن القواعد التي كانت تطبق بها الأصول الفقهية العjarية في الفقه الأندلسي»<sup>(7)</sup> وقد رأينا فيما سبق كيف أن شاعرنا الفقيه القيسي كان معجبًا بوثائق ابن سلمون ملتزماً بالعمل بها مخالفًا من يتكلّم فيها قال (92):

فخذْها لحُكْمِيْ أو لعَقْدِيْ وثِيقِيْ  
· على ثُقَّةِ مِنْهَا بِشَرْحِيْ وَتَبْيَيْنِ  
· ولا تلتفتْ فِيهَا إِلَى قُولِيْ قَائِلِيْ  
وَكُنْ بِالذِي جَاءَتْ بِهِ جَدَّ مَفْتوَنِي

ويبدو أيضًا أن الشاعر عارض الخروج على نهج وثائق ابن سلمون فأحرق حانوته وأوذى لا لسبب سوى أنه يقول الحق ويراعي أصول التوثيق:

وَأَمْوَأُوا جَمِيعًا بِالإِذَايَةِ جَانِبِيْ  
· عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ لِلأَذَى بِمُحَلَّلِ  
· سِوَى أَنِّي أَصْبَحْتُ لِلْحَقِّ نَاصِرًا  
وَلَمْ أَلْفِتْ مِنْهُمْ إِلَى عَدْلٍ عَدْلًا  
وَرَاعَيْتُهُ إِذْ لَمْ يُرَاغُوهُ ضَلَّةً  
· وَصَارَ لِدِيهِمْ مِنْهَلًا أَيَّ مَنْهَلٍ

وَأَبْدَلُوا مِن التَّأْوِيلِ رَأِيًّا مُّوَهَّنًا  
وَمَا أَحْسَنُوا فِي رَأِيهِمْ وَالتَّأْوِيلِ

ومما يشبه شعر البسطي في هذا الموضوع:

فَسَدَّتْ صَنْعَةُ التَّوْثِيقِ لِمَا  
أَنْ بَدَا كُلُّ جَاهِلٍ يَدْعُوهَا  
لَمْ تَكُنْ غَيْرَ رَوْضَةٍ فَاسْتَبِيَحَتْ  
فَغَدَا كُلُّ نَاعِقٍ يَرْتَعِيْهَا

ولم يُعْفِ شاعرنا الفقيه من نقده بعض الأئمة والخطباء والمقرئين والمدرسين، وربما لم ييراً نقده من ملابسات المعاصرة، وها هو يقول في بعض معاصريه من الفقهاء (82):

بِإِبْيَانِ فَقِيهَ حَافِظٌ مُّتَفَنِّنٌ  
بِالنَّحْوِ دُونَ سُوَادِ أَصْحَى يُشَهِّرُ  
يَتَلَوُ وَيَكْتُبُ حَرْفَ «تَنْهَرُ» فِي الْأَصْحَى  
مِنْ جَهْلِهِ بِالرَّفْعِ مَعَ «لَا تَنْهَرُ»  
وَإِذَا يَرَوْمُ رُجُوعَهُ عَنْ لَخْنِهِ  
أَحَدُ بِمُضَحْفِهِ لَهُ يَسْتَظْهِرُ  
يَأْبَى الرَّجُوعَ لَهُ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ  
خَلَلٌ بِمُضَحْفِهِ الْعَتِيقِ مُسَطَّرٌ  
الْجَهْلُ يَوْقِعُ أَهْلَهُ فِي مُنْكَرٌ  
يَقْنَى عَلَى مَرْأَةِ الْيَالِيِّ يُذْكَرُ  
وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى جَهَالَتِهِ الَّتِي  
تَبَدُّلُ مَخَايِلُهَا عَلَيْهِ وَتَظْهَرُ

تخصيصه بوداده مَنْ جَهْلُهُ  
بِادٍ وَيَهْرُبُ مِنْ سِوَاهُ وَيَنْفِرُ  
بِاللَّهِ مِنْ شَيْطَانِهِ أَنَا عَائِدٌ  
فِيهِ يَعُوذُ مِنَ الْوَرَى مَنْ يَحْذَرُ

وقال معرضاً بخطيب (68):  
وَخَطِيبٌ لَمْ تَرَ الْعَيْنَ لَهُ  
فِي الْوَرَى مِثْلًا إِذَا مَا يَخْطُبُ  
طَوْلَ الْخُطْبَةَ حَتَّى كَادَ مِنْ  
طُولِهَا وَقْتُ الصَّلَاةِ يَذَهَبُ  
خِلْتُهُ وَهُوَ عَلَى مِنْبَرِهِ  
فَاغْرَا فَاهُ غَرَابًا يَنْغَبُ  
وَكَانَ الْمُسْمَعِينَ الْوَاعِظَ لِلنَّ  
وْمُ مَوْتَى فِيهِمْ يُسْتَغْرِبُ  
يَا نُبَاحَ الْكَلْبِ أَنْتَ الْمُشْتَهَى  
دُونَ مَا يَأْتِي بِهِ، الْمُسْتَغْذَبُ

وقال في التعريض بأحد المدرسين (75):  
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَوْصِيكَ فَاسْمَعْ  
مِنْ نَصِيحَ مُرَادُهُ صَوْنُ عِرْضِكَ  
اَتْرُكِ الْبَحْثَ فِي كِتَابِ الْمُوَطَّا  
وَالْتَّمِسْ مَا يُفِيدُ مِنْ حَرْثِ أَرْضِكَ

وداعب أحد أصحابه من الأئمة الذين لا يحفظون القرآن حفظاً جيداً  
ناصحاً إياه أن يشفع بالقرآن في القرى الصغيرة التي لا يوجد فيها من  
يحفظ القرآن فيكتشف حاله، قال (80):

اسْمَعْ وَصِيَّةَ ناصِحٍ لَكَ مُشْفِقٍ  
 يَبْغِي الْخَلَاصُ لِنَفْسِكَ الْمِسْكِينَةَ  
 مَهْمَا دَعَتْكَ ضَرُورَةٌ لِتَشَفَّعَ  
 فَاقْصِدْ قُرَى نجِيَّةٍ وَمِسِينَةَ  
 فَإِذَا أَرْدَتْ سِوَاهُمَا لَا تَرْتَحِلْ  
 إِلَى تَلَوْنَ أوْ مِيرِينَه  
 وَنِجِيَّةٍ وَمِسِينَه وَتَلَوْنَ وَمِيرِينَه أَسْمَاءُ قَرَى مِنْ جَهَاتِ بَسْطَةِ .

وَنَتَّقَلْ بَعْدَ هَذَا إِلَى مَوْضِيعَ آخَرَ تَنَاهُلَهُ الشَّاعِرُ الْفَقِيهُ بِالنَّقْدِ، وَأَكْثَرُ  
 فِيهِ الْقَوْلُ، أَلَا وَهُوَ الْأَحْبَاسُ الَّتِي كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ لِمُثْلِهِ مِنَ الْأَئْمَةِ وَالْمُقْرَئِينَ  
 وَالْمُدْرَسِينَ مُورِدُ الرِّزْقِ وَالْعِيشِ، وَقَدْ رأَيْنَا فِيمَا سَبَقَ مَعرِكَةَ صَاحِبِنَا مَعَ نَاظِرِ  
 الْأَحْبَاسِ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُ عَنْهُ حَقَّهُ فِيهَا حِينَ كَانَ طَالِبًا وَمَرْتَبَهُ مِنْهَا عِنْدَمَا  
 أَصْبَحَ إِمَامًا وَمَقْرِئًا وَخَطِيبًا، وَيَدَلُّنَا بَعْضُ شِعْرِهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحَاوِلُ الْإِسْتِفَادَةِ  
 مِنْهَا بِوَاسِطَةِ اكْتِرَاءِ بَعْضِ أَرْاضِيهَا لِلْفَلَاحَةِ، وَمِنْ هَنَا كَانَ اهْتِمَامُ الشَّاعِرِ  
 بِهَذَا الْمَرْفَقِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْحَيْوِيِّ، وَتَدَلُّنَا كَتَبُ النِّوازِلِ عَلَى أَنَّ الْأَحْبَاسَ فِي  
 مَدِينَةِ بَسْطَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَدِينَاتِ وَالْقَرَى فِي مُمْلَكَةِ غَرْنَاطَةِ كَانَتْ كَثِيرَةً  
 وَمُتَعَدِّدَةُ الْوِجُوهِ وَكَانَ يَتَفَعَّلُ مِنْهَا عَدْدٌ لَا يَبْأَسُ بِهِ مِنَ الْمَجَمِعِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي  
 ذَلِكَ الْعَصْرِ .

وَقَدْ سَرَى فِي هَذِهِ الْمَؤْسِسَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ قَبْلَ سُقُوطِ مُمْلَكَةِ غَرْنَاطَةِ  
 كَثِيرٌ مِنَ الْبَعْدُ وَالْانْهَالُ وَظَهَرَ هَذَا فِي إِهْمَالِ الْمَسَاجِدِ وَتَعْرِضَهَا لِلضَّيَاعِ  
 وَالتَّهْدِمِ وَالْخَرَابِ وَهَذَا مَا تَشِيرُ إِلَيْهِ كَتَبُ النِّوازِلِ وَيَشَهِدُ بِهِ كَلَامُ الشَّاعِرِ،  
 فَهَا هُوَ يَوْجِهُ الْخَطَابَ إِلَى أَهْلِ بَلْدَهُ بَسْطَةَ قَائِلًا (77) :

يَا أَهْلَ بَسْطَةَ مَا لَكُمْ فِي غَفَلَةٍ  
 عَمِّتْ وَأَمِنْ مِنْ حَلُولِ الْبَاسِ  
 وَمَسَاجِدُ اللَّهِ الَّتِي فِي مِصْرِكُمْ  
 ضَاعَتْ لِغَفَلَةٍ نَاظِرِ الْأَحْبَاسِ

كما خاطب الرئيس القاضي الماجد أبا عمرو ابن منظور في شأن الأحباس بهذه الآيات (91) :

يا أيها الماجد المأمول جانبُه  
لحفظ الأحباس من عادٍ ومفترسٍ  
الله فيها فقد ضاعت وقد خربت  
وأصبحت في عداد الأربع الدّرس  
وللمساجد يسري أمر ضياعها  
إن حقها دون أحباسِ البلادِ نسي  
وقد أتاك بما تلقاه شاكيةً  
مع أنها وصفت بالعي والخرس  
ومشرفاً وشهيداً انظرنا لها  
وناظراً ظاهر الأعراض من دنسٍ  
لا زال جانب ذاك المجد مُرتفعاً  
مبلغ القصد منه كُل مُلتَمسٍ

وخطاب بعض الأعيان - ولعله ابن منظور أيضاً - في شأن الأحباس المعينة لبيوت الله بقصدية أشار في أولها إلى الغبن الحاصل في كرائها من قبل النظار، وذلك أنها كانت تكرى بصرف الدرهم السبعيني وعلى نسبة ثم تبدلت السكة ونقصت ولم تتغير النسبة وفي هذا إجحاف بحقوق الأحباس، قال (127) :

يا خير من يرجى على التعيين  
لصلاح دنيانا وحفظ الدين  
يا نخبة الأعيان من أهل الثقى  
من مغرب حتى لأقصى الصين

أَخْبَاسُنَا تَشْكُو إِلَيْكَ بِحَالِهَا  
 مِنْ بَخْسِهَا وَكِرَائِهَا الْمَغْبُونِ  
 وَتَقُولُ إِنَّ كِرَاءَهَا لَمْ يَنْعِدْ  
 إِلَّا بِصَرْفِ الدِّرْهَمِ السَّبْعِينِيِّ  
 وَمِنْ الْعَظَامِ عِنْهَا تَعْوِيْضَهُ  
 بِالدِّرْهَمِ الْجَارِيِّ بِهَذَا الْحِينِ  
 لِلزَّهْدِ فِيهِ وَكُونِهِ مِنْ غِشِّهِ  
 مِنْتَاهِيًّا فِي وَصْفِهِ بِالذَّوْنِ

وهذا الذي ذكره الشاعر في موضوع السكة يوجد ما يُطابقه في كتاب المعيار<sup>(8)</sup>، فقد سهل أبو عمرو ابن منظور القاضي عن «أن الوظائف الموظفة على الأرضين بجزيرة الأندلس المسماة بالمعونة، كانت موضوعة في القديم على نسبة الدرارم السبعينية، وظفت عليها ل تقوم بها مصالح الوطن... ثم إن السكة تبدلت ونقصت على ما في علمكم...».

وقد ذكر ابن عاصم في شرحه لتحفة والده فتوى ابن لب في المسألة وعلق عليها بقوله: «وأشدَّ من ذلك ما وقع في عام ستة وثلاثين من هذا القرن التاسع وفي العامين بعده من اختلاط السكة بالتحاس إلى أن صدر الأمر من السلطان سُدَّدَ اللَّهُ بِقَطْعِ تِلْكَ السَّكَّةِ».

وقد أشار الشاعر في موضع آخر إلى هذا العيب الذي أصاب السكة فقال موريأً بامرأة لقبها قيراطة (115):

الْغِشَّ عَيْبٌ وَهُوَ فِي صَرْفِنَا  
 قَدْ أَحْكَمَ التَّضْيِيعَ إِفْرَاطَهُ  
 فَصَرْفِنَا دِرْهَمَهُ لَمْ يُعْنِ  
 مَنْ ذَمَّهُ أَوْ ذَمَّ قِيرَاطَهُ

ويعبر الشاعر بعد هذا عن تطلع الأحباس لنصرة هذا السيد وعمل ما في وسعه من أجلها ثم يذكر إهمال المساجد و يجعلها تشكو بلسان الحال وتصف خرابها وأكل نظار الأوقاف أموالها، قال:

وَتَرُومُ مِنْكُمْ نَصْرَهَا وَتَعْدَهُ  
لِحُصُولِهِ فِي حَيْزِ الْمَضْمُونِ  
فَفَضَّلُوا مِنْهُ بِمَا فِي وَسِعُكُمْ  
فَالْأَجْرُ فِيهِ لِيَسَ بِالْمَغْبُونِ  
فِيهِ حِيَاةُ مَسَاجِدِ إِهْمَالُهَا  
لِظُهُورِهِ يَغْنِي عَنِ التَّبَيِّنِ  
  
تَبَكِيُ الْعَيْنُونُ وَلَا تَمْلُ لِمَا بِهَا  
مِنْ ضَيْقَةٍ مِنْ دَمْعَهَا بِهَتْوَنِ  
هَانَتْ عَلَى عُمَارِهَا فَتَهَاوَنَا  
مِنْهَا بِعْلُقٍ - لَا يُنَالُ - ثَمَينِ  
حَتَّى لَخَافَ أُولُو النَّهَى أَنْ يَتَهَيَّ  
بِهِمُ التَّهَاوُنُ لَأَنْجِرَارِ الْهُونِ  
فَهَدَمَتْ بَعْدَ الْبِنَاءِ وَأَصْبَحَتْ  
مِنْ عُرْبِهَا فِي خَلْعَةِ الْمَسْكِينِ  
تَشَكُّو لَكُمْ بِلِسَانِ حَالٍ قَاتِلٍ  
مِنْ ذَا الَّذِي يَبْيَنِي أَوْ يَكْسُونِي  
لَهُفِي عَلَى قَوْمٍ بَنُونِي وَاغْتَنَّوا  
مِنْ وَقْفِهِمْ لِي بِالَّذِي يَكْفِيَنِي  
سَاتُوا فَمَوْتِي بِالْخَرَابِ مُحَقَّقٌ  
إِذْ بَعْدُهُمْ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُخْبِيَنِي

## وَجَمِيعُ أُوقَافِي - عَلَى مَا حَلَّ بِي مِنْ فَاقَةٍ - تُجَبِّي وَتُؤْكِلُ دُونِي

وشكوى المساجد هنا تذكّرنا بالرسالة التي كتبها ابن محرز على لسان مساجد القرى في الشام، ومما جاء في شكوى إحداها: «الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب، وصير أموالنا كالسراب، وجعلنا مأوي البويم والغراب، أحمده حمد من كان فقيراً ثم استغنى، وأدرك بمال التوقف ما تمنى» وجاء في هذه الرسالة أيضاً «أن الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلت من الراكم والساجد، فأصبحت مساجد الغوطة غيطان، لا سقوف لها ولا حيطان، وجوامع حوران مخازن وأفران، ومشاهد البقاع صفصفاً كالقاع»<sup>(9)</sup>.

وإذا كان في كلام الوهراني شيءٌ من المزح فإن كلام صاحبنا البسطي جدٌ في جد، فقد أشارت كتب النوازل إلى ما حلّ بمساجد التغور كبلش وبسطة من خراب (المعيارج 7)، وبعض أسباب هذا الخراب يرجع إلى محنّة الناس يومئذ وانشغالهم بمدافعة غارات أعدائهم، ولكن بعضها الآخر يرجع فيما يقول الشاعر إلى إهمال النظار وأكلهم أموال الأحباس بالباطل.

أما بقية القصيدة فيدور حول تعليق الرجاء على المخاطب في أن يغير هذا المنكر وينظر في إصلاح أحوال الأحباس.

إن الشكوى من سوء الأحوال في بسطة وغيرها سمة بارزة في ديوان القيسى، وتنديده بالظلم والجور سائِر في عموم شعره، وكان يتأنّى من عدم احترام الناس لأئمتهم وعلمائهم، ومما قاله في أهل بسطة من قصيدة :

مُنَاهِمْ مَدَى الْأَيَامِ ذُلُّ إِمَامِهِمْ  
وَذُلُّ إِمَامِ الْقَوْمِ مِنْ أَقْبَحِ الْأَشْيَا

وقال في أهل المنكب الذين تهاونوا بإمامهم (111):  
وَإِنْ أَنَّاساً بِالإِلَامِ تَهَاوُنُوا  
لِأَفْضَلِ مِنْهُمْ فِي الْيَهُودِ وَفِي الرُّومِ

وقال في هذا الشأن يخاطب أحد أهل العلم والصلاح ويُسأله الدعاء

(91):  
يَا وَحِيدَ الزَّمَانِ دِينًا وَفَضْلًا  
وَجَلَالًا وَفِي الْعُلُومِ اتَّسَاعًا  
أَيْ ذَلِّ أَصَابَنَا بَيْنَ قَوْمٍ  
أَهْمَلُوا الدِّينَ عَنْ وِفَاقٍ فَضَاعَا  
رَعَوْا الْبَاطِلَ الْمَذْمَمَ فِينَا  
وَغَدَا فِينَا الْحَقُّ مَا إِنْ يُرَاعِي  
دُعَوَةَ الْفَضْلِ مِنْكَ لِلَّدِينِ نَرْجُو  
هَا هُنَا إِنَّ رَكْنَهُ قَدْ تَدَاعَى  
فَتَفَضَّلْ بِهَا عَلَى ظَهْرِ غَيْبٍ  
تَتَخَذُهَا لِمَا نَخَافُ دِفَاعًا  
وَاعْتَمِدْ وَصْلَهَا صَبَاحَ مَسَاءً  
فِيهَا لِلْخُطُوبِ نَرْجُو انْقِطَاعًا

ومما أُعلن فيه تذمّره من إهمال الدين وغلبة الجور والظلم وضيوع العدل والحق هذه الأبيات التي جعلها في صدر رسالة له إلى بعض أصحابه (92):

أَنْسٌ وَلَوْ بِكِتَابٍ مِنْكَ مَهْمُومًا  
يَرَى بِسَطَّةَ زَيْنَ الْعِيشِ مَذْمُومًا  
أَصْحَى إِمَامًا بِهَا لَرْ لَمْ يَجْرِ زَمْنٌ  
أَعَادَهُ بِتَوَالِي الْجَوْرِ مَأْمُومًا

عَدَا وَفِرْطَ حَتَّى الْدِينُ غَيْرَهُ  
 فَدَالُهُ رُدٌّ بَعْدَ الْكَسْرِ مَضْمُومًا  
 كَمْ شُمَّ فِيهَا لطِيبُ الْعَدْلِ مِنْ أَرْجَعٍ  
 وَمَا سُوِّيَ الْجَوْرُ يُلْفِي إِلَآنَ مَشْمُومًا  
 فَبَارُدُ الْعَيْشِ فِيهَا الْيَوْمَ يَحْسَبُهُ  
 لِضَيْعَةِ الْحَقِّ غَسْلِينَا وَيَحْمُومَا

وهكذا انقلبت الأحوال فأصبح الإمام مأموماً والدين دوناً وبدلت رائحة العدل الزكية برائحة الجور الكريهة وصار الماء العذب البارد كالغسلين أو اليموم .

ونشير في آخر هذا الفصل إلى أن الشاعر سجل - فيما سجله من أحوال عصره وبيلده - أزمات الجدب وانحباس المطر، وممّا قاله عند توالي قحط واتصاله متوسلاً إلى الله سبحانه بجهة نبيه أن ينزل الغيث على عباده : (113)

يَا مَنْ يُؤْمِلُ لُطْفَهُ  
 عَنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ  
 بِمُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى  
 مَا بَيْنَ عُجْمٍ أَوْ عَرَبْ  
 أَنْزَلَ عَلَيْنَا رَبِّنَا  
 مَطَرًا كَأْفَوَاهِ الْقِرَبِ  
 نَجْبُرُ بِهِ مِنْ حَالِنَا  
 مَا اخْتَلَ مَحْلًا وَاضْطَرَبْ  
 وَتُبَلَّغُ النَّفْسُ الَّتِي  
 يَعْسَتْ بِهِ أَسْنَى الْأَرْبَ

وقال في قطعة أخرى عند شدة قحطٍ:  
 يا رب يا رب بالآيات والسور  
 وأحمد المصطفى المختار من مضرٍ  
 بنور وجهك يا رب الذي بهرت  
 أنواره ما بدا للشمس والقمر  
 بما به قلت لأشياء كن فاتت  
 تروق في أجمل الهيئات والصور  
 أرحم ضراعتنا واقبل وسيلتنا  
 وامنْ علينا بما نرجو من المطرِ  
 وخُص من صوبه الهتان أربعنا  
 بواكبِ وبابِ جودٍ ومنهم  
 تحيي الزروع التي بالقحط قد يَسْتَ  
 وما به جف من بقلٍ ومن خضرٍ

ولكنه صور أيضاً خيرات بسطة في زمن العصير وهو موسم الجنبي  
 عند الأندلسين، قال يصف باكوراً مختلف اللون (113):

ويأكُور بستانٌ دنا وقتٌ جنبيٌ  
 فأضحي يرُوقُ الطرفَ عندَ التوسمِ  
 لَه مطعمٌ كالشهيدِ عندَ مذاقهِ  
 ورائحةُ كالمسكِ عندَ التنسمِ  
 وكالمسكِ والكافورِ أو كزمردٍ  
 وكالتيين منهُ اللونُ عندَ التقسيمِ  
 غداً الغصنُ منْ أنواعِ الغُرْ مُثِيراً  
 بأحقان شهدٍ شيبَ فيها بسمسمٍ

إِذَا بَكَرَ الْجَانِيُّ يُؤْمِلْ جَنِيًّا  
تُلَاقِيهِ إِعْجَابًا بِهِ ذَا تَبَسُّمٌ

وقد تقدّمت نماذج من وصفه لفواكه بساتين بسطة وفلاحة السقي فيها.

كما نشير أيضاً إلى شعره الذي أنشأه ليكتب على بعض الأدوات الحضريّة كأقداح الفخار الذي اشتهرت بصناعته مملكة غرناطة والمرابط الأندلسية وخزائن الكتب والأقواس والتروس ومعدّ الدرّاهم، ومرشم الخبز، وكذلك شعره في حمامات بسطة ومساجدها ومتزهاتها. وإشارته إلى ركب الحاج الأندلسيين، وما يصحبونه للإهداء عند عودتهم.

ومن شأن هذا كله أن يؤلف مادة نافعة في معرفة هذه الحقبة التي ضاعت مصادرها العربية، والقليل المعروف عنها مأخوذ من الحوليات المسيحية.

---

## الحواشي

---

- (1) بدائع السلك لابن الأزرق ج 1 ص 249.
- (2) المعيار المعرّب 33: 385.
- (3) وثائق عربية غرناطية: 8.
- (4) المعيار المعرّب 3: 331.
- (5) أبو المطرّف أَحْمَدُ بْنُ عُمَيْرَةَ: 132.
- (6) رحلة القلصادي: 90.
- (7) وثائق عربية غرناطية: 3 م.
- (8) المعيار المعرّب 11: 142، 127: 7، 153، 165.
- (9) منامات الوهرياني: 63 - 64.



## بَيْنِ الْجَدِّ وَالْهَزْلِ

جمع القيسي البسطي - كما يبدو من خلال شعره - بين هزل الأدباء وتظرفهم وجد الفقهاء وتحفظهم، ولعل هذا ما يفسر لنا وجود المستملحات والغزليات إلى جانب الابتهاles والزهدiyات في ديوانه، وفيهم من شعر له أنه عرف في شبابه بالهزل ولكنه بعد بلوغه سن الرشد عدل عن مأخذ الهزل إلى طرق الجد، قال (135):

دِنْتُ بِالْجَدِّ فَقَالُوا: عَكْسُهُ  
مَذْهَبٌ لِي، قَوْلُ قَوْمٍ مُفْتَرِينْ  
قُلْتُ: مَا أَقْبَحَ عَكْسَ الْجَدِّ لَا  
سِيمَا بَعْدَ بُلُوغِ الْأَرْبَعينِ

ونحن نجده في ديوانه ميالاً إلى الإطالة في النسب في مقدمات قصائده المدحية والإخوانية، كما أن له قصائد ومقطوعات غزلية متعددة، ومما يدل على ميله إلى الهوى وولعه بالغزل قوله من قصيدة (41):

وَرُبْتِي فِي هَوَى الْغِيدِ الْحِسَان سَمَّتْ  
 حَتَّى بَدَتْ لِلْوَرَى مِنْ دُونِهَا الرُّتبَ  
 وَلِي بَهْنَ وَلَوْعَ لَا خَفَاءَ بِهِ  
 وَكَيْفَ يَخْفَى وَلَوْعِي وَالْهَوَى السَّبَبُ  
 وَلَسْتُ أَعْشَقُ إِلَّا مَنْ لَهَا شِيمَ  
 مَنَالُ اقْرَبَهَا مِنْ دُونِهِ الشَّهْبُ

وقد أحب في شبابه واحدة تدعى فاطمة وقال فيها قصيدة أولها (41):

قُرْبُ الْأَجِيَّةِ بَعْدَ الْبُعْدِ مُرْتَقَبَ  
 وَوَصْلُهُمْ بِإِنْصَارِمِ الصَّدَّ مُعْتَقَبَ

ومنها:

وَمَا أَعْانِيهِ مِنْ وَجْدِي بِفَاطِمَةِ  
 أَجْلٌ خَوْدٌ إِلَيْهَا الْحَسْنُ يَتَسَبَّبُ  
 فَمِقْولِي قَاصِرٌ عَنْ وَصْفِهِ أَبَدًا  
 وَلَوْ غَدَا عَاصِدِي فِي وَصْفِهِ الْأَدَبُ  
 وَهِيَ الَّتِي فَتَتَنَّيِي مِنْ مَحَاسِنِهَا  
 بُغْرَةٌ مِنْ سَنَاهَا يَعْجَبُ الْعَجَبُ  
 إِذَا بَدَتْ لَحْظَةً وَالشَّمْسُ طَالِعَةُ  
 تَكَادُ مِنْ حَسَدٍ تَخْفِي وَتَنْحِجُ

وفي هذه القصيدة وصف لطيف لمشاهد توديعه لحبيبه، ويبدو أن هذا كان عند خروج الشاعر من بسطة في شبابه طلباً للعمل، ولعل هذه الحبيبة هي التي بعث إليها - وهو في الأسر - بقصيدة تقع في الديوان بعد القصيدة المذكورة مباشرة وأولها (42):

يا راحَةُ الرُّوحِ فِي أَسْرِي وَإِطْلَاقِي  
 وَسُلْوَةُ النَّفْسِ فِي وَجْدِي وَإِمْلَاقِي  
 وَفِي كُلَّنَا الْقَصِيدَتَيْنِ يَدْعُ الْوَفَاءَ، قَالَ فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ الْأُولَى :  
 الْحُبُّ أَرْعَى لِذَاكَ الْحُسْنَ مَا بَقِيَْتُ  
 رُوحِي بِجَسْمِي مَالِي عَنْكَ مُنْقَلَّبُ

وَقَالَ فِي آخِرِ الثَّانِيَةِ :  
 مَا هِمْتُ بَعْدِكَ فِي هَيْفَاءِ فَاتِنَةِ  
 وَلَا اسْتَطَبْتُ شَرَابًا مِنْ يَدِي سَاقِ  
 وَلَكُنَّا نَجْدَهُ - وَهُوَ فِي الْأَسْرِ - يَتَغَزَّلُ فِي فَتَاهَ نَصْرَانِيَّةً تُدْعِي الْأَبِيرَةَ :

(12) :  
 وَأَعْجَبَ عَبَادِ الصَّلَبِ صَبِيَّةً  
 سَبَّتِنِي بِوْجِهٍ مُثْلِّـ بَدْرِ مُتَمَّـ  
 فَبَتُّ حَلِيفَ الْهَمِّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهَا  
 وَبَاتَتْ بِهِجْرِي فِي فَرَاشِ تَنَعُّـ  
 وَكَمْ نَعَمْتِنِي مِنْ لَذِيذِ وَصَالِهَا  
 بِمَا لَمْ تَصْلِ نَفْسِي لَهُ بِتَوْهُمِ  
 فَقَبَلْتُ مِنْهَا الْخَدَّ وَهُوَ مُورَدٌ  
 وَثَبَيْتُ بِالثَّغْرِ الْمَلِيْحِ التَّبَسُّـ  
 وَمَالَتْ لَفْرَطِ السَّكْرُ وَهُيَّ مَرِيْضَةً  
 كَمْيَلِ الصَّبَا صُبْحًا بُغْضِنِ مَنَعَـ  
 وَلَوْلَا عَفَافِي وَاتِّقَاءُ عَتَابِهَا  
 تَمْتَعَتْ مِنْهَا بِالْمَحَلِّ الْمَحَرَّـ

وَيَقُولُ فِيهَا - عَلَى مَا يَدُو - مِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى (130 - 131) :

غَزَالٌ مِنْ ظَبَاءِ الرَّوْمِ غَرِّ  
 كَحِيلُ الْجَفْنِ ذُو وَجْهٍ مَلِيحٍ  
 إِذَا رَامَ الْكَلَامَ فَأَعْجَمَيْ  
 وَيَهْزُأُ لِلْمَلَاحَةِ بِالْفَصِيحِ

ولشاعرنا قصيدة مهدّد لها بقوله: «وقلت في غرض التغزل والله يعفو  
 ويغفر» وأولها (103) :

بِدَمِي مُنْعَمَةً كِعَابُ ذَاتِ دَلْ  
 هِيفَاءُ تُزْرِي بِالْقَضِيبِ إِذَا اعْتَدَلْ

وفيها خلع العذار وخالف العفاف، ولا نعرف هل ما قصه فيها من  
 قبيل الحقيقة أم أنه من نسيج الخيال.

وله غزل مذكر، ولكنه ليس كالنمط النواسي فهو يخلو من هجر القول  
 ولا ينحو نحو المنكر، وقد ولع باللغز في صديقه وقرينه أحمد بن الحسن  
 المالقي الذي ذكرناه فيما سبق، فمما قاله فيه وقد حلق رأسه (34) :

قَصْرُ الشِّعْرِ سَيِّدِي أَوْ أَطْلَهُ  
 فَمُحْيَاكَ لَمْ يَزُلْ لِي أَنْسًا  
 فَإِذَا مَا أَطْلَتَهُ لَحْتَ بَذْرًا  
 وَإِذَا مَا قَصَرْتَهُ لَحْتَ شَمْسًا

وقد حذا في هذا حذو الرّمادي الذي يقول:

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيزْدَادَ قُبْحَا  
 حَذَرَا مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشَحَا  
 كَانَ قَبْلَ الْحَلَاقِ صُبْحًا وَلَيْلًا  
 فَمَخَوْا لِيَلَهُ وَأَبْقَوْهُ صُبْحًا<sup>(1)</sup>

ومن هذا النوع قوله فيمن اسمه أحمد بن فرج (2) (43) :

خَبْرُونِي وَاصْدُقُونِي فِي الْحَجَّ  
 إِنِّي صَبَّ مَشْوَقٌ مُذْ حِجَّ  
 ظَبْيُ إِنْسِ أَحْمَدُ أُمَّ مَلَكٍ  
 مِنْ جِنَانِ الْخَلِيلِ لِلدُّنْيَا خَرَجَ  
 بَيْنَوَا نِسْبَتَهُ لِي مِنْهُمَا  
 وَاتَّرَكُوا نِسْبَتَهُ لَابْنِ فَرَّاجَ  
 حَسَنَةُ الْفَتَّانُ مَنْ يَعْشَقُهُ  
 لَيْسَ فِي الْعُشْقِ عَلَيْهِ مِنْ حَرَجَ  
 زَعَمُوا فِي بَسْطَةِ مَسْكُنَهُ  
 صَدَقُوا وَاللَّهِ لَكُنْ بِالْمُهَاجِ

ولا ندرى في أي الأحمدتين السابقتين يقول (114) :  
 إِنْ يَكُنْ أَحْمَدٌ بِوَضْلٍ بِخِيَالٍ  
 وَغَدًا مَا لَصَدَّهُ مِنْ تَنَاهٍ  
 فَلَكُمْ جَادَ لِي لَدَى النَّوْمِ طَوعًا  
 بِعِنَاقٍ وَبَارِتَشَافٍ شِفَاءٍ

ويقول (114) :  
 صَدَّ فِي الْيَقْظَةِ عَنِي أَحْمَدٌ  
 وَغَدًا فِي النَّوْمِ وَضَلَّ يَيْذَلُّ  
 عَجَبًا فِي النَّوْمِ مَا أَجْوَدَهُ  
 وَهُوَ فِي الْيَقْظَةِ مَمْنُ يَيْخَلُّ

وإذا كنا نعتبر هذا ومثله مما قاله في أيام الشباب فإننا نجد في ديوانه  
 غزلًا قاله وهو يتولى الإمامة والخطابة ك قوله في غلام يدعى سعدون (107) :

يَا حُسْنَ سَعْدُوْنِ يُشِيرُ بِشَمْعَةٍ  
 وَاللَّيلُ قَدْ مَدَ الظَّلَامَ رِوَاْقاً  
 وَلِنُورِهَا مِنْ نُورٍ وَجْتَهِ سَنَّاً  
 لِمَعَانِهِ قَدْ طَبَقَ الْأَفَاقَا  
 فَكَانَ مِنْهَا الْمُشْتَرِي فِي كَفَهِ  
 وَكَانَهُ بَدْرُ الدَّجْجَى إِشْرَاقَا  
 عَكَفَتْ عَلَيْهِ الْعَيْنُ تَنْسُرُ حُسْنَةٍ  
 لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْتِي لِخَطَابَةٍ  
 أَرْعَى الْعَهُودَ وَأَحْفَظَ الْمِيثَاقَا  
 لَقَضَيْتُ حَقَّ النَّفْسِ مِنْ تَقْبِيلِهِ  
 وَأَبْحَثُهَا ضَمَّاً لَهُ وَعِنَاقَا

كما نجد له أربع قطع في التغزل بذوي العذار (144 - 145) وهو موضوع شغل به شعراء ذلك العصر في المشرق والمغرب وألف فيه بعضهم<sup>(3)</sup>.

وقد ظل الشاعر الفقيه - برغم وظائفه الدينية وبلغه سن الخمسين - يهيم أحياناً في أودية الهوى ويتزحزح إلى القول في معاني اللغو واللهو، وهذا هو يلوم نفسه على ذلك فيقول من قصيدة (149):

إِلَى كُمْ تَمِيلُ النَّفْسُ بِي لِلْهَوِيِ الْعُذْرِي  
 وَشَيْبُ عِذَارِي مُبْطِلُ فِي الْهَوَى عُذْرِي  
 وَتَجْرِي إِلَيْهِ، بَعْدَمَا ذَهَبَ الصَّبَا  
 وَأَيَّامُهُ عَتَّيِ، عَلَى الْمَسْلِكِ الْوَعْرِ  
 وَتَرْضَى بِهِ وَصْفًا ذَمِيمًا يَشِينُهَا  
 وَتَهْتَكُ فِي اشْتِهَارِهَا مُسْبَلَ السَّتْرِ

وَمَهْمَا صَرَفْتُ الْوَجْهَ يَوْمًا لِعْتَبْهَا  
 تَزَيَّدُ كَأَنِي بِاتِّباعِ الْهَوَى أَغْرِي  
 وَتَأْسُسُ بِالْغَيْدِ الْأَوَانِسِ كَالْدُمِي  
 مَتَىٰ مَا بَدَتْ مِنْهُنَّ عَاطِرَةُ النَّشْرِ  
 وَتَرْزَعُمُ أَنَّ اللَّهُوَ وَصْفُ لِذِي الْهَوَى  
 لِسِرٌّ خَفِيِّ الْأَمْرِ مِنْ أَعْجَبِ السَّرِّ  
 وَتَنْلُبْنِي لِلَّهُوَ عَمْدًا وَلِلَّهُوَ  
 وَقَدْ عَلِمْتُ مَا فِيهِمَا بَانَ مِنْ ضُرٍّ  
 وَمَهْمَا دَعَتْنِي كَيْ أَمِيلَ إِلَيْهِمَا  
 أَجَاوِبُهَا بِالْقَوْلِ فِي مَعْرِضِ الرَّجْرِ  
 أَيْلُهُوَ آمْرُؤُ مِثْلِي صِبَاهُ قَدْ انْقَضَى  
 بِخَمْسِينَ عَامًا قَدْ تَولَّتِ مِنَ الْعُمْرِ

ثم انتقل بعد هذا إلى سرد زواجر وعظية في التذكير بالموت وما

بعده.

وتناول هذا الموضوع أيضاً في مطلع قصيدة أخرى إذ يقول (140):  
 إِلَىٰ كَمْ إِلَهِي بِالْمَتَابِ أُعَاهِدُ  
 وَنَفْسِي عَلَيْهِ كُلُّ وَقْتٍ أُجَاهِدُ  
 وَعَهْدِي مَدَى الْأَيَّامِ لَسْتُ بِهِ أَفِي  
 وَنَفْسِي عَلَىٰ عَادَاتِهَا لَا تُسَاعِدُ  
 وَأَكْثَرُ عُمْرِي فِي الْبِطَالَةِ قَدْ مَضَى  
 وَلَيْسَ لِمَاضِي الْعُمْرِ وَاللَّهُ عَائِدٌ  
 وَقَدْ ذَهَبْتُ مِنْيِ القُوَى وَتَغَيَّرَتْ  
 وَهَلْ قُوَّةٌ بَعْدَ الْذَّهَابِ تُعَاوِدُ

وَشَابَ عِذَارِي وَاسْتَحَالَ سَوادُهُ  
 وَبِالْمَوْتِ لَا شَكَّ الْمَشِيبُ يَعَاوَدُ  
 فَهَلْ تَوْبَةٌ تَمْحُو مِنَ الذَّنْبِ مَا بِهِ  
 عَلَيَّ وَلَا أَخْفِي إِلَاهِي شَاهِدُ  
 أَبَيْتُ لِمَا قَدْ جَثَّهُ مِنْهُ خَائِفًا  
 وَإِنِّي لِخَوْفِي سَاهِرُ الظَّرْفِ سَاهِدُ

وأحسب أن الشعر الذي قاله في الرهد والابتهاج صدر عنه في كبره،  
 ومن ذلك قصidته التي أولها (95):

حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى يَا سَاهِدُ  
 تُلْفِي كَثِيرَ النَّوْمِ، قُمْ لِلَّهِ

وقصidته التي أولها:  
 أَفِقْ لِمَشِيبِ بَرْقَهُ يُكْثِرُ الْوَمْضَا  
 وَبِتْ بَفْوَادِ حَرَهُ دُونَهُ الرَّمْضَا

وقطعته التي يقول فيها (106):  
 تَبَنَّهُ مِنْ نُعَاسِكَ لَا تُطْلِهُ  
 فَقَدْ أَفْرَطْتَ فِي طُولِ النَّعَاسِ  
 فَمَوْتُكَ يَا أَخِي وَالْبَعْثُ حَقُّ  
 وَأَنْتَ الدَّهْرَ لِلْأَمْرَيْنِ نَاسِ  
 فَحَادِرُ مِنْهُمَا مَا عِشْتَ وَاهْجُرْ  
 نَعِيمَكَ بِالْمَطَاعِيمِ وَاللَّبَاسِ  
 وَبَعْدَهُمَا مَحَاسِبَةٌ وَهُوَلُ  
 يَشِيبُ لَهُ الصَّغِيرُ مِنَ الْأَنْاسِ

وينقسمُ الخلاصُ بعْدَ إِمَّا  
 لِنُعْمَى لَا تُفَارِقُ أَوْ لِبَاسِ  
 فَمَنْ أَضْحَى وَهَذَا مُنْتَهَاهُ  
 فَحَقُّ أَنْ يُشَاهِدَ ذَا احْتِرَاسِ

والظاهر أن الشاعر أنساً مثلَ هذا الشّعر ليذكر به المذكورون قبيل آذان  
 الفجر.

ومما يلحق بهذا الضرب من شعره قصيدةتان في مدح الجناب النبوى  
 قالهما عندما كان أسيراً وفيهما سرد لسيرة النبي عليه السلام وتعدد  
 لمعجزاته وتشفع بجاهه، وقد وردتا في صدر الديوان.

ومن ملامح شخصية شاعرنا البارزة حدة الطبع والخلق، ويبدو أن  
 هذه الحدة كانت من أسباب متابعيه التي شرحناها فيما سبق، وقد اتهمه  
 بعض خصومه بالنزوع إلى الشر والخضام ونعته بأنه شيطان فقال يرد عليه  
 : (77)

زعمتَ وَقَدْ أَخْطَأْتَ فِيمَا زَعْمَتَهُ  
 بِأَنِّي شَيْطَانٌ وَلَسْتُ بِشَيْطَانٍ  
 وَلَكِنَّمَا الشَّيْطَانُ أَنْتَ حَقِيقَةٌ  
 لِخُبِيثِكَ إِذْ تَرْمِي سَوَاكَ بِنَقْصَانٍ  
 وَفِيكَ صَفَاتٌ فِي الشَّيَاطِينِ الْفِيَّثُ  
 أَشَاعَ بِهَا إِقْرَارَهُ كُلُّ أَنْسَانٍ  
 وَفِي الْحَوْلِ الْبَادِي بِعِينِكَ شَاهِدٌ  
 يَبْيَّنُ صِدْقِي الْيَوْمَ أَوْضَحَ تَبْيَانٍ

ووصفه بعض أولي الأمر بأنه «داهية دهباء».

وقد خاطبه بعضهم بدون تسويغ فقال فيه (77) :

مالي رأيتك للتسويد متراكماً  
إذا دعوت صديقاً يا أبا الحسن<sup>(4)</sup>  
أكيراً أم جهلاً أم سخفاً رأى بصرى  
مما أتيت به أم كنت ذا وسِن

وشبيه بهذا قوله في آخر مد رجله في مجلس عام كبراً أو جهلاً

: (139)

أي امرئ مد الرجل في ملأٍ  
من غير عذرٍ فصفعهُ أدبهُ  
يطول منها لعظم موقعها  
من نفسه طول عمره عجيبة

. وفي ديوانه مداعبات تدل على خفة روحه.

وقد أوردنا فيما سبق أمثلةً من تندّره ببعض خصومه ومن أساء إليه،  
وهذا مثال آخر مما لم نذكره وفيه تورية (13) :

أتى عابد الرحمن من حُسْنِ ودَه  
بنفحةٍ وردٍ في حدائق آسٍ  
فلما أتى بالعكس حققتْ أنه  
لقيح الذي أبدى لعيوني فاسي

ولم يستثن من تندّره بعض نساء وقته لأسباب شخصية أو غيرها كقوله  
في التورية بإحداهن (109) :

عجزٌ لها حسب حرصها  
على طلب الشرّ ما أكثره  
إذا ما تعاتبُ في فعلها  
تقول اعتذاراً أنا مُجبرةً

وقوله في أخرى تدعى قسطلة عرفها لما كان في برجة (121):  
 يا غيث عاهم دائمًا من برجة  
 تلك الربوع حزنها وسهلها  
 ولا تخص عندمًا تهمي بها  
 بقطرة قسطلة وأهلها

وقوله في التعريض بأمرأة لقبها قيراطه وفيه تورية (115):  
 الغُشْ عَيْبُ وَهُوَ فِي صِرْفَنَا  
 قَدْ أَحْكَمَ التَّضِيِّعَ إِفْرَاطَهُ  
 فَصَرْفَنَا دَرَهَمُهُ لَمْ يُعْبَ  
 مِنْ ذَمَّهُ أَوْ ذَمَّ قِيرَاطَهُ

ونخت هذه الفقرة بإيراد قصيدة أجباب بها بعض أصحابه من الشعراء  
 كان يشتكي من زوجه العجوز (101-102):

لنظمك في النفوس من الجزاله  
 محل دونه مرقى الغزاله  
 لذاك أهيئ منه بكل نوع  
 غريب في اختصار أو إطالة  
 وحي الله منه بديع حسن  
 سقاني للسرور به زلالة  
 شكت به عجوزاً أنت منها  
 بحالٍ ترجي لها الاستحاله  
 وجئت لها بأوصاف قباح  
 تناسب خلقها منها الرذاله

فَلَمْ تَرُكْ بِمَا أَبْدِيَتْ مِنْهَا  
 مَدَاعِبَةً لِذِي قَوْلٍ مَقَالَةً  
 وَمَا أَغْفَلَتْهُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرٍ  
 فَعَنْ عِلْمٍ بِهِ لَا عَنْ جَهَالَةٍ  
 فَطَلَّقْهَا طَلاقَ فَتَّى كَرِيمٍ  
 فَهَا هِيَ أَكْثَرَتْ - زَعْمُوا - سُؤَالَةٍ  
 فَإِنَّ طَلاقَهَا رَأَيْ رَشِيدٌ  
 تَحْقَقَ رَشْدُهُ تِلْكَ الْجَلَالَةُ  
 فَبَادِرْ نَحْوَهُ وَاسْرِئِيلَانِي  
 بِهِ أَرْجُو لِعْنُوكَ إِلْقَالَةٍ  
 فَعِصَمْتُهَا لِذَاكَ الْمَجْدِ قَيْدٌ  
 وَإِنِّي بِالْطَلاقِ أَرَى اِنْحِلَالَةُ  
 وَلَا تُطِلِّ التَّائِمَ بَعْدَ وَانْكَخْ  
 فَتَاهَ تَسْلُبُ الْفَصْنَ اِعْتِدَالَةُ  
 مُنَعَّمَةً يَبْيَتِ الصَّبُّ مِنْهَا  
 بِمَا يَلْقَاهُ شَاكِيًّا اِعْتِلَالَةُ  
 لَهَا وَجْهٌ غَرِيبُ الْحُسْنِ أَضْحَى  
 مَحِيَا الْبَدْرِ يَحْسُدُهُ كَمَالَةُ  
 وَجْفَنُ غَنْجَةُ سَهْمٌ إِذَا مَا  
 رَمْتَ كَبَدًا بِهِ انْقَطَعَ [ . . . . ]  
 وَخَدُّ وَرَدَهُ غَضْنُ نَضِيرٌ  
 عَلَى طَولِ الزَّمَانِ أَبْتُ زَوَالَةَ  
 وَمُبْتَسَمٌ جَوَاهِرَةُ حَبَابُ  
 لَخْمَرُ الرِّيقِ بَادِيَةُ سِجالَةُ

وجيد دونه في الجيد حسن  
ترأه لـ الغزال أو الغزاله  
ونهد ضمه يشفى المعنى  
وينعم منه خاطره وياله  
وخصر دونه الفنك اليماني  
لرقته إذا ما اللمس ناله  
تُحبك مالها أحببت يوماً  
وتُبدي للجفا منك احتماله  
وترغى ما حيت ولا تبالي  
عهودك كلها في كل حاله  
وتحفظ جهدها إن غبت عنها  
 محل علاقك حفظ ذوي الأصاله  
ومن شعره الذي يسلك في هذا الباب قصيده في رثاء خروف العيد،  
وهو موضوع شغل عدداً من النظميين والزجالين.

---

## الحواشي

---

(1) جذوة المقتبس : 374.

(2) لعله أخو الذي وردت ترجمته في الضوء اللامع 6: «علي بن محمد بن فرج السبتي الوادي آشى المالكي والد أبي القاسم القادم علينا والأتي. مات بقلعة العربة من الأندلس 892هـ عن بعض وخمسين سنة وكان فاضلاً، ولـي قضاء واي آش ثم خطابتها وتدريسها والنظر على الجامع بها».

(3) ألف في ذلك الصنفدي : خلخ العذار، في مدح العذار، والمنهجي : بسط الإعذار وغيرهما.

(4) قد يكون المراد به أبا الحسن علي بن العز أو ابن عزيز أو أبا الحسن علي اللخمي القربياني وهو بسطيان معاصران للشاعر. انظر رحلة القلصادي : 83، 87، ثبت الوادي آشى : 126، 204.

## خاتمة

### قيمة ديوان

لهذا الديوان الفريد قيمتان: إحداهما وثائقية تاريخية، وقد أفادتنا كما رأينا في معرفة شخصية صاحبه ومعرفة عصره، والقيمة الثانية أدبية فنية وهي تقدم لنا صورة من المستوى العام الذي آتى إليه البلاغة الأندلسية قبيل سقوط غرناطة.

ونزيد في خاتمة قراءتنا وعرضنا لـ ديوان القسيسي أن نتناول هذه القيمة الثانية في شيء من الإيجاز، وأول ما نبدأ به تقويم صاحب الـ ديوان نفسه لشعره فقد اعترف - في تواضع ظاهر - أن شعره منحطٌ عن الدرجة المتوسطة وأباح لأهل العلم بالشعر والنقد أن يصلحوا ما يرون أنه في حاجة إلى الإصلاح.

وحيينما أشار عليه الرئيس أبو يحيى ابن عاصم بيعث شعره إليه ليضمّنه كتابه في أدباء عصره الموسوم بالروض الأريض استجابة للإشارة ووافاه بجملة منه «ما بين وحشي ومخشب» بعد أن تردد في إرساله خجلاً وتواضعًا:

وقلتُ حاشاه حاشاه يشين به  
ديوانَ عِلْمٍ أَتَى مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ

ومع اعترافه بانحطاط شعره عن درجة الإجاده فقد كانت نفسه به على كل حال مغتبطة وعنه راضية وله مرددة كما يقول في مقدمة الديوان، ويقول في إحدى قصائده: (145) :

على أن نظمي إنْ يَكُنْ عَدَّ هَلْهَلًا  
فَمَا مِثْلُهُ فِي نُوْعِهِ لِمُهَلْهَلٍ

ويقول في قصيدة أخرى:  
فليس نظام الشعر من شيمي التي  
أجاري بها في النظم من يحسن الطردا

وهو يخبرنا أنه بدأ بقول الشعر في أيام الشباب بعد أن فرغ من دراسة العروض قال: «فعمت الوصول إلى قريضه بعروضه، معاناة الطبيب الماهر علة مريضه، فانقاد إلى ما عانته من ذلك طبيعي، وأخذ إفراط ميل النفس إليه بضعي، فنظمت إذ ذاك منه أبياتاً في غير ما غرض، أديت بها من حقوق النفس كلَّ مفترض».

وإذن فقد واته في نظم القريض طبع مسعن وتيسرت له أدوات النظم من عروض وعربية وبلاحة، ولا بد أنه درسها على شيوخه في بسطة الذين لم يسم منهم إلا أبو عبد الله البباني، وقد يكون منهم واسطة عقد فقهاء بسطة أبو الحسن اللخمي الذي كان يدرس بها علوم اللغة والأداب ومما كان يقرئه كتاب الفصيح لثعلب وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة بالإضافة إلى شرحه على الخزرجية المسمى بالبصرة الكافية في علمي العروض والقافية، وقد أشار في شعره إلى مصادر تكوينه اللغوي والأدبي وهو صاحب العربية للجوهري وديوان الصيب والجهام لابن الخطيب. وإذا كانت قاعدته الأدبية أوسع من هذا فإن الشعر الأندلسي كان

النموذج الأقرب إليه ولا سيما شعر ابن الخطيب الذي غدا آخر رمز للبلاغة الأندلسية؛ وقد وجدنا شاعرنا ينحو منحاه في نظم البيتين أو الأبيات التي يُراد بها التعريض ويتوسل فيها بالتجنيس والتورية ويلتزم في بعضها ما لا يلزم، وهو يورّي بأسماء الكتب ومصطلحات العلوم وغير ذلك، وقد رأينا بعض تورياته فيما سبق، وهذه أمثلة أخرى، ومنها أيضاً قوله (75):

ولمَا أَتَيْتُ الْحَقَّ فِي حَفْظِ وَدْكُمْ  
وَقَدْ قَطَعْتُ بِالْحَافِظِينَ قَوَاطِعَ  
قَطَعْتُمْ أَنْسَى الْكِتَبِ عَنِّي تَعْمَدًا  
وَلَا عَجْبٌ قَدْ يَلْزَمُ الْقَطْعَ تَابِعٍ

وقوله (91-، 92):

أَعْيَنَ الْمَجْدِ إِنْ نَلْتَ اَعْتِلَالًا  
نَشَقْتَ بِإِثْرِهِ لِلْبُرْزِ نَفْحَةً  
فَإِنَّ الْعَيْنَ فِي التَّصْرِيفِ نَالَتْ  
كَمَا تَذَرِيهِ إِغْلَالًا وَصِحَّةً

وتبدو المسحة الأندلسية على هذا الديوان فيما تضمنه من أمثالٍ كانت سائرة بين أهل الأندلس كقوله (78):

يَا أَيُّهَا الْقَائِمُ فِي حُكْمِهِ  
بِالْقِسْطِ لَا يَحْذَرُ مِنْ طَعْنٍ  
إِنَّ الَّذِي أَشْكَوْتُ لَهُ شُوكَةً  
«وَالشَّوْكُ لَا يَخْرُجُ بِالْقُطْنِ»

وقوله:

وَقَدْ جَاءَ فِي مُثْلِ سَائِرِ  
«طَعَامُ الْأَحِبَّةِ مَا قَدْ حَضَرْ»

وقوله:

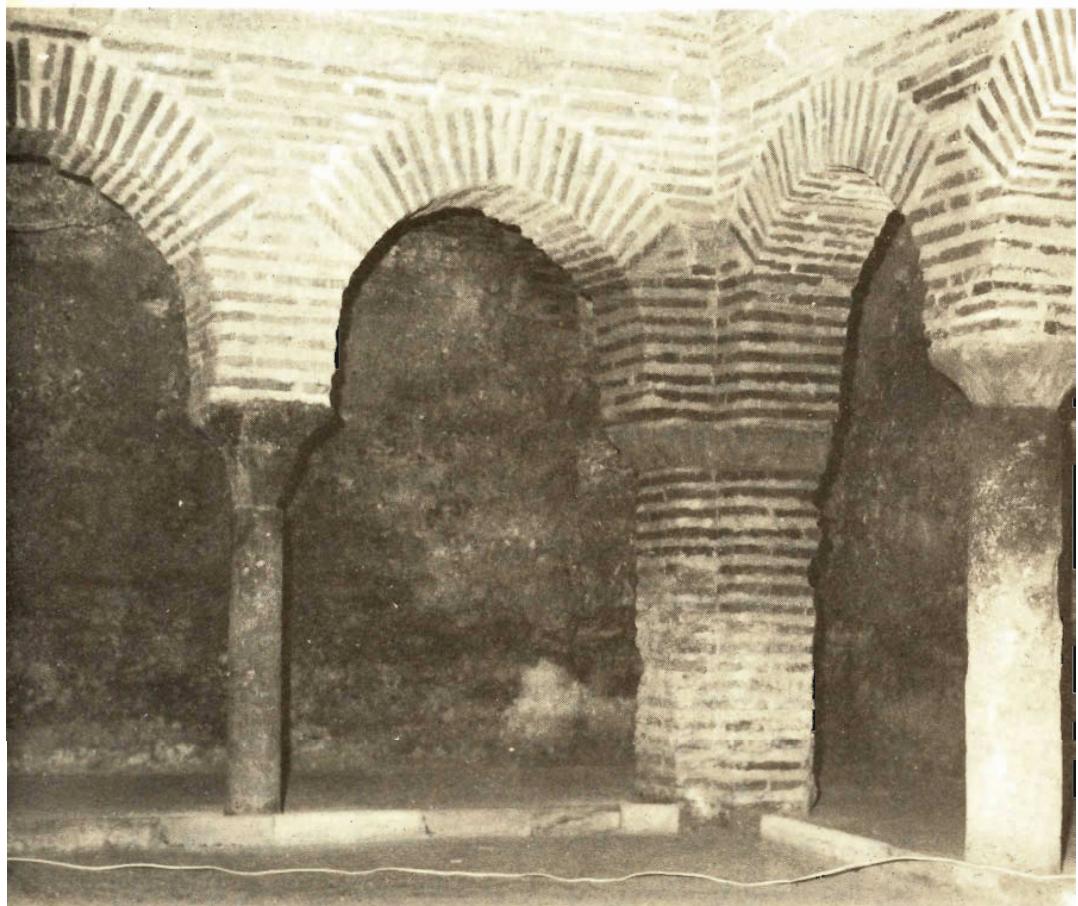
وَأَرِيَ الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِمُصْرِكِمْ  
قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بِالْقَضَاءِ وَيَجْمَعُ  
وَالْحَنْشُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ  
لِسِوَاهُ مُبْتَلٌ إِذَا مَا يَلْمَعُ

وتبدو كذلك فيما اشتمل عليه من ألفاظ أندلسية منها البراني أي الأjenji الغريب، والمخزن أي عن المحكمة نسبة إلى المخزن أي الحكومة في الاصطلاح المغربي، والظهير وهو الصك الملكي، والترائك أي الترکات، والحوانیت جمع حانوت وهو الدکان والفندوق باللواو أي الفندق والخان في لهجة عامة الأندرس ومعد الدر衙م لما تضرب به السكة، ومرشم الخبز لما يرشم به الخبز حتى لا يختلط بخبز الغير.

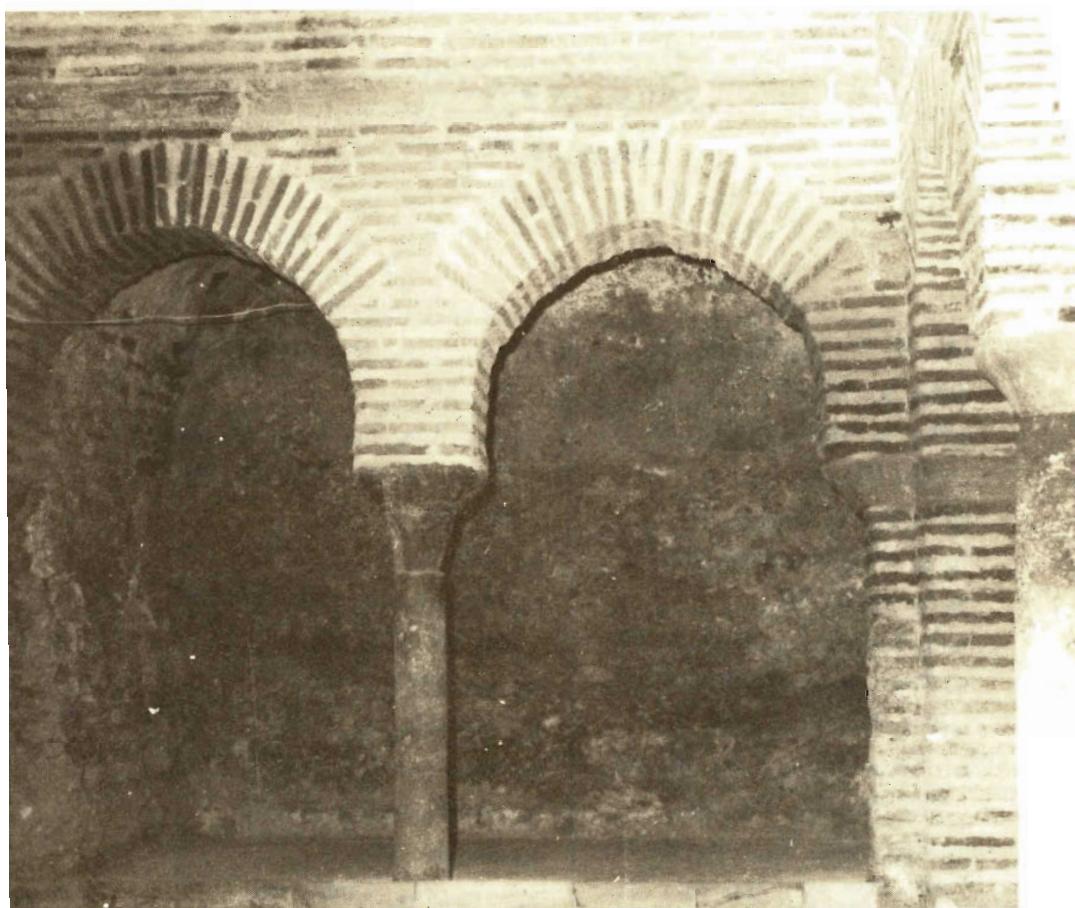
والطابع الغالب على شعر القيسي أنه شعر فقيه يباشر قراءة كتب الفقه ويتمرس بأساليبها فيظهر أثرها في شعره، ومن الكتب التي نعرف أنه درسها أو انتسخها كتب البيان والتحصيل وهو موسوعة في الفقه المالكي لابن رشد الجد وكتاب الشامل لبهرام في الفقه المالكي أيضاً وكتاب وثائق ابن سلمون ورسالة ابن أبي زيد القيروانى، ومن هنا لم يخل شعره من ركاكة في العبارة وضعف في الأسلوب وارتکاب للضورات، وقد وجدهنا ابن الخطيب يقول في صنف الشعاء المشتعلين بالخطابة والتدريس والإقراء من أهل المئة الثامنة في الأندرس إنهم ليسوا بمظنة إجاده في الشعر وأنهم أولى بدرجة الانحطاط وهذا حكم ينسحب بالآخر على الصنف نفسه من أهل المئة التاسعة في الأندرس.

ومهما يكن الأمر فإن قيمة شعر القيسي تكمن في مضمونه قبل شكله، وإن قارئه ليؤخذ بصدقه وصراحته وعفويته وسذاجته ويساطته وسهولته والتزام صاحبه وغيرته ويزداد اعتبارنا لهذا الديوان إذا عرفنا أنه خاتمة دواوين الشعر الأندلسى.

لقد كان في عصر شاعرنا شعراً كثيرون مثل ابن عاصم أبي يحيى والشّرّان وابن الأزرق الوادي آشي وابن الحداد الوادي آشي والشريف العقيلي وابن الجبير اليحصبي وعمر الزّجال وغيرهم من أصحاب القرىض الذين اشتمل عليهم كتاب الروض الأرضي لابن عاصم المفقود ولكن أشعار هؤلاء الشعراء مفقودة بينما وصلت إلينا أشعار البسطي ولهذا اعتبرناه آخر شعراء الأندلس.



بقايا حَمَّامٍ في بُسطة لعله الذي عناه شاعرنا البسطي في قوله (149):  
حَمَّامٌ بُسطَةٌ في اعتدالٍ هوايْهِ ما مثُلُهُ في بَلْدَةٍ حَمَّامٌ  
ماءٌ ونَارٌ عَنْهُما اعتدالٌ هُمَا فَتَنَعَّمْتُ بِدُخُولِهِ الأَجْسَامُ



صورة أخرى لبقايا حَمَّام بسطة، ولعله الذي يقول فيه مستدعاً أحد  
أصدقائه إلى مصاحبه إليه:  
يا مُجْلِلاً نور الصَّبَاحِ بِوْجَهِهِ  
إِنِّي عَزَّمْتُ عَلَى التَّحْمُّمِ فِي غَدٍ  
فَعَسَى تُصَاحِبُنِي إِلَى الْحَمَّامِ  
ديوان البسطي: 82



## فهرس الأعلام

- |   |   |
|---|---|
| <p>ابن جماعة المصري: 163.</p> <p>ابن الحسن النباهي أحمد: 16، 102، 103، 218.</p> <p>ابن الحسن النباهي (أبو حامد): 16، 39، 53، 65، 69، 102، 107، 108، 109.</p> <p>ابن الخطيب السلماني: 104، 107، 114، 124، 140، 170، 231.</p> <p>ابن حبيب (المالكي): 190.</p> <p>ابن الحداد الوادي آشي: 233.</p> <p>ابن خلدون (عبد الرحمن): 120.</p> <p>ابن رجاء (أبو عبدالله): 22، 110.</p> <p>ابن رشد الجد: 192.</p> <p>ابن سراج (قاضي غرناطة): 190.</p> <p>ابن سراج (أبو القاسم): 72.</p> <p>ابن سلمون: 80.</p> <p>ابن سهل (صاحب النوازل): 186.</p> <p>ابن شفيع البسطي: 17.</p> <p>ابن عاصم (أسرة): 16.</p> <p>ابن عاصم (أبو بكر محمد): 100، 155.</p> <p>ابن عاصم (أبو يحيى الوزير): 16، 23، 57.</p> | <p>(أ)</p> <p>أبلة: 28، 31، 32، 36، 37، 100.</p> <p>إبراهيم ابن رقية: 196.</p> <p>إبراهيم ابن عبد البر: 16، 97، 98، 99، 171.</p> <p>إبراهيم (ابن عم البسطي): 46.</p> <p>ابن أبي البقاء الرندي: 149، 150.</p> <p>ابن أبي الحصال: 137.</p> <p>ابن أبي الربيع (أبو فارس الغرناطي): 120.</p> <p>ابن الأحوال الضبي: 152، 189، 190، 191، 192.</p> <p>ابن الأزرق الأصبهني: 23، 42، 123، 128، 130، 148.</p> <p>ابن الأزرق الوادي آشي: 16، 21، 23، 124، 125، 126، 127.</p> <p>ابن أمّال: 76، 77.</p> <p>ابن الأمين الشيطني: 153.</p> <p>ابن باق: 156.</p> <p>ابن جُبَير: 156.</p> <p>ابن الجبَير اليحصبي: 233.</p> <p>ابن جماعة الغرناطي: 132.</p> |
|---|---|

- أبو الحسن (ابن العز أو القرماني) : 224 .  
 . 228 .  
 أبو الحسن الرندي : 153 .  
 أبو الحسن النباهي : 104 ، 106 .  
 أبو الحسن (السلطان النصري) : 107 ، 147 .  
 أبوالحسين الشريف (شيخ الغزا) : 115 ، 117 .  
 . 118 .  
 أبوالرضي (ابن دعمون) : 156 ، 157 .  
 أبو محمد الإشبيلي : 161 .  
 إحسان عباس: 49 ، 163 ، 184 .  
 . 148 .  
 أحمد بابا السوداني: 148 .  
 . 194 .  
 أحمد الحكم: 184 .  
 . 10 .  
 أحمد ابن رقة: 196 .  
 . 218 .  
 أحمد ابن فرج: 153 .  
 . 152 .  
 أحمد (ولد الشاعر البسطي): 45 .  
 أحد ابن القصار: 16 ، 68 ، 147 ، 148 .  
 . 17 .  
 الإدريسي (الجغرافي): 17 .  
 أدب الكاتب: 230 .  
 أرك: 171 .  
 أركش: 171 .  
 أرشدونة: 166 ، 167 ، 173 ، 175 .  
 . 100 .  
 أزهار الرياض: 9 .  
 الأزيرق (محمد بن عبدالله الوادي آشي): 131 .  
 . 161 .  
 اعتماد الرميكة: 161 .  
 الأغراشى (أو الأحرشى): 63 ، 93 .  
 الإكيليل للنباھي: 10 .  
 البيرة (اسم امرأة): 37 ، 217 .  
 ألفية ابن مالك: 22 .  
 . 229 .  
 . 186 ، 182 ، 136 ، 165 ، 128 .  
 . 230 .  
 ابن عبد البر (قاصي غرناطة): 42 .  
 ابن عجيب البسطي: 198 .  
 ابن العز (علي بن عتيق): 16 ، 149 .  
 ابن عزيز (قائد بسطة): 171 .  
 ابن عزيز (أبو القاسم أخو السابق): 171 .  
 ابن عسکر الملاقي: 106 .  
 ابن عطية (المفسّر): 23 .  
 ابن عمار (الشاعر): 137 .  
 ابن غادر: 192 ، 193 .  
 ابن القاسم (المالكي): 23 ، 195 .  
 ابن قتيبة: 230 .  
 ابن القفال (حسين): 154 .  
 ابن القفال (أبو علي حسن): 154 .  
 ابن قلاقص: 129 .  
 ابن لب (الفقيه الغرناطي): 206 .  
 ابن لبوا البسطي: 151 ، 152 .  
 ابن الماجشوون: 190 .  
 ابن محزز الوهري: 208 .  
 ابن مرزوق الحفيد: 159 .  
 ابن مرزوق الكفيف: 159 .  
 ابن مفضل البسطي: 152 ، 189 ، 194 ، 195 .  
 . 197 .  
 ابن مقلة: 156 .  
 ابن منظور (أسرة): 16 .  
 ابن منظور (أبو عمرو): 16 ، 73 ، 74 ، 133 .  
 . 134 ، 135 ، 136 ، 137 ، 138 ، 139 .  
 . 141 ، 186 ، 205 ، 206 .  
 أبو البركات البلفيقي: 114 .  
 أبو حامد الغزالى: 109 .

- . 230، 96، 63، 55  
 بسطة: 11، 13، 15، 16، 17، 18، 19، 42، 40، 38، 28، 25، 24، 21، 20، 63، 62، 56، 54، 53، 52، 44، 43، 83، 82، 74، 73، 72، 71، 70، 69، 101، 100، 97، 95، 91، 86، 85، 84، 112، 111، 110، 109، 108، 102، 122، 120، 119، 115، 114، 113، 144، 142، 134، 133، 131، 126، 125، 166، 157، 152، 151، 150، 148، 186، 183، 181، 180، 179، 178، 200، 199، 198، 194، 192، 187، . 208، 204  
 بيرة: 171
- (ت)  
 تحفة ابن عاصم: 100  
 تقدير في التعريف ببني عاصم: 100  
 التلمساني (أبو عبدالله): 158  
 تلون (حوز بسطة): 204
- (ث)  
 ثبت الوادي آشى: 10، 130، 137، 143، 160، 149، 144  
 ثعلب (النحو): 230
- (ج)  
 الباحظ: 126  
 الجابری الزنجی: 143  
 جبل الفتح (جبل طارق): 166، 199، 170، 171، 174، 175  
 الأمثال العامية لابن القفال: 155  
 الأنجلوس: 9، 27، 80، 95، 120، 122، 134، 177، 172، 166، 136، 179  
 الأهواي عبد العزيز: 10  
 ايزابلا (ملكة الكاثوليكية): 43  
 إيضاح الفارسي: 23
- (ب)  
 باب إلبيرة (غرناطة): 134  
 باب الفرج (بسطة): 126  
 بدائع السلك: 123، 130، 185  
 برجة: 25، 26، 51، 75، 95  
 برشانة: 92، 153، 200  
 برنامج المجري: 10، 160  
 برنامج المتنوري: 16، 160  
 البستانی الفرید: 9  
 البشرات: 25، 49، 75  
 البقاع: 208  
 البکری: 17  
 بلش الشقراء: 171  
 بلش البيضاء: 171  
 بلش: 166، 175، 208  
 بنو أیوب البرشانيون: 153، 154  
 بنو أشقلولة: 122  
 بهرام: 12، 49، 68  
 البورشنيس (وقعه): 99، 171  
 البيان والتبيين: 126  
 البيان والتحصیل: 11، 13، 232  
 البيازین: 141، 142  
 البيانی (أبو عبدالله): 27، 28، 36، 38

- خطرة الطيف لابن الخطيب: 18  
 خليل (المالكي): 189  
 الخليل بن أحد: 23  
 خوان توريس فونتس: 184  
 خوان دي قزمان: 171
- (د)  
 دار الصناعة بمالقة: 139  
 الدانى المجرى: 23  
 الدسوقي: 189، 191  
 ديوان يوسف الثالث: 10  
 ديوان القيسى: 10.
- (ر)  
 راشيل أربيه: 161  
 الرحمة (بسطة): 152  
 رحلة عبد الباسط المصري: 10، 161  
 رحلة القلصادي: 10، 13، 18، 96  
 رسالة ابن أبي زيد القبرواني: 22، 232  
 رسالة التنبية والإرشاد: 39  
 روضة الأعلام لابن الأزرق: 128، 129، 130  
 الروض الأرض: 15، 100، 101، 128، 233  
 الروض المنظور، في أوصافبني منظور: 136
- (ز)  
 الزجالي (أبو يحيى القرطبي): 155
- (س)  
 سان باتريس: 173
- جدام: 158  
 جزيرة الأندلس: 107  
 الجزيرة (جزيرة الأندلس): 98  
 الجعد الله (القاضي): 16، 42، 141، 143  
 جلق: 18.  
 جنان رومة (بسطة): 19، 49  
 جنة الرضى لابن عاصم: 10، 100، 165  
 جومث دي ريبيرا: 168
- (ح)  
 الحامة: 183  
 حامد (قائد وادي آش): 41، 43، 121، 165، 122  
 حبيب (أبو تمام): 152  
 الحداد المهدوى: 93.  
 الحريري: 67.  
 حسان بن ثابت: 158  
 الحسن (ولد الشاعر البسطي): 45.  
 الحسين (ولده كذلك): 45.  
 حصن الشطين: 153.  
 حصن اللقون: 166، 167، 174، 175  
 الحميري (ابن عبد المنعم): 17.  
 حمة صالحه: 90، 94.  
 حوران: 208
- (خ)  
 خراسان: 158.  
 خزانة تامكروت: 10.  
 الخزانة العامة بالرباط: 10.  
 خشقدم (السلطان): 168.

سجل ماسة : 120.

سعد بن محمد النصري : 120، 168.

سعدون (اسم غلام) : 219، 220.

سعيد بن المسيب : 195.

السموّال : 88.

سوليرة : 119.

سيبوه : 23.

سيكودي لوثينا : 10، 16، 161، 201.

### (ش)

الشاطبي : 72.

الشام : 208.

الشامل لبرام : 232.

الشران (أبو عبدالله) : 132.

شرح البردة للإليري : 114.

شرح تحفة ابن عاصم (لولده) : 114.

شعبان الغزي : 17.

شفاء العليل لابن الأزرق : 129، 130.

شكيب أرسلان : 9، 171.

شوجر (حوز بسطة) : 85.

### (ص)

الصابي : 137.

صحاح اللغة : 68، 147.

صحيح مسلم : 195.

الصيّب والجهام : 68.

### (ض)

الضوء اللامع : 96.

### (ط)

طلبيطة : 177.

عائشة بنت ابن مفضل : 194.

عائشة بنت محمد بن غادر : 193.

العبادي (أحمد مختار) : 49.

العباس بن علي بن حميد : 171.

عبد الباسط بن خليل : 10، 132، 148.

عبد الرحمن الفاسي (من أصدقاء البسطي) :

. 224

عبد العزيز المالقي (صديق للبسطي) : 139،

. 140

عبد الكريم القيسى : 10، 13، 48.

عبد الله بن عمروان (شيخ الغزاوة) : 115،

. 166

عبد الملك (خطاط بسطي) : 155، 156.

العبدوسى (عبد الله) : 76.

عدوة الأندلس : 120.

عفصن : 177.

العقيلي (محمد العربي) : 190، 190.

علي بن داود الوادي آشى : 16، 42، 144.

علي بن محمد بن فرج : 228.

علي بن موسى القرآفي : 194، 200، 230.

عمر (الفقيه الرجال) : 140، 233.

عين قتولش : 19، 49.

### (غ)

غرناطة : 9، 10، 18، 44، 43، 42، 27،

, 58، 91، 99، 97، 92، 45، 100،

, 134، 132، 131، 125، 120، 101،

, 166، 157، 148، 142، 141، 136،

, 185، 183، 180، 179، 173، 171،

, 231، 216، 211، 209، 204، 190،

غليرة (حوز بسطة) : 70، 179.

غمارة: 122، 121.

الغوطة: 208.

### (ف)

الفازازي (أبو زيد): 176.

الفاسي (محمد العابد): 48.

فاطمة (محبوبة الشاعر): 216.

فاطمة بنت أبي الحسن القرباقي: 194.

الفالي (أبو الحسن): 93.

فحص بسطة: 90.

فخاردو (بيدرود): 171.

فردناند: 43.

فرناندو دي لا كرانخا: 164.

الفتشي (القائد): 159.

### (ق)

القاضي الشريف: 148.

قسطللة: 225 (اسم امرأة).

قشالة: 134.

القلصادي: 12، 13، 18، 22، 23، 42،

. 185، 148، 159.

قلعتا مالقة: 140.

قناالش: 85 (انظر عين قنولش).

قولية: 119.

قولر: 171.

قومس قبرة: 119.

قيجاجطة: 177.

قيراطة: 225، 206.

### (ك)

كائنة لورقة: 99، 166، 171، 172.

كتاب الفصيح: 230.

### (ل)

لخم: 158.

لورقة: 99، 172.

لوشة: 183، 177.

### (م)

المازري: 195.

مالقة: 122، 134، 135، 137، 138، 139،

. 144، 140، 166.

المامون (أبو العلاء الموحد): 177.

مجلة العربي الكويتية: 10.

محمد بن أحمد بن منصور: 10.

محمد بن أحمد القيسي: 16.

محمد بن سعد (الزغل): 142.

محمد بن عبد الكريم البسطي: 11، 13،

. 48.

محمد بن عبد الملك القيسي المتنوري: 16.

محمد الخامس (النصرى): 120.

محمد بن عثمان (الأحنف): 115، 116،

. 122، 165، 171، 178، 122.

محمد بن علي القيسي: 16.

محمد بن مالك الأليري: 16، 21، 58،

. 150، 112، 113، 114، 110.

محمد بن معن (قاضٍ بسطي): 150.

محمد بن المغربي: 196.

محمد بن نصر (الأيس): 97، 100، 116،

. 171، 178.

محمد (بو عبدل): 99، 142، 99.

. 128، 27، 10، محمود مكي:

- (ن)
- الناصري (مؤلف الاستقصا) : 120 .  
 نبذة العصر : 153 .  
 نجفية (حوز بسطة) : 204 .  
 فتح الطيب : 9 ، 100 ، 119 .  
 نيل الإبهاج : 96 ، 100 ، 114 ، 153 .
- (ه)
- هارولد ليفرمور : 192 .
- (و)
- وادي آش : 95 ، 122 ، 125 ، 144 ، 147 ، 166 .  
 الوادي آشي (أحمد بن علي) : 91 ، 137 ، 159 ، 148 .  
 وادي المنصورة : 200 .  
 وثائق ابن سلمون : 80 ، 201 ، 232 .  
 وثائق عربية غرناطية : 28 ، 148 ، 152 ، 157 ، 161 ، 175 ، 193 ، 194 ، 198 .  
 الونشريسي (صاحب المعيار) : 72 ، 73 ، 76 .
- (ي)
- يعقوب بن عبد الحق (السلطان المربي) : 122 .  
 اليفري (مؤلف التزهه) : 120 .  
 يوسف (أبو الحاج النصري) : 120 .  
 يوسف الثالث النصري : 104 ، 173 .  
 يتيمة الدهر : 129 ، 135 .
- المدونة : 190 .  
 مدينة شدونة : 171 .  
 مرج غرناطة : 183 .  
 مرسيبة : 173 .  
 المرية : 16 ، 16 ، 108 ، 116 ، 147 ، 148 ، 178 ، 171 .  
 مربينة : 204 .  
 مزية المرية لابن خاتمة : 16 .  
 مسائل ابن رشد : 192 .  
 المسجد الحرام : 92 .  
 مسينة (حوز بسطة) : 204 .  
 مشكاة الأنوار : 108 .  
 مظهر النور الباصر : 10 ، 107 ، 161 .  
 المعجب للمراكشي : 17 .  
 المعنى (أحمد بن محمد) : 164 .  
 معيار الاختيار : 18 .  
 المعيار للونشريسي : 72 ، 76 ، 78 ، 114 ، 192 ، 142 .  
 المغرب : 26 ، 170 ، 80 ، 1 .  
 مفضل (شاعر بسطي) : 157 .  
 مقدمة ابن خلدون : 185 .  
 المنصور ابن أبي عامر : 107 .  
 منصور الفقيه : 189 .  
 المنكب : 95 ، 110 ، 111 ، 209 .  
 الملبنة (بسطة) : 19 ، 49 .  
 المواقف للشاشبي : 72 .  
 المواق (أبو عبدالله) : 71 ، 72 ، 73 .  
 المولى علي الشريف : 120 .  
 موللر (مستشرق) : 9 .

---

## **وزراً الغرب للإسلامي / الجبَّال المُسْتَقِيم**

شارع الصوراتي (المعاري) — الحمراء — بناية الاسود  
تلفون : 340131 - 340132 — ص.ب. 113-5787 بيروت — لبنان

---

---

الرقم 1985/4/1000/59

---

التنفيذ: **كومبيوتاينج** لـ **الصحف الطياعنة الإلكترونية**

---

الطباعة: مؤسسة نزيره كركي

---

# المحتويات

7	.....	تقديم .....
9	.....	الفصل الأول: من هو البسطي .....
51	.....	الفصل الثاني: كفاحه في سبيل العيش .....
95	.....	الفصل الثالث: صلاته بمعاصريه .....
165	.....	الفصل الرابع: غيرته على الدين والوطن .....
185	.....	الفصل الخامس: حالة الخطط الدينية والاجتماعية في عصره .....
215	.....	الفصل السادس: بين الجد والهزل .....
229	.....	خاتمة: قيمة ديوانه .....

Este libro es una lectura documentada de un diwân manuscrito único en su género. Se trata del diwân de al-bastî, último poeta de al-andalus, el cual vivió en el siglo quince y fué testigo de los acontecimientos de la caída del reino de Granada.

Se parece mucho a unas Memorias y su valor es polifacético. Es un documento histórico que descubre aspectos desconocidos del fin de la época musulmana en al-Andalus, siendo un espejo que refleja la vida social de Baza en particular y la del reino de Granada en general. También es un documento literario que evidencia el nivel de la poesía árabe que se queda viva hasta la caída de Granada. En resumidas cuentas, es en árabe una versión única de los hechos que solo se conocen hasta hoy muy poco y a través de su versión en castellano.



# **AL - BASTI**

**EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS**

**POR**

**MUHAMMED BEN CHRIFA**



**DAR AL-GHARB AL-ISLAMI**

PUBLISHING - PRINTING - DISTRIBUTION